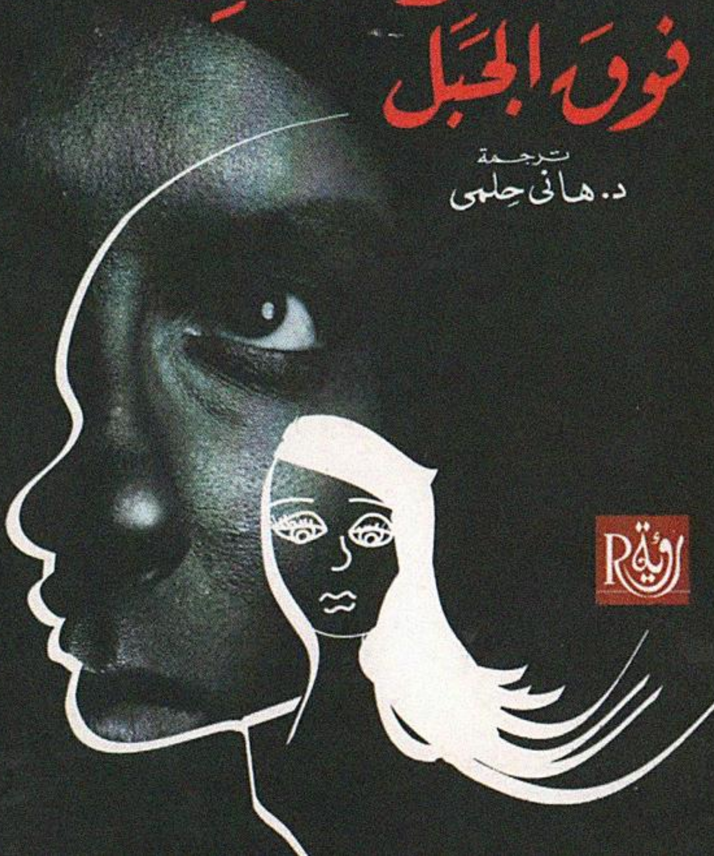
رواية

جيمس بولدوين

أعلنوا مولده فوق الجبل

ترجمة

د. هاني حلمي



چيمس بولدوين

أعْلِنوا مَولِدَه فوقَ الجَبَلِ

روايـــــــة

ترجمة

د. هاني حلمي

للنشر والتوزيع

2012

للنشر والتوزيع

2012

عنوان الكتاب : **أعلنوا مولده فوق الجبل (رواية)**

اسم الكاتب : **جيمس بولدوين**

اسم المترجم : **هاني حلمي**

المدير المسؤول : **رضا عوض**

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة : 012/3529628

8 ش البطل أحمد عبد العزيز – عابدين

تقاطع ش شريف مع رشدي

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس : 25754123 (202) +

هاتف : 23953150 (202) +

الإخراج الداخلي : **حسين جبيل**

جمع وتنفيذ : **القسم الفني بالدار**

الطبعة الأولى : 2012

رقم الإيداع : 2011/21384

الترقيم الدولي : 978-977-499-038-0

إهداء

إلى أمي وأبي

المؤلف

■ مقدمة ■

چيمس بولدوين

في روايته الأولى «أعْلِنوا مَولِدَه فوقَ الجَبَلِ»

«أريد أن أكون إنسانًا شريفًا وكاتبًا مُجيدًا»

بهذه المقولة يُدَشِّن جيمس بولدوين خطواته الأولى في عالم الكتابة ليلخص، فيما يشبه بيانًا مباشرًا موجزًا، المهمة الفنية التي وضعها نصب عينيه. فتصبح الكتابة قرينة الحياة، وتغدو الحدود بينهما معابر مفتوحة تراوح الذات خلالها رغبة في الوصول لمعرفة النفس والحقيقة، واستحقاق الصدق الإنساني والفني في آن معًا. فتتبدى الحياة في نظر بولدوين تجربة من الألم والسعادة، والأمل في التجدد عبر الميلاد المتواصل، وتصير الكتابة هي القابلة التي تجلب للحياة ميلادًا جديدًا من رحم التجربة. دأب بولدوين على التأكيد على هذه المهمة حتى بعد أن غدا كاتبًا مرموقًا؛ فعندما كان أحدهم يصفه بأنه «المتحدث

الرسـمي» باسـم الزنـوج (الأفـريقيين - الأمـريكيين) في الولايات المتحدة الأمريكية، كان يـرفض أن تُلـصَق بـه هـذه اللافتة، معلنًا أنه ليس متحدثًا بل «شاهدًا عـلى المكـان الـذي جئت منه، وعلى أيـن أنـا الآن، شـاهدًا عـلى مـا رأيتـه وعـلى إمكانيات المـستقبل التـي أظـن أن بمقـدوري رؤيتهـا». لقـد كانت الحياة في تجلياتها المختلفة بالنسبة لـه صراعًـا أبـديًا بـين الخير والشر، يدور داخـل الـنفس الإنـسانية بقـدر مـا يـدور خارجها. لذا كان بولدوين دائم التأكيد عـلى ضرورة الرحلـة الداخلية، رحلة استقصاء الذاكرة والروح، معاودة النظر في ما كان، من أجل الوصول إلى الكشف، والرؤيا: «حيث ترى، بل وتغتبط أنك ترى، ما كنت تراه دائمًا».

وتجسد رواية بولدوين الأولى «أعْلِنوا مَولِدَه فوقَ الجَبَـلِ» تلك العلاقة المتواشـجة بـين الحيـاة والكتابـة، بـين بولـدوين الإنسان وبولدوين الفنان، حيث تمتاح مـن بئـر سـيرة تجربتـه الحياتية إبان يفاعته في حي هارلم بمدينة نيويورك. وكما ارتـبط اسم ديكنز بلندن، وديستويفسكي بـسان بطرسـبرج، ارتـبط اسـم بولـدوين بهـارلم، المعـزل الـذي آوى الأفـريقيين - الأمريكيين، والذي كان يُطلق عليه «عاصمة أمريكا السوداء» في أيام تألقه وازدهاره في العشرينيات والثلاثينيات مـن القـرن العشرين (فيما عُرف بنهضة هارلم). ومـع أن بولـدوين رحـل

عن هارلم نهائيًا في سن الثامنة عشرة، ولم يعد إليها إلا لزيارات قصيرة، إلا أنها ظلت تُشَكِّل عالمه الأدبي في جل كتبه. بل إن قصة بولدوين مع هارلم وخروجه منها هي في أحد جوانبها قصة صراعه ومنافحته من أجل إتمام روايته الأولى. فكان ميلاد الرواية بمثابة ولادة جديدة لبولدوين جديد منعتق من ميراث هارلم المثقل بالعنصرية والحقد وكراهية الذات.

ولد چيمس بولدوين في 2 أغسطس 1924، تحت اسم چيمس آرثر چونز، بحي هارلم. وكانت أمه، إما بيردس چونز، ربة منزل، ومن جهة الأب كان بولدوين مجهول النسب إذ لم يتسنَ له أو لأي ممن كتبوا سيرة حياته فيما بعد الحصول على أية معلومات حول أبيه الحقيقي، حيث ظلت أمه شديدة التكتم بخصوص هذا الأمر. وعندما بلغ الثالثة من عمره تزوجت أمه من داڤيد بولدوين الذي كان عاملاً في أحد المصانع، بالإضافة لعمله الجانبي كواعظ في إحدى كنائس هارلم، فتبنى طفل زوجته وتعهده بالرعاية. ودأب چيمس بولدوين في كتاباته على دعوته «أبي» حتى بعد اكتشاف حقيقة نسبه في سنوات مراهقته الأولى. كان داڤيد بولدوين شديد التدين والتزمت إلى حد القسوة والعنف وهو ما كان مثار الكثير من الخلافات والشجارات العائلية التي خيمت على طفولة بولدوين، هذا فضلاً عن الظروف القاسية والفقر

المدقع الذي عاناه في أسرة ضخمة العدد، ضمت ثمانية أبناء بالإضافة له، محدودة الدخل لدرجة صعوبة الحصول على الطعام أو تحقق الشبع.

في وسط هذه الظروف كانت القراءة بالنسبة لبولدوين الصبي ملاذًا من قسوة الأب، ومشاعر الكراهية والذنب، والإحساس بالقبح وفقدان الثقة بالذات التي زرعها الأب فيه، ومهربًا من العزلة التي فرضها الأب على بولدوين وأبنائه الآخرين بدافع الخوف من شوارع هارلم المُهدِدة ورجال الشرطة المتنمرين ورفاق السوء. وجد بولدوين عالمًا بديلاً في الكتب وخاصة الأدب والروايات. فكما وصف نفسه في تلك الفترة: «كنت أقرأ الكتب كأنها نوع عجيب من الطعام». علمته قراءة الروايات أنه ليس وحيدًا في هذا العالم وأن مشاكله الشخصية ليست فريدة في نوعها؛ أدرك أنه، وهو «عين الضفدع» القبيح كما كان أبوه يصفه، ليس بأقبح من أحدب نوتردام، وأن هارلم لم تكن أسوأ حالاً من الحي الشرقي في لندن كما صوره ديكنز، فكم رأى صورته في مرآة أوليفر تويست. وفي مرحلة المدرسة الثانوية شرع في كتابة بعض القصائد والقصص القصيرة التي نشرها في مجلة المدرسة تحت رعاية كاونتي كالن Countee Cullen، وهو واحد من شعراء نهضة هارلم اللامعين، وكان بين معلمي بولدوين في

المدرسة الثانوية الذين تعهدوا موهبته الأدبية بالرعاية والتوجيه.

من المثير في تلك الفترة أن تركيز بولدوين كان منصبًا على الشعر؛ فعرض قصائده على الشاعر كاونتي كالن الذي رأى أنها محاولات لتقليد الشاعر الأسود الأشهر -حينذاك- لانجستون هيوز **Langston Hughes**. فعدل بولدوين عن كتابة الشعر وقنع بمحاولة كتابة «أوليفر تويست» سوداء على غرار ديكنز. فقد كانت تشغله فكرة الكتابة عن عائلته وعن هارلم، إذ كانت الكتابة بالنسبة له بمثابة الاستشفاء، وتعبيرًا عن رغبته في أن يطهر نفسه من مشاعره السلبية تجاه أبيه وكراهيته المريرة له، وخيالاته في الانتقام منه، وهو ما عذَّبه ومزقه بمشاعر الذنب. فشرع في كتابة قصة، تبدو لنا وكأنها بذرة روايته الأولى، وكانت تدور حول فتى صغير يحاول أن يُدّبر خطة لوضع السم في كأس المناولة الخاص بأبيه الشماس خلال قداس الأحد. ولكن بولدوين لم ينجح في إتمام القصة لأنه كان قريبًا جدًا من موضوعه ولم يكن قد تمكن بعد من الأدوات الفنية التي تمكنه من التعامل مع حبكة معقدة بقدر من الموضوعية أو الحياد.

في تلك المرحلة أيضًا، اجتاحته المراهقة بفوراتها الجسدية، واضطراب ميوله الجنسية التي لم يستطع تحديد هويتها

فتضاعف إحساسه بالذنب، وأرهقته مخاوفه من الغوايات الشيطانية فوقع في براثن أزمة دينية حادة وهو في سن الرابعة عشرة: «صرت لأول مرة في حياتي خائفًا - خائفًا من الشر الذي بداخلي ومن الشر الموجود بالخارج». قادته هذه الأزمة الروحية إلى الاعتراف في أحد الكنائس بعيدًا عن كنيسة أبيه، وأمام المذبح طرحته حالته الانفعالية أرضًا في غَشْية أشعرته بأنه تخلص من كل الضغوط التي أثقلت روحه، فأحس أنه نال الغفران والخلاص. عقب تلك التجربة قرر بولدوين أن يعتلي المنبر ليمارس الوعظ في أحد الكنائس المشيخية بهارلم (وهي التجربة التي نجد أصداءً قوية لها في روايته «أغلِنوا مَولِدَه فوقَ الجَبَلِ»). وكان دافع آخر يحدوه في ذلك، فكما قال لاحقًا: «كان في نيتي أن أبزَّ أبي على أرضه». تراءى المنبر لبولدوين كالمسرح، الذي كان يرتاده مع معلمة بيضاء اكتشفت موهبته الأدبية في المدرسة وحرصت على تنميتها من خلال اصطحابه لدور السينما ومسارح نيويورك؛ ورأى الواعظ الصغير نفسه يصول ويجول كممثل على خشبته. لم يكن بولدوين يكتب مواعظه أو يعدها سلفًا، بل كان يرتجل كعازفي الجاز منطلقًا من نغمة ما، أو نص إنجيلي، ثم يتناغم ويتماوج مع استجابات المستمعين وإحساسه بهم. في تلك المرحلة انقطع عن المسرح والسينما وأخبر معلمته البيضاء أنها

بيوت للخطيئة لن يستطيع أن يطأها مرة أخرى، فصارحته بأنها فقدت احترامها له.

سرعان ما ناوشته شياطينه الجنسية مرة أخرى، وتجاذبت روحه ربات الفنون، فغادر المنبر بلا رجعة، وقر قراره على أن تكون الكتابة هي مصيره المنتظر، وسبيله للحياة وللتحرر من انقساماته وعذاباته. كان قراره هذا هو آخر مواجهة بينه وبين أبيه، الذي كان المرض العقلي يدفعه إلى نهايته المحتومة عبر سنوات مشبعة بمراراته وكراهيته لأمريكا البيضاء وللشياطين البيض، وعالمهم الذي ماهى بينه وبين عالم الفن وكل ما هو بعيد عن عالم الكتاب المقدس. وفي آخر حوار بينهما، أو بالأحرى في المرة الوحيدة التي تبادلا فيها حوارًا كما يقول بولدوين، سأله أبوه: «أظن أنك تفضل الكتابة على الوعظ؟» وكانت إجابة بولدوين كلمة واحدة: «نعم». فقد كان يعرف موقف أبيه جيدًا من هذا الطموح المستحيل في عالم الشياطين البيض والذي سوف يقود الصبي الأسود إلى مواجهة مهلكة.

غادر بولدوين الكنيسة وهارلم بعد تخرجه من المدرسة الثانوية عام 1942، ولما كانت ظروفه المادية لا تؤهله للالتحاق بالجامعة فقد اضطر للعمل في وظائف مختلفة في أوساط البيض في نيويورك ونيوجيرسي، لتكشف له العنصرية عن وجهها القبيح، وليتهدده ذلك الإحساس بالكراهية

والمرارة الذي أودى بأبيه إلى الجنون ثم إلى الموت في عام 1943. فأصابه ذلك الداء القاتل الذي يصيب السود من جراء العنصرية، ثورة الدم وحُمى الكراهية التي أدرك أن عليه أن يتعايش معها أو يستسلم لها لتدمره، ولاسيما بعد أن رفض أحد المطاعم في نيوجيرسي استقباله لأنهم لا يسمحون بدخول السود فحطم أحد المرايا، وكاد يقتل عاملة بالمطعم، وكادت الشرطة تلقي القبض عليه. أدرك أن حياته مهددة، كما قال: «ليس مما قد يفعله الآخرون بل من الحقد الدفين الذي أحمله في قلبي».

انتهى به المطاف كنادل في «جرينتش فيلدج»، هذا الحي النيويوركي الذي يعج بمقاهي وحانات المثقفين والفنانين البوهيميين، فتأججت رغبته - في هذا الوسط - في أن يتعيش من الكتابة وخصص وقته بعد العمل لكتابة بعض المقالات ومراجعات الكتب لمجلات الـ «نايشون» و«كومنتري» و«بارتزان ريفيو»، وهو ما لفت الانتباه له كصاحب أسلوب متميز. كذلك شرع في كتابة روايته الأولى التي تتناول حياة أسرته في هارلم وعلاقته بأبيه ووضع لها عنوانًا أوليًا هو «صرخة التقديس» ثم لاحقًا «في بيت أبي». ولكنه كان يمزق من الصفحات أكثر مما يكتب، إذ كان لم يجد طريقه بعد لتجسيد علاقته بعالم البيض أو بميوله الجنسية المضطربة.

كذلك ظلت مشكلة تصوير أبيه (زوج أمه) حجر عثرة في طريق كتابة الرواية. كيف يرسمه؟ بريشة الكراهية أم ريشة الحب؟

في تلك الفترة تعرف بولدوين على الروائي الأسود المرموق «ريتشارد رايت Richard Wright» صاحب رواية «ابن البلد» (1940) والذي قرأ المسودات الأولى للرواية وشجع بولدوين وزكّاه للحصول على منحة للتفرغ للكتابة فيما بعد. كانت كتابة «رايت» ذات أثر كبير في بولدوين؛ فقد مست حياته كما خبرها في هارلم مسّا مباشرًا، البيوت الفقيرة والكنائس والشوارع التي تعيث فيها الفئران: «لأول مرة في حياتي، وجدت كتابة تُعَبِّر عن الأسى، والغضب والمرارة القاتلة التي كانت تنهش حياتي وحياة من حولي. كانت روايته بالنسبة لي تحررًا وكشفًا». ولكن محاولة بولدوين تقليد طريقة رايت الروائية فشلت في حل مشكلاته مع الكتابة. فرغم إعجابه الشديد به، كان بولدوين يفكر في نفسه كـ «كاتب»، وليس «كاتبًا أسود». ورغم أن رايت بدا بمثابة الأب الأدبي الذي قدم الدعم المعنوي والمادي لبولدوين وزكّاه للحصول على منحة لإتمام روايته، إلا أن بولدوين فشل في إتمامها على الوجه الذي يحب، وبعرض ما كتبه على الناشرين رفضوا الرواية باعتبارها غير صالحة للنشر.

في أعقاب ذلك كان بولدوين يشعر في أعماقه بشيء من المهانة إزاء فشله أمام هذا الأب الأدبي. ومن ثم يخيل لنا وكأن بولدوين شعر أن عليه أن يذبح هذا الأب الجديد من أجل أن يحرر نفسه. وهذا هو ما فعله لاحقًا في مقالة «رواية احتجاج للجميع» (1949)، حيث انتقد فيها النماذج المنمطة للسود كما صورتها الليبرالية البيضاء، ممثلة في رواية «كوخ العم توم» (1852) للكاتبة الأمريكية البيضاء هارييت بيتشر ستو، والتي كان لها أثر عميق في مناوءة العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية، بل ويذهب البعض إلى أنها كثفت من حدة الصراع الذي أدى إلى الحرب الأهلية الأمريكية. ومن هنا نظر بولدوين إلى الشخصية الرئيسة في رواية رايت، وهي شخصية بيجر توماس الشاب الأمريكي الأسود، على أنه أحد أحفاد العم توم، باعتباره الصورة المعكوسة للعم توم الزنجي المسيحي الطيب الخانع. بدا بطلا الروايتين لبولدوين وكأنهما «مشتبكان في معركة مميتة خارج الزمان؛ الأول يلقي بالخطب الوعظية بلا هوادة، والثاني يصرخ مستنزلاً اللعنات». كانت مشكلة بطل رايت بالنسبة لبولدوين أنه قَبِلَ التعامل مع هويته وإنسانيته وفقًا للأطر التي حددها المجتمع العنصري. ومن هنا كان فشل رواية الاحتجاج من وجهة نظر بولدوين يكمن في «رفضها للحياة، للإنسان، وإنكارها لجماله ومخاوفه وقوته،

وإصرارها على أن تصنيفه هو فقط الشيء الحقيقي الذي لا يمكن تجاوزه».

ترك رفض المخطوطة الأولى للرواية آثارًا سيئة على بولدوين، فتردى في حالة من التخبط والضياع في حانات نيويورك، وأثقلته المدينة بأجوائها العنصرية وأوشكت أن تدفعه إلى حافة الجنون مثلما فعلت مع أبيه من قبل. رفض بولدوين الاستجابة لنصيحة أحد أصدقائه باستشارة طبيب نفسي باعتبار أن ذلك لن يحل مشكلته، فهو لا يريد التوافق مع مجتمع كهذا، وليس بحاجة لطبيب نفسي ليجد مبررًا كالآخرين لحيواتهم الفارغة. واجهته مشكلة هويته بضراوة شلت قدرته على التفكير أو مواصلة الكتابة: «لم أعد أشعر أنني أعرف من أنا في الحقيقة، أسود أم أبيض، ذكر أم أنثى، موهوب حقًا أم محض كذبة، قوي الشخصية أم مجرد شخص يتسم بالعناد. لقد صرت شخصًا غريب الأطوار. كان عليَّ أن أستعيد توازني لكي أواصل الحياة وكان أملي الوحيد أن أغادر أمريكا». وكان أن غادر نيويورك في نوفمبر 1948 متجهًا إلى باريس، حيث كان الكثير من الكُتَّاب الشبان والفنانين البيض والسود الذين تعرف عليهم، ومن بينهم رايت، قد شقوا طريقهم قبله إلى باريس.

قضى بولدوين طيلة العقد التالي في منفاه الاختياري باريس؛ حيث شعر بقدر من التحرر من الضغوط التي فرضها عليه لونه في أمريكا. وعلى الرغم من إدراكه أن باريس ليست جنة الحرية الموعودة، إذ رأى «زنوج» فرنسا مجسدين في اللاجئين الجزائريين الذين قابلهم هناك وعاش بينهم مُطلقًا عليهم «البؤساء»، إلا أنه شعر بشكل عام أن مواقف الناس أكثر تحررًا فيما يتعلق باللون أو الميول الجنسية. كانت سنواته الأولى في باريس، كما تأملها بولدوين فيما بعد، بمثابة يقظة فكرية وعاطفية. فخلال تلك السنوات واصل العمل على الرواية، وكان يقضي أوقات الفراغ بصحبة أصدقائه من الكتاب السود المغتربين واستمرت علاقته المعقدة المضطربة بـ «رايت».

في عام 1952 عاد بولدوين إلى الولايات المتحدة وهو يحمل مخطوطة «أغلِنوا مَولِدَه فوقَ الجَبَلِ» التي قُبلت للنشر وصدرت في العام التالي. تدور الرواية في مدارات روايات التكوين أو التربية، وخاصة تلك الفصيلة من الروايات التي تتناول صورة الفنان في شبابه أو صباه، حيث يستيقظ داخل الكاتب ذلك الشعور المؤرق والملح في تحديد هويته المشتبكة بواقع مناوئ يطمح للتخلص من قيوده وعوائقه ولا يملك في نفس الآن التحقق الكامل بقطع الحبل السُّريّ بهذا الواقع.

فجون جرايمز بطل الرواية يستيقظ يوم عيد ميلاده الرابع عشر على إحساسه بالاغتراب عن ذاته وعن أسرته وكنيسة قومه من السود وشوارع هارلم، هو اللامنتمي، الذي أفاق، على حد تعبير كولن ويلسون، على «أنا» ليست «أناه». ومن ثم كان عليه أن يتحسس طريقه نحو ذاته مرة أخرى من خلال تقصي رغباته ودوافعه الخبيئة والترحال في التواريخ الشخصية لأفراد عائلته، تلك التواريخ التي تحمل في قسماتها ووعيها ولاوعيها ندوب التاريخ الأمريكي بصفحاته الملطخة بالعبودية والعنصرية، التي سلبت السود هويتهم وأحالتهم إلى ذوات غير منظورة لا اسم لهم ولا هوية سوى عتمة اللون، فدمرت إحساسهم بتفردهم وزرعت فيهم الإحساس بالقبح والدونية ومشاعر كراهية الذات بل والتماس الموت، تلك المشاعر التي انعكست في رغبتهم في التحول إلى اللون الأبيض.

يستقي بولدوين مادة روايته من تجربته الشخصية في مرحلة المراهقة، حيث تصور الرواية شخصية الفتى چون جرايمز في بدايات مراهقته ومأزقه الروحي والوجودي الناجم عن الضغوط الخارجية ممثلة في تسلط الأب، الواعظ الأصولي، ومنظوره الديني الخانق ورؤيته للحياة المترعة بالمرارة والكراهية، وميراث العنصرية الأمريكية. وتتعقد أزمة چون جرايمز من جراء صراعاته الداخلية مع وعيه المتنامي بالرغبة الجنسية (سواء بشكل عام أو بنزوعه الجنسي المثلي

الذي يُلمِّح إليه النص ولا يُصَرِّح)، وشكوكه الدينية، وتنازع مشاعره بين الفوز بحب أبيه واحترامه ورغبة أوديبية في الإطاحة به وبسلطته. فالسطوة الأبوية المدرعة بلاهوت استبدادي صارم تحكم أجواء الرواية وشخوصها جميعًا، وتستنفد كل إمكانية لحياة طبيعية وعلاقات إنسانية سوية. ويصبح الابن جون ساحة للصراع النفسي والعقلي بين أفكار أبيه الدينية وتصوره هو الخاص للدين المتسم بالمحبة والتسامح والتحقق الذاتي والجمعي.

يتلمس بولدوين في هذه الرواية طريقًا للتحرر مما أسماه في مقالة مطولة بعنوان «النيران في المرة القادمة»: «الأمان الخانق الذي يقدمه الدين بصورته المتزمتة المنغلقة على الذات: الأمان من الضغوط الاجتماعية ممثلة في التمييز العنصري، أو الأمان من عواطفنا وآلامنا، من ضعفنا ومخاوفنا». ومع ذلك يجب التأكيد على أن «أعْلِنوا مَولِدَه فوقَ الجَبَلِ» ليست رواية دينية تبشيرية كما قد يتبدى من عنوانها المأخوذ من إحدى الأغنيات الدينية التي كان الزنوج يرددونها في أعياد الكريسماس والتي يبدأ مطلعها: «انطلقوا وأعلنوا فوق الجبل،/ فوق التلال وفي كل مكان/ انطلقوا وأعلنوا فوق الجبل،/ مولد يسوع المسيح». أو كما يتبدى من لغتها الإنجيلية، ولكنها تجربة روحية وجودية بأبعادها النفسية وتشابكاتها الاجتماعية. ومن هنا هذا الالتباس أو الغموض الذي يلقي بغلالته على النص ونهايته،

والذي يتكشف بفعل لغة بولدوين الإنجيلية واستخدامه لطقوس الكنيسة الأفريقية – الأمريكية. ونظل رهن السؤال: هل الرواية احتفال واحتفاء بالكنيسة أم إنكار واستنكار لانغلاقها وتزمتها؟ فبرغم أن الرواية تنتهي بانضمام الفتى چون إلى زمرة المؤمنين بسقوطه في غشية رؤيوية على أرض الكنيسة، تظل حقيقة توحده مع الرؤية المسيحية السائدة واندماجه في مجتمع الكنيسة محط شكوكنا. فهل ما حدث له تجربة روحية حقيقية أم إيهام نفسي؟ وهل ما انتهى إليه هو خضوع قسري لنهج الجماعة، أم اندماج وقبول طوعي عن قناعة؟

ومع ذلك فبنية النص الجدلية المنقسمة إلى ثلاثة أجزاء – والمبطنة ببنية لغوية قائمة على التضاد بين لغة الأب المستندة إلى نصوص الوعيد والهلاك المستقاة من العهد القديم، ولغة الابن المميزة لأفكاره وتيار شعوره والتي تنزع دائمًا إلى نعمة الحب الإلهي والإنساني وترتكن أكثر إلى العهد الجديد – تطرح في النهاية مفهومًا مختلفًا للدين وتصورًا مغايرًا للإله. وهو ما نجده صراحة في معرض انتقاد بولدوين المباشر للنفاق الأخلاقي الذي اتسم به تصور البيض للدين وممارستهم له في مقاله «النيران في المرة القادمة» (وهو ما نلمحه في الرواية من خلال قراءة چون الداحضة لقراءة البيض لقصة النبي نوح وأولاده سام وحام كمبرر إنجيلي للتفرقة العنصرية ضد السود). حيث يقول: «من كان يرغب في أن يصبح إنسانًا

اخلاقيًا صادقًا... عليه أن ينـأى بنفسه أولاً عـن كـل القيـود والجرائم وأشكال النفاق التي ميزت الكنيسة المسيحية. فـإن كان ثمة جدوى أو نفع لمفهوم الرب، فهـو أن يحملنـا عـلى أن نكون أكثر رحابة وتسامحًا، وأكثر حرية، وأكثر محبة».

ومن هنا تتهادى الرواية إلى نهاية مفتوحة تشي بشكل من المصالحة بين وعـي الفنـان الناشـئ المتمـرد المحـصور في ذات متفردة ضيقة وميراث الجموع السوداء والمعـذبين في الأرض، كما تكشف عن رؤية بولدوين في تقديم رواية احتجـاج أكثـر رحابة من النموذج الواقعي الاشـتراكي الـذي قدمـه رايـت، رؤيـة وضـعته في نظـر كثـير مـن النقـاد في مـصاف الكتـاب الوجوديين. حيث تشف نهاية الرواية عن قبـول الحيـاة قبـولاً رواقيًا قائمًا على الحب، وتنظر إلى العنصرية والكراهية والمرارة وكل أشكال العذاب البشري باعتبارها جزءًا من الشر الكامن في الوضع الإنساني.

«أدركتُ أنه علي أن أجد نفسي ككاتب حتـى ولـو كـان الثمن هذا الكتاب. صرت مشلولاً، ولم أستطع مواصلة العمل فيه. شعرتُ أنه دُمِّر تدميرًا نهائيًا، وأنني دُمِّرت معه». هذا مـا قاله بولـدوين عـن صراعـه مـع كتابـة «أغْلِنـوا مَولِـدَه فـوقَ الجَبَلِ». وكان الانتهاء من الروايـة وصـدورها إيـذانًا بمـيلاد بولدوين نفسه كواحد من كُتَّاب أمريكـا اللامعـين، وعلامـة

فارقة في تاريخ الرواية الأفريقية الأمريكية، تركت أثرها على كثير من الأجيال اللاحقة من الكتاب السود، واحتلت مكانها بين كلاسيكيات الأدب الأمريكي والأدب العالمي المكتوب بالإنجليزية.

توالت بعد ذلك كتابات بولدوين بين المسرحية والمقال والقصة القصيرة والرواية. ففي عام 1955 عاد بولدوين من باريس للمرة الثانية لمتابعة عرض مسرحيته الأولى «رُكن المؤَّمنين» وهي تدور في أجواء مشابهة لروايته الأولى. وفي عام 1956 أصدر بولدوين روايته الثانية، «غرفة چيوڤاني»، وهي لا تدور في أوساط الزنوج ولا تضم أي شخصية سوداء وفيها يتناول بولدوين مسألة الجنسية المثلية من خلال قصة حب بين شاب أمريكي يعيش في باريس وشاب إيطالي متهم بجريمة قتل. وذاعت شهرة بولدوين في تلك الفترة كواحد من المعلقين والمحللين للمجتمع الأمريكي من خلال مقالاته التي نُشرت أول مجموعة منها في عام 1955 تحت عنوان «ملاحظات ابن البلد» والتي لخص في مقالتها الافتتاحية «ملاحظات من السيرة الذاتية» موقفه من الكتابة باعتبارها فعلاً يستلزم المجاهدة من أجل الفهم الذاتي دون أن تغيب عين الكاتب للحظة واحدة عن الحقيقة. وقد تلا تلك المجموعة من المقالات مجموعته الثانية «لا أحد يعرف اسمي» في عام 1961. وفي العام التالي نشر روايته «بَلَدٌ آخر» التي تدور

أحداثها في نيويورك وتتناول شبكة من العلاقات القائمة على الحب والبحث عن الذات في غمار التمييز العنصري والجنسي.

مع اندلاع حركة الحقوق المدنية وتصدرها للأخبار، عاد بولدوين للولايات المتحدة الأمريكية عام 1957، وبدأ نشاطًا فعالاً في النضال من أجل دعم حقوق السود ضد التفرقة العنصرية، فشارك في العديد من المظاهرات والوقفات الاحتجاجية، واتصل بالعديد من السياسيين من أجل دفع قضية السود إلى مقدمة أولويات السياسة الداخلية للحكومة الأمريكية. كانت جهوده وخبراته خلال تلك الفترة، فضلاً عن مراقبته للمناخ السياسي الأمريكي وتقلباته، وراء مجموعته الثالثة من المقالات التي صدرت عام 1963 تحت عنوان «النيران في المرة القادمة» ويعدها النقاد من أكثر مقالاته قوة وتبصرًا، وفيها ينتقد أشكال الانغلاق الديني التي تكاد تحاكي العنصرية في منظورها، سواء من خلال انتقاده لممارسات الكنيسة أو لحزب المسلمين السود المسمى «أمة الإسلام». كذلك أصدر في عام 1964 مسرحيته الثانية «أغنيات حزينة للسيد تشارلي» وهي تستند إلى وقائع حقيقية تتعلق بمقتل شاب زنجي أسود على يد رجل عنصري من الجنوب الأمريكي، ويعري بولدوين من خلالها دور المجتمع الأمريكي ككل في الجريمة.

وفي عام 1965 صدرت مجموعته القصصية «الذهاب لمقابلة الرجل» وضمت مجموعة القصص التي نشرها متفرقة من قبل في الصحف والمجلات، وكان أشهرها قصة «أغنيات سوني الحزينة» والتي تظهر في كثير من منتخبات القصة القصيرة الأمريكية.

وفي عام 1968 صدرت روايته «قل لي كم مضى على رحيل القطار»(*) وهي الرواية التي تحمل مرة أخرى أصداء من سيرة الفنان الذاتية، فـ «ليو براودهامر» بطل الرواية يبدو وكأنه استكمال لصورة جون جرايمز بطل «أعْلِنوا مَولِدَه فوقَ الجَبَلِ» بعد أن ناهز الأربعين من العمر وقد تحقق حلمه في أن يخرج من عالم هارلم ويصبح نجمًا مشهورًا. ولكنه يصاب بنوبة قلبية على خشبة المسرح وهو في أوج شهرته. وخلال هذه النوبة يشرع ليو في تذكر حياته واسترجاعها وتقييم علاقاته ونجاحاته. ما يلاحظ في هذه الرواية هو تسرب نوع من اليأس من الحل الطوباوي القائم على بلسم الحب كعلاج لكل الأدران السياسية والاجتماعية، والذي قدمه بولدوين في رواياته السابقة. هنا يبدي بولدوين تعاطفًا مع التيارات السوداء الأكثر راديكالية في المجتمع الأمريكي، فليو بطل الرواية يقع في غرام شاب عضو في جماعة «القوة السوداء»

(*) صدرت الترجمة العربية لهذه الرواية تحت هذا العنوان عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، 2003، ترجمة علي عبد الأمير صالح.

ويحضر اجتماعاتهم ويوافقهم الرأي في أن السود يجب أن يحملوا السلاح في نضالهم.

ضمت أعمال بولدوين اللاحقة روايتين هما «لو استطاع شارع بيل أن يتكلم» عام 1974، و «فوق رأسي تمامًا» 1979، وديوان شعر «أغنيات جيمي الحزينة: قصائد مختارة» عام 1983. وفي 1985 أصدر «ثمن التذكرة: مقالات مجمعة، 1948 – 1985»، وكان هذا آخر أعماله حيث توفي مصابًا بالسرطان في الأول من ديسمبر عام 1987 بمنزله بمدينة سانت بول دي ڤنس بفرنسا.

في عام 1998 قامت توني موريسون الكاتبة الأفريقية الأمريكية الحاصلة على جائزة نوبل في الأدب لعام 1993 بتحرير مجلدين ضخمين لدار نشر «مكتبة أمريكا» المتخصصة في نشر الأعمال الكلاسيكية الأمريكية، من أعمال بولدوين الكاملة.

الجزء الأول

اليوم السابع

وَالرُّوحُ وَالْعَرُوسُ يَقُولاَنِ: تَعَالَ!
وَمَنْ يَسْمَعْ فَلْيَقُلْ: تَعَالَ!
وَمَنْ يَعْطَشْ فَلْيَأْتِ
وَمَنْ يُرِدْ فَلْيَأْخُذْ مَاءَ حَيَاةٍ مَجَّانًا

نظرتُ إلى آخر الطريق،

وتعجبتُ

كان الجميع يقولون دائمًا إنه سيغدو واعظًا عندما يكبر، تمامًا مثل أبيه. ولطالما تردد هذا القول حتى أصبح چون نفسه يؤمن به دون أن يتدبره أبدًا. إذ لم يبادر إلى التفكير في هذا الأمر إلا في صباح عيد ميلاده الرابع عشر، وحينها كان الأوان قد فات.

ذكرياته الباكرة – وهي على نحو ما ذكرياته الوحيدة – كانت تدور حول صباحات أيام الآحاد المشرقة والاستعجال الذي يلازمها. استيقظوا جميعًا معًا في ذلك اليوم؛ لم يكن على أبيه أن يخرج للعمل، فأمّهم في الصلاة قبل الإفطار؛ أما أمه فقد ارتدت أفضل ما لديها في ذلك اليوم، وكانت تبدو كأنها

شابة صغيرة بشعرها المفرود والكاب الأبيض المحبوك على رأسها وهو زي القديسات. ولزم أخوه الأصغر «روي» الصمت في ذلك اليوم لأن أباه كان بالبيت. وارتدت سارة شريطًا أحمر على شعرها في ذلك اليوم، وكان أبوها يداعبها. وامتطت الرضيعة روث، بملابسها الوردية والبيضاء، ذراعي أمها حتى الكنيسة.

لم تكن الكنيسة تبعد أكثر من مسافة بطول أربع بنايات في شارع لينوكس عند ناصية غير بعيدة عن المستشفى. كانت هذه المستشفى هي التي ذهبت إليها أمه عند ولادة روي وسارة وروث. لا تعي ذاكرة چون بوضوح شديد أول مرة ذهبت أمه هناك لولادة روي. قال الناس إنه ظل يبكي طوال فترة وجودها هناك؛ كان يذكر فقط ما يكفي أن يبعث الخوف فيه كلما بدأت بطنها في الانتفاخ، ويعرف أنه في كل مرة يبدأ الانتفاخ فلن ينتهي إلا ويأخذونها منه لتعود ومعها غريب. وفي كل مرة يحدث ذلك تصير هي نفسها على شيء من الغرابة. سوف تذهب عما قريب مرة أخرى كما قال روي – فقد كان أكثر دراية من چون بهذه الأمور. كان چون ينظر إلى أمه بإمعان ولا يرى انتفاخًا بعد، لكن أباه صلى ذات صباح لأجل أن «يحل المسافر الصغير بينهم سريعًا»، وهكذا أدرك چون أن ما قاله روي حقيقي.

منذ أن وعت ذاكرة چون، كانت عائلة جرايمز تخرج للشارع صباح كل أحد في طريقها إلى الكنيسة. الخُطاة على طول الطريق ينظرون إليهم– رجال لا يزالون يرتدون ملابس ليلة السبت، مغضنة ومغبرة الآن، عيونهم غائمة ووجوههم واجمة؛ النساء بأصواتهن المبحوحة وثيابهن الضيقة المبهرجة، والسجائر بين أصابعهن أو في زوايا أفواههن. كانوا يتحادثون ويضحكون ويتشاجرون، وكانت النساء تتشاجرن مثل الرجال. تبادل چون وروي نظرة عابرة وهما يمران بهم، كان چون مضطربًا وروي مستمتعًا. سوف يصبح روي مثلهم ما لم يغير الرب قلبه. كان هؤلاء الرجال والنساء الذين يمران بهم في صباحات الأحد يقضون الليل في الحانات وبيوت البغاء أو في الشوارع وعلى أسطح المنازل أو أسفل درج البنايات. كانوا يسكرون. ويصير سبابهم ضحكًا ثم غضبًا ثم شهوةً. ذات مرة شاهد هو وروي رجلاً وامرأة في الطابق الواقع تحت الأرض في أحد المنازل المشبوهة. كانا يمارسان الجنس وهما واقفان. أرادت المرأة خمسين سنتًا فأشرع الرجل موسى حلاقة في وجهها.

لم ينظر چون مرة أخرى أبدًا؛ فقد كان خائفًا. ولكن روي شاهدهما مرارًا، وأخبر چون أنه مارس نفس الفعل مع بعض البنات في أسفل البناية.

حتى أمه وأبوه، اللذان يذهبان إلى الكنيسة في أيام الآحاد، يفعلانها أيضًا. وفي بعض الأحيان كان چون يسمعهما في حجرة النوم الواقعة خلف حجرته، يعلو صوتهما على صوت أقدام الجرذان وصراخها، وعلى صوت الموسيقى والسباب المنبعثين من شقة العاهرة التي تسكن الطابق الأرضي.

كانت كنيستهم تدعى «معبد المعمدين بالنار». لم تكن أكبر كنيسة في هارلم ولم تكن أصغرها، ولكن چون نشأ على الاعتقاد بأنها أقدس الكنائس وأفضلها. كان أبوه كبير الشمامسة في هذه الكنيسة التي لم يكن بها سوى شماسين اثنين فقط – كان الآخر أسود بدينًا يدعى الشماس بريثويت– وكان يتولى جمع التبرعات وأحيانًا الوعظ . أما الأب چيمس، الراعي، فقد كان دمثًا وعفيًا وله وجه كقمر أسمر. وكان يتولى الوعظ في آحاد العنصرة، ويقود اجتماعات الإحياء الديني في الصيف، ويمسح على المرضى ويعالجهم.

في صباحات الآحاد ولياليها كانت الكنيسة دائمًا مكتظة؛ وفي الآحاد الخاصة كانت تكتظ طوال اليوم. وكان أفراد عائلة جرايمز يَصِلون معًا، دائمًا متأخرين قليلاً، عادة في منتصف دروس الأحد التي كانت تبدأ في الساعة التاسعة. ويُعزَى هذا التأخير، على الأقل من وجهة نظر أبيهم، إلى أمهم دائمًا. إذ

يبدو أنها لم تكن تستطيع أن تجهز نفسها والأولاد في الموعد المحدد، وأحيانًا كانت تتخلف حقًا ولا تظهر إلا في قداس الصباح. وعندما يَصِلون كانوا يتفرقون فور دخولهم من الأبواب، فيذهب الأب والأم ليجلسا في فصل الكبار الذي تدرس له الأخت ماكاندلس، وتذهب سارة لفصل الأطفال، ويذهب چون وروي للفصل المتوسط الذي يدرس له الأخ إليشا.

لم يكن چون في طفولته يبدي أي اهتمام بمدرسة الأحد، وكان دائمًا ينسى النص الذهبي، مما أنزل به غضب والده. وإبان عيد ميلاده الرابع عشر، ومع كل ضغوط الكنيسة والبيت التي اجتمعت لتدفعه إلى المذبح، جاهد أن يبدو أكثر جدية حتى تصبح لا مبالاته أقل وضوحًا. لكنه كان مشتت الانتباه بسبب معلمه الجديد، إليشا، ابن أخت الراعي، الذي وفد مؤخرًا من ولاية جورجيا. لم يكن إليشا يكبر چون كثيرًا، كان عمره سبعة عشر عامًا فقط، وكان قد اهتدى إلى طريق الخلاص وأصبح واعظًا. حملق چون في إليشا طوال الدرس معجبًا بنبرة صوته، التي كانت أعمق من نبرته وأكثر رجولة، وبنحافته ورشاقته وقوته ولونه الأسود في حلة يوم الأحد، وتساءل هل سيصبح مقدسًا مثل إليشا. لكنه لم يتابع الدرس، وفي بعض الأحيان عندما كان إليشا يتوقف ليسأله سؤالاً،

كان چون يضطرب خزيًا ويشعر أن راحتيه مبللتان وقلبه يدق كالمطرقة. كان إليشا يبتسم ويوبخه برقة، ثم يواصل الدرس.

لم يكن روي أيضًا يعير دروس مدرسة الأحد انتباهًا، ولكن الأمر معه كان مختلفًا – ففي الواقع لم يكن أحد ينتظر من روي ما كان منتظرًا من چون. كان الجميع يصلون أن يهدي الرب قلب روي، لكن كان المتوقع من چون أن يكون صالحًا وأسوة حسنة.

عندما ينتهي قداس مدرسة الأحد كانت تتلوه استراحة قصيرة قبل بداية قداس الصباح. وإذا كان الجو صحوًا تخرج العجائز خلال هذه الاستراحة للحظات ليتحدثن فيما بينهن. في أغلب الأحيان كانت الأخوات ترتدين الأبيض من مفرق الرأس حتى أخمص القدم. أما الأطفال الصغار، في هذا اليوم وهذا المكان ومع قمع آبائهم لهم، فكانوا يحاولون اللعب دون أن يُظهروا ما يسيء لبيت الرب. لكن في بعض الأحيان كان النكد والتوتر يجتاحهم فيتصايحون أو يقذفون بكتب التراتيل أو يشرعون في البكاء، مما يضطر آباءهم أو أمهاتهم، وهم من أهل الرب، أن يثبتوا لهم – بالشدة أو اللين – من الذي له الطاعة في بيوت الرب المقدسة. وقد يتمشى الصبية الصغار من أمثال چون وروي حتى آخر الشارع، دون أن يذهبوا بعيدًا. إذ لم يكن أبوهما ليدعهما يغيبان عن ناظريه البتة؛ لأن

روي اعتاد أن يختفي في الفترة بين درس الأحد وقداس الصباح ولا يعود طوال اليوم.

يبدأ قداس صباح الأحد عندما يجلس الأخ إليشا إلى البيانو ويصدح بأغنية. بدا الأمر وكأن هذه اللحظة وهذه الموسيقى كانتا مع چون منذ أن تنفس الحياة لأول مرة. كأنه لم يكن هناك أبدًا زمن لم يعرف فيه لحظة الانتظار هذه بينما الكنيسة المكدسة ساكنة - الأخوات في اللون الأبيض، رؤوسهن مرفوعة، والأخوة في اللون الأزرق ورؤوسهم للوراء؛ الكابات البيضاء على رؤوس النسوة تتوهج في الهواء المشحون كالتيجان، ورؤوس الرجال اللامعة ذات الشعور المجعدة تبدى شامخة - سكن الحفيف والهمس وسكت الأطفال؛ ربما سعل شخص ما؛ أو انبعث بوق سيارة، أو تناهى إلى الأسماع سباب من الشارع؛ حينئذ كان إليشا يدق أصابع البيانو ثم يشرع في الغناء في التو، يصحبه الجميع وهم يصفقون ثم ينهضون ضاربين الدفوف.

قد تكون الأغنية: «على الصليب حيث مات مُخَلِّصي!»

أو تكون: «يسوع، لن أنسى كيف حررتني!»

أو «ربي خذ بيدي بينما أقطع هذا السبق!»

كانوا يغنون بكل ما فيهم من قوة ويصفقون فرحًا. ما من زمن لم يجلس فيه چون يرقب القديسين فيها يملأ قلبَه الرعبُ، والعجبُ. كان غناؤهم يجعله يؤمن بحضور الرب؛ في الواقع لم يعد الأمر متعلقًا بالإيمان، لأنهم أحالوا هذا الحضور حقيقيًا. لم يكن يشعر في قرارة نفسه بهذا الفرح الذي يشعرون به، بيد أنه لم يشك أنه بالنسبة لهم خبز الحياة حقًا - لم يكن بوسعه أن يشك في ذلك إلا بعد أن انقضى أوان الشك بالنسبة له.. كان شيء ما يعتري وجوههم وأصواتهم وإيقاع أجسادهم، بل والهواء الذي يتنفسونه؛ كأنهم أينما حلوا فهم في عليين والروح القدس تسري في الهواء. وجه أبيه الذي كان دومًا مهيبًا يصبح الآن أكثر مهابةً؛ وغضبه اليومي يستحيل غضبًا نبويًا. جسدت الأم لچون، بعينيها المتطلعتين إلى السماء ويديها الخاشعتين أمامها وهي تتحرك، ذلك الصبر والجلد والمعاناة الطويلة التي طالما قرأ عنها في الإنجيل ووجد من الصعوبة بمكان أن يتخيلها.

في صباحات الآحاد كانت النسوة كلهن تبدون صابرات و الرجال كلهم يبدون أقوياء. وبينما يرقبهم چون، كانت القوة الإلهية تنزل بأحدهم، رجلاً أو امرأة، فيصرخون صرخة طويلة بلا كلام، ويبدأون صيحتهم وأذرعهم ممدودة كالأجنحة. يحرك أحدهم مقعدًا ليفسح لهم مكانًا، يسكن الإيقاع ويتوقف الغناء، ولا يُسمَع إلا دبيب الأقدام وصفق

الكفوف؛ ثم صرخة أخرى، وراقص آخر، وتبدأ الدفوف كرة أخرى، وتصدح الأصوات من جديد، وتلف الموسيقى المكان كالنيران أو الطوفان أو القضاء الإلهي. ثم تبدو الكنيسة وكأنها تمور بالقوة الإلهية التي بين جنباتها، وككوكب رجراج في الفضاء يهتز المعبد بقوة الرب. كان چون يرقب الوجوه والأجساد الأثيرية، وينصت إلى الصرخات الأبدية. ذات يوم، كما كان الجميع يقولون، سوف تتلبسه القوة الإلهية؛ وسوف يصدح بالغناء ويصيح كما يفعلون الآن، ويرقص أمام المليك. كان چون يرقب الفتاة إلاماي واشنطن ذات السبعة عشر ربيعًا، حفيدة الأم واشنطن المصلية، وهي تشرع في الرقص. بعدئذ بدأ إليشا في الرقص.

في لحظة واحدة جلس إليشا إلى البيانو، يعزف ويغني، رأسه مطوح إلى الوراء وعيناه مغمضتان والعرق يتأرجح على جبهته. ومثل قط ضخم أسود، وقع في مأزق في الغابة، تخشب وارتعش ثم أطلق صرخة. يسوع، يسوع يسوع، يا إلهي يسوع! عزف على البيانو نغمة أخيرة جامحة وطوح ذراعيه عاليًا، مباعدًا بينهما على وسعهما، وراحتاه مفتوحتان إلى أعلى. انطلقت الدفوف لتملأ الفراغ الذي خلفه البيانو الصامت، وتجاوبت صرخات مع صرخته. ثم انتفض على قدميه يدور معميًا، وقد احتقن وجهه وتشنج حنقًا وتقافزت عضلات رقبته المتطاولة السمراء وانتفخت..بدا وكأنه لا يستطيع أن

يتنفس، وكأن جسده لا يملك لجيشانه احتواءً، وكأنه سيتناثر أمام أعينهم بددًا في أثير من الترقب. أخذت يـداه المتخـشبتان حتـى الأنامـل تتحركـان جيئـة وذهابًـا عـلى ردفيـه وعينـاه العمياوان تتطلعان إلى أعلى، ثم شرع في الرقص. ضم كفيه في هيئة قبضتين وانحنت هامته وأذاب العرقُ الدهانَ الذي يمسد شعره؛ وتسارع إيقاع الآخرين ليتساوق مع إيقاع إليشا. تحرك فخذاه بـصورة مروعـة عـلى قـماش حلتـه، ودق كعبـاه عـلى الأرضية، وتحركت قبضتاه بحذاء جسده وكأنـه يـدق طـبلاً. واستمر على هذا النحو في وسط حلقة الراقصين، هامته محنيـة وقبضتاه تدقان بصورة لا تحتمل حتى بدت جـدران الكنيـسة وكأنها ستتصدع من مجرد الصوت. وفي لحظة انطلقت صرخته وارتفعت هامته وامتدت ذراعاه في الهـواء وسـال العـرق مـن جبهته غزيرًا واهتز جسده رقصًا كأنه لن يتوقف أبدًا. أحيانًا لم يكن يتوقف حتى يسقط على وجهه مغشيًا عليـه وهـو يـئن – كحيوان صرعته مطرقة. حينئذ كان أنين عظيم يملأ الكنيسة.

كان ثمة خطيئة بينهم. ذات أحـد، بعـد انتهـاء القـداس المعتاد، كشف الأب جيمس عن الخطيئة الموجودة بـين جماعـة الصالحين. ففضح إليشا وإلاماي. لقـد «حـادا عـن الـصراط المستقيم»؛ وكانا عرضة لخطر الانحراف عـن الحقيقـة. وبيـنما كان الأب جيمس يتحدث عن الخطيئة التي لم يرتكباها بعـد،

عن التينة غير الناضجة التي قُطِفت قبل أوانها من الشجرة – لكي يثير أعصاب الأطفال – شعر چون وهو في مقعده بدوار ولم يستطع أن ينظر إلى إليشا حيث كان يقف إلى جوار إلاماي أمام المذبح. لم تبدُ إلاماي الآن جميلة كما كانت أثناء غنائها وتلاوتها للشهادة، بل بدت كفتاة عادية متجهمة. شفتاها المكتنزتان منفرجتان وعيناها سوداوان – ربما من الخزي أو الحنق أو كليهما. أما جدتها التي ربتها فقد جلست تنظر في هدوء ويداها مضمومتان. كانت الجدة عمودًا من عُمد الكنيسة، من المبشرات ذوات السطوة والشهرة العريضة. لم تقل شيئًا دفاعًا عن إلاماي، لأنها لابد قد شعرتْ، مثلما شعر المصلون، أن الأب چيمس كان فقط يمارس واجبه الواضح والمؤلم. فلقد كان مسؤولاً عن إليشا كما كانت الأم واشنطن المصلية مسؤولة عن إلاماي. قال الأب چيمس أن تكون راعيًا لقطيع ليس بالأمر الهين. قد يبدو هينًا مجرد أن تجلس في المنبر ليلة بعد ليلة وعامًا بعد عام، ولكن دعهم يتذكرون المسؤولية المهولة التي ألقى بها الرب القدير على عاتقه – دعهم يتذكرون أن الرب سوف يحاسبه ذات يوم على كل روح في قطيعه. دعهم يتذكرون ذلك عندما يظنون أنه قاسٍ، دعهم يتذكرون أن كلمة الرب قاسية وأن طريق القداسة شاق. لا مكان في جيش الرب للقلب الجبان، لا تيجان تنتظر من يُعلي الأم أو الأب أو الأخت أو الأخ أو المحبوب أو الصديق فوق إرادة

الرب. فلتؤمّن الكنيسة على ذلك! فصاحوا وراءه: «آمين! آمين!»

قال الأب جيمس، وهو ينظر إلى الفتى والفتاة أمامه، إن الرب هداه إلى تحذيرهما على الملأ قبل أن يفوت الأوان؛ لأنه كان يعرف أنهما شابان مخلصان ومكرسان لخدمة الرب – كل ما في الأمر أنهما لا يعرفان المزالق التي يضعها إبليس في طريق الغافلين لأنهما مازالا صغيرين. فقد كان يعرف أن الخطيئة ليست في عقليهما، على الأقل حتى الآن، بل في الجسد؛ فإذا ما استمرا في الخروج معًا على انفراد، وفي تبادل الأسرار والضحكات ولمسات الأيدي، فلا ريب أنهما سيقعان في خطيئة لا غفران لها. تساءل جون عما كان يدور في ذهن إليشا – الفارع الطول، الذي كان يلعب كرة السلة والذي تحقق خلاصه في سن الحادية عشر في حقول الجنوب التي لا تُطاق. هل ارتكب الخطيئة؟ هل وقع في الغواية؟ والفتاة التي تجلس بجانبه، والتي بدت أثوابها البيضاء الآن أوهى سَترٍ لعري ثدييها وفخذيها الفاتنين – كيف كان وجهها عندما كانت وحدها مع إليشا، دون غناء ودون قديسين يحيطون بهما؟ كان خائفًا من التفكير في هذا الأمر، ولكنه لم يستطع التفكير في أي شيء آخر؛ والحمى التي أَلَمَّت بهما بدأت تضطرم فيه.

بعد هذا الأحد لم يعد إليشا وإلاماي يتقابلان كل يوم بعد المدرسة أو يقضيان عصاري أيام الأحد في التجـول في أنحـاء منتزه سنترال بارك، أو في الاستلقاء على الشاطئ. كل هذا قـد انتهى بالنسبة لهما. وإذا ما قدر لهما اللقيا مرة أخرى فلن يكـون ذلك إلا في الزواج. وسيكون لهما أطفال يربيانهم في الكنيسة.

هذا ما كان يُقصَد بالحياة المقدسة، هـذا مـا كـان يتطلبـه طريق الصليب. في يوم الأحد الـذي سـبق يـوم عيـد مـيلاده بقليل، أدرك چون بصورة ما أن هذه هي الحياة التي تنتظـره – أدرك ذلك عن وعـي باعتبـاره شـيئًا غـير بعيـد بـل وشـيك الوقوع، يدنو يومًا بعد يوم.

وافق عيد ميلاد چون يوم سـبت مـن شـهر مـارس عـام 1935. استيقظ في صباح عيد مـيلاده هـذا ينتابـه شـعور أن خطرًا في الهواء المحيط يحدق بـه – أن شـيئًا لا رجعـة فيـه قـد حدث بداخله. أخذ يحملق في بقعة صـفراء في الـسقف فـوق رأسه تمامًا. كان روي مازال مختنقًـا تحـت مـلاءات الفـراش، تترجع أنفاسه بصوت صفير خفيض. لم يكن ثمة صوت آخر في أي مكان؛ فلم يستيقظ أحد في البيت. كانـت كـل أجهـزة المذياع في بيوت الجيران صـامتة، ولم تـستيقظ أمـه بعـد لتعـد فطور أبيه. تعجب چون لفزعه، وتعجب للوقت؛ حينئذ (بينما كانت البقعة الـصفراء في الـسقف تتحـول تـدريجيًا إلى عـري امرأة) تذكر أنه عيد ميلاده الرابع عشر وأنه ارتكب الخطيئة.

رغم ذلك كانت أول فكرة تبادرت إلى ذهنه: «هل سيتذكر أحد؟» لأنه قد حدث من قبل، مرة أو مرتين، أن مرّ عيد ميلاده دون أن يلاحظ أحد على الإطلاق، لم يقل له أحد «عيد ميلاد سعيد يا چوني»، أو يقدم له أي شيء، ولا حتى أمه. تقلب روي مرة أخرى في الفراش ودفعه چون بعيدًا، وهو ينصت إلى الصمت. في صباحات أخرى كان يستيقظ على صوت أمه تغني في المطبخ، وصوت أبيه من خلفه في حجرة النوم يتمتم بصلواته لنفسه بينما يرتدي ملابسه؛ وربما كان يسمع أيضًا ثرثرة سارة وصراخ روث وصوت المذياع وقعقعة الأواني وكل أصوات الجيران. هذا الصباح لم يَفض الصمتَ ولا حتى صوت صرير زنبرك السرير، لذا بدا وكأن چون ينصت إلى مصيره الصامت. بل ظن أنه استيقظ متأخرًا في صباح البعث العظيم؛ وأن كل من نالوا الخلاص تحولوا في غمضة عين وصعدوا لمقابلة يسوع بين السحب، وأنه تُرِك وحيدًا بجسده الخطّي يصطلي في الجحيم لألف عام.

لقد ارتكب الخطيئة. بالرغم من القديسين وأمه وأبيه وكل التحذيرات التي سمعها منذ بداياته الباكرة، لقد خطئ بيديه خطيئة يصعب غفرانها. في حمام المدرسة، وحيدًا، وهو يفكر في الصبيان الأكبر سنًا وضخامة وشجاعة منه، وهم يتراهنون على من يبلغ بوله مدى أعلى من رفاقه، رأى چون في نفسه تغييرًا لن يجرؤ أن يفصح عنه.

كانت ظلمة خطيئة چون كظلمة الكنيسة في أمسيات الآحاد، كصمت الكنيسة عندما يكون فيها وحده يمسح الأرضية ويصب الماء في الدلو الكبير ويرفع الكراسي قبل أن يصل القديسون بفترة. كانت مثل أفكاره أثناء تحركه في غرفة الهيكل التي قضى بها حياته، تلك الغرفة التي كان يكرهها ورغم ذلك يحبها ويخشاها. كانت مثل شتائم روي، مثل الأصداء التي كانت تثيرها هذه الشتائم في چون: تذكر روي في يوم سبت نادر عندما جاء ليساعد چون في تنظيف الكنيسة، وأخذ يشتم في بيت الرب، ويقوم بإيماءات بذيئة أمام أعين يسوع. كانت خطيئته مثل كل هذا ومثل الجدران التي شهدت عليها واللوحات التي أكدت أن جزاء الخطيئة هو الموت. ظلمة خطيئته كانت في تحجر القلب الذي قاوم به قوة الرب، في الازدراء الذي كان يتملكه أحيانًا كثيرة عندما يسمع الصرخات والأصوات المتكسرة ويرى البشرة السوداء تلتمع بينما يرفعون أذرعهم ويخرون على وجوههم أمام الرب. لقد قر قراره ألا يصبح مثل أبيه أو آباء أبيه. ستكون له حياة أخرى.

كان چون متميزًا في دراسته، ومع أنه لم يكن متفوقًا مثل إليشا في الحساب أو كرة السلة فقد كان الجميع يقولون إن له مستقبلاً عظيمًا. قد يصبح زعيمًا عظيمًا لقومه. لم يكن چون

شديد الاهتمام بقومه أو بقيادتهم إلى أي مكان، ولكن العبارة التي ترددت مرارًا على مسمعه تجسدت في ذهنه كبوابة نحاسية ضخمة، تنفتح له في الخارج على عالم لا يحيا فيه البشر في الظلمة التي تكتنف بيت أبيه ولا يصّلون ليسوع في ظلمة كنيسة أبيه، على عالم يستمتع فيه بأطيب الأطعمة ويرتدي أفخر الملابس، ويذهب إلى السينما كلما رغب. في هذا العالم سيصبح چون الذي كان، كما يقول أبوه، قبيحًا وأضأل صبي في فصله على الدوام ولا أصدقاء له، سيصبح جميلاً وطويلاً ومحبوبًا في الحال. سيتزاحم الناس لمقابلة چون جرايمز. الشاعر أو عميد الكلية أو نجم السينما؛ سيشرب أغلى أنواع الويسكي ويدخن سجائر «لكي سترايك» في علبتها الخضراء.

لم يكن السود فقط هم الذين يثنون على چون، لأنهم كما كان يشعر لا يستطيعون بأي حال أن يعرفوا قدره؛ ولكن البيض أيضًا كانوا يثنون عليه، بل كانوا في الواقع أول من قالوا ذلك ومازالوا يقولونه. كان ذلك وقتما كان چون في الخامسة من عمره في الصف الأول عندما تم اكتشافه؛ ولأن العين التي اكتشفته كانت غريبة ومحايدة بدأ يدرك وجوده الفردي في قلق جامح.

كانوا يتعلمون الحروف الأبجدية في ذلك اليوم، ويقف ستة تلاميذ في كل مرة أمام السبورة لكتابة الحروف التي حفظوها. بعد أن فرغ ستة من التلاميذ من الكتابة ووقفوا ينتظرون حكم المعلمة انفتح الباب الخلفي ودلفت منه ناظرة المدرسة التي كان يخشاها الجميع. لم يفه أحد أو يتحرك. في الصمت الذي ران انطلق صوت الناظرة سائلةً:

«أي طفل هذا؟»

كانت تشير إلى السبورة، إلى حروف چون. لم يخطر بباله إمكانية أن تميزه ملاحظتها، ومن ثم راح يحملق فيها ببساطة. ثم أدرك من سكون الأطفال الآخرين ومن الطريقة التي تجنبوا بها النظر إليه أنه من وقع عليه الاختيار للعقاب.

قالت المعلمة في رفق: «تكلم يا چون».

على حافة الدموع غمغم باسمه وانتظر. ألقت عليه الناظرة ذات الشعر الأبيض والوجه الحديدي نظرة ثم قالت: «چون جرايمز أنت ولد ذكي جدًا، واظب على الاجتهاد».

بعدئذ خرجت من الفصل.

منذ ذلك الوقت، أعطته تلك اللحظة على الأقل درعًا إن لم يكن سلاحًا؛ لقد أدرك إدراكًا كاملاً، دونما اعتقاد أو فهم أنه يملك بداخله قوة يفتقدها الآخرون؛ أنه يمكن أن يستخدم

تلك القوة ليخلص نفسه، ليرّقي نفسه؛ وربما يستطيع ذات يوم أن يكسب بها ذلك الحب الذي طالما تاق إليه. في دخيلة جون لم يكن ذلك إيمانًا عرضة للزوال أو التحول، ولا أملاً قابلاً للانهيار، بل كان هويته، ومن ثم جزءًا من ذلك الشر الذي كان أبوه يضربه بسببه والذي كان يتشبث به لكي يحتمل أباه. ذراع أبيه التي تصعد وتهوى قد تجعله يبكي وهذا الصوت قد يجعله يرتعد؛ ومع ذلك لا يمكن لأبيه أبدًا أن يكون المنتصر، لأن جون كان يضمر بداخله شيئًا لا يستطيع له الأب وصولاً. هذا الشيء هو كراهيته وذكاؤه، أحدهما يغذي الآخر. كان يعيش من أجل اليوم الذي يموت فيه أبوه فيلعنه جون على فراش الموت. وهذا هو السبب في تحجر قلب جون ضد الرّب رغم نشأته على الإيمان وإحاطة القديسين وصلواتهم وفرحتهم به طوال حياته، ورغم غرفة الهيكل التي كانوا يتعبدون فيها والتي كانت أكثر حقيقية له من البيوت العديدة العابرة التي قطنها هو وعائلته. كان أبوه خادم الرب، سفير ملك السماوات، وجون لا يستطيع أن ينحني أمام عرش النعمى دون أن يركع أولاً أمام أبيه. كانت حياة جون تعتمد على رفضه أن يفعل ذلك، وكان قلبه السري يزدهر في شره حتى ذلك اليوم الذي باغتته خطيئته فيه.

في غمرة تساؤلاته كلها غرق چون في النوم مرة أخرى، وعندما استيقظ هذه المرة وغادر الفراش كان أبوه قد ذهب إلى المصنع حيث يعمل نصف يوم. كان روي يجلس في المطبخ، يتشاجر مع أمه. أما الرضيعة روث فقد جلست على كرسيها العالي تخبط على الصينية بملعقة يغطيها الشوفان. هذا يعني أنها كانت في مزاج طيب، ولن تقضي اليوم في الصراخ لأسباب لا يعلمها سواها، ولا تسمح لأحد سوى أمها بلمسها. كانت سارة هادئة، لا تثرثر اليوم، أو على أية حال ليس بعد، ووقفت بالقرب من الموقد طاوية ذراعيها وهي تحملق في روي بعينين سوداوين خاملتين، تشبهان عيني أبيها، فبدت عجوزًا.

جلست أمهم، ورأسها معصوب بخرقة قديمة، تحسو قهوتها من غير حليب وترقب روي. كانت شمس نهاية الشتاء الشاحبة تغمر الحجرة وتحيل كل وجوههم صفراء. للحظة، وهو على تلك الحالة من الخدر والتجهم والتساؤل كيف سقط في النوم مرة أخرى وكيف سُمح له بالنوم كل هذا الوقت، رآهم چون كشخوص على شاشة، وزاد الضوء الأصفر من كثافة هذا الإحساس. كانت الحجرة ضيقة وقذرة، لا شيء بإمكانه أن يُغير أبعادها، لا جهد يستطيع أن يجعلها نظيفة. القذارة على الجدران وعلى ألواح خشب الأرضية وتجتاح ما تحت الحوض حيث تتكاثر الصراصير، في الثنايا الدقيقة

للأواني والأوعية المعلقة فوق الموقد، والتي احترقت قعورها واسودت رغم دعكها يوميًا، على الجدار الذي عُلقت عليه الأواني، تكشف عن نفسها حيث تشقق البياض وبرز للخارج في مربعات وشذرات متصلبة، وانتشر الوسخ الأسود كالعنكبوت على القشرة الداخلية الرقيقة كالورق. استقرت القذارة في كل ركن وزاوية وشق في الموقد الضخم، تعيش خلفه في تواصل محموم مع الجدار الفاسد. كانت القذارة على الأرضية التي طالما دعكها چون كل يوم سبت، وتتراكم في طبقة خشنة على أرفف خزانة المطبخ التي تحوي الأطباق المشروخة اللامعة. تحت هذا الثقل الكابي مالت الجدران وتدلى السقف الذي كان يتوسطه شرخ كبير كالبرق. كانت النوافذ تلمع كالذهب أو الفضة المصقولة، ولكن تحت الضوء الأصفر أبصر چون ذرات الغبار الدقيقة التي تغلل عظمتها المزعومة. كانت القذارة تزحف في الممسحة الرمادية المعلقة من النافذة لتجف. راح چون يفكر في خزي وهلع، ومع ذلك بقلب تملؤه القسوة الغاضبة: وَمَنْ هُوَ نَجِسٌ فَلْيَتَنَجَّسْ بَعْدُ. نظر إلى أمه وكأنه ينظر إلى شخص غريب فميز الخطوط السمراء الصلبة التي تنحدر من عينيها، والتقطيبة العميقة الدائمة على جبهتها وفمها المزموم المقلوب إلى أسفل، ويديها السمراوين النحيلتين، قويتين رغم عظامهما البارزة؛ وارتدت العبارة إليه كأنها سيف ذو حدين، ألم يكن هو القذر في غروره

الكاذب وخياله الشرير؟ من خلال عاصفة الدموع التي لم تصل إلى مقلتيه حملق في الغرفة الصفراء التي تبدلت صورتها، فغام ضوء الشمس وتغير وجه أمه. صار وجهها ذلك الوجه الذي يهبه لها في أحلامه، الوجه الذي كان لها في صورة قديمة رآها ذات مرة منذ فترة بعيدة، صورة أخذت لها قبل مولده. كان وجه شابة به كبرياء وترفع، وعليه ابتسامة جعلت الفم الواسع جميلاً والعينين النجلاوين يأتلقان. كان وجه فتاة تعرف أن الشر لا يستطيع أن يطالها، فتاة تستطيع يقينًا أن تضحك كما لا تستطيع أمه الآن. بين الوجهين امتدت ظلمة وغموض كان چون يخافهما، وأحيانًا كانا يجعلانه يكرهها.

عندما رأته قطعت حديثها مع روي وسألته: «هل أنت جائع أيها النعسان الصغير؟»

وقالت سارة: «هيا! لقد حان وقت الاستيقاظ».

مشى إلى المائدة وجلس، يعتريه شعور عاتٍ بالخوف وحاجة للمس الأشياء، المائدة والكراسي وجدران الغرفة، لكي يتأكد أن الغرفة موجودة وأنه فيها. لم ينظر إلى أمه، التي نهضت واتجهت إلى الموقد لتسخن فطوره. لكنه سألها لمجرد أن يقول شيئًا لها وليسمع صوته: «ماذا لدينا على الإفطار؟»

لكنه أدرك في شيء من الخزي أمله في أن تكون قد أعدت إفطارًا مخصوصًا له في عيد ميلاده.

«ماذا تظن لدينا على الإفطار؟» سأله روي بازدراء. «هل تشتهي شيئًا بعينه؟»

نظر چون إليه ولم يكن روي في مزاج طيب.

«لم أتوجه إليك بالحديث».

«أوه، معذرة»، قال روي بنبرة حادة كنبرة البنات الصغيرات التي يعرف أن چون يمقتها.

«ماذا بك اليوم؟» سأله چون مغضبًا ومحاولاً في نفس الوقت أن يعطي صوته نبرة خشنة بقدر المستطاع.

قالت أمه: «لا تتضايق من روي، فإنه نكد هذا الصباح».

قال چون «نعم، أظن ذلك». وتبادلا النظرات. وضعت أمه طبقه أمامه وبه حبيبات القمح المقشور وقطعة من لحم الخنزير. أراد أن يصرخ كطفل: «أماه ولكنه عيد ميلادي!» ولكنه ثبت عينيه في طبقه وشرع في الأكل.

واصلت الأم مشادتها مع روي قائلة: «تستطيع أن تتكلم عن أبيك كما تشاء ولكنك لا تجرؤ أن تقول إنه لم يفعل ما في وسعه دائمًا من أجل أن يكون أبًا جديرًا لك وأن يقيك شر الجوع».

«لقد جعت مرارًا» رد روي متباهيًا بأنه استطاع أن يحرز نقطة ضد أمه.

«لم يكن ذلك خطأه، حينئذ. لم يكن ذلك لأنه لم يحاول أن يطعمك. لقد كان هذا الرجل يعمل في نـزح الـثلج في درجـة حرارة تحت الصفر بينما كان ينبغي لمثله أن يكـون في الفـراش، كان ذلك من أجل أن يضع الطعام في بطنك».

قال روي حانقًا: «لم تكن بطني وحدي، فله بطـن أيـضًا، إن الطريقة التي يأكل بها تدعو للخزي. كما أنني لم أطلب منـه أن ينزح الثلج مـن أجـلي». لكنـه أطـرق بعينيـه، شـاكًا في أن حجته بها خلل ما. ثم قال أخـيراً: «كـل مـا في الأمـر أننـي لا أريده أن يضربني طوال الوقت، فلست كلبًا».

تنهدت واستدارت قليلاً ناظرة من النافذة وقالت: «أبوك يضربك لأنه يحبك».

ضحك روي. «إنني لا أفهم هذا النوع من الحـب، أيتهـا العجوز. ماذا تظنينه فاعلاً بي إذا لم يكن يحبني؟»

انفجرت فيه «سوف يدعك تذهب إلى الجحـيم مبـاشرةً وهو على ما يبدو مصيرك المحتوم على أي حال! سوف يدعك يا سيد الرجال حتى تُطعَن بسكين أو تساق إلى السجن!»

باغتها جون بالسؤال: «أماه، هل أبي رجل طيب؟»

لم يدرك أنه كان سيطرح السؤال، وراقبها في دهشة وهـي تزم فمها وتغيم عيناها.

أجابته في رفق: «ليس هذا بسؤال، إنك لا تعرف رجلاً أفضل منه، أليس كذلك؟»

علقت سارة: «يبدو لي أنه رجل طيب حقًا، فهو يصلي طول الوقت».

قالت أمهم وهي تجلس إلى المائدة متجاهلة سارة: «إنكم أطفال صغار، ولا تدركون كم أنتم محظوظون لأن لكم أبًا يقلق بشأنكم ويحرص على أن تنشأوا النشأة الصالحة».

قال روي: «نعم، كم نحن محظوظون أن يكون لنا أب لا يريدنا أن نذهب إلى السينما ولا يريدنا أن نلعب في الشارع ولا يريد أن يكون لنا أصدقاء ولا يريد هذا ولا يريد ذاك، ولا يريدنا أن نفعل شيئًا. نحن محظوظون أن لنا أبًا يريدنا فقط أن نذهب إلى الكنيسة ونقرأ الكتاب المقدس ونصيح أمام المذبح كالحمقى ونبقى في المنزل هادئين وُدعاء، كالجرذان الصغيرة. حقًا إننا محظوظون. لا أعرف ما الذي فعلته لكي أكون محظوظًا هكذا».

ضحكت قائلة: «سوف تكتشف ذلك يومًا ما، تذكر كلماتي».

«أي نعم» قال روي.

«ولكن سيكون الأوان قد فات حينئذ. سيكون الأوان قد فات عندما تندم». تغير صوتها .وقابلت عيناها عيني چون للحظة، ووقع الخوف في قلب چون. شعر أن كلماتها، على غرار الطريقة الغريبة التي يختار الرب أن يتكلم بها أحيانًا للبشر، منزلة من السماء وأنه المقصود بها. كان في الرابعة عشرة– هل فات الأوان؟ و مما عزز من قلقه ذلك الإحساس، الذي أدرك في تلك اللحظة أنه كان معه طوال الوقت، بأن أمه لم تكن تقول كل ما تعنيه. تساءل ما الذي كانت تقوله للعمة فلورنس عندما تتحادثان؟ أو لأبيه؟ ماذا كانت أفكارها؟ لم ينمّ وجهها عن أي شيء. ومع ذلك عندما كانت تنظر إليه في لحظة كالسر وترسل إشارتها كان وجهها يخبره بكل شيء. كانت أفكارها مريرة.

قال روي وهو ينهض: «لا يعنيني، عندما يكون لي أطفال لن أعاملهم بهذه الطريقة». راقب چون أمه؛ وراقبت هي روي. «أنا متأكد أن هذا لا يصلح. فليس لك الحق في أن يصبح لك بيت ملوءه الأطفال إن لم تكن تعرف كيف تعاملهم».

قالت أمه: «إنك تتكلم كرجل كبير هذا الصباح، فلتحذر».

ردّ روي وهو يميل فجأة نحو أمه: «ثمة شيء آخر أود أن تحدثيني عنه، لماذا لا يدعني أتحدث إليه كما أتحدث إليك؟ إنه أبي، أليس كذلك؟ لكنه لا يستمع لي أبدًا – طوال الوقت عليّ أن أستمع إليه».

قالت وهي تنظر إليه: «أبوك يعرف الصالح. إذا استمعت إليه، فأنا أضمن لك أنك لن تنتهي إلى السجن».

مصّ روي أسنانه حنقًا. «لا أسعى لدخول أي سجن. أتظنين أن العالم لا يوجد فيه إلا سجون وكنائس؟ يجب ألا تقتصر معرفتك على ذلك يا أمي».

قالت: «كل ما أعرفه هو أنه لا أمان ما لم تمش خاشعًا أمام الرب. ستكتشف ذلك أيضًا يومًا ما. فلتذهب في طريقك أيها العنيد. فلن تجني إلا الأسى».

ابتسم روي: «ولكنك ستكونين موجودة عندما أقع في مأزق، أليس كذلك يا أماه؟»

قالت محاولة أن تكبح ابتسامتها: «إنك لا تعلم إلى متى سيدعني الرب أبقى معك».

استدار روي وأدى خطوة راقصة ثم قال: «هذا معقول، فأنا أعلم أن الرب ليس قاسيًا مثل أبي. أليس كذلك يا ولد؟» وجه السؤال لجون وضربه بخفة على جبهته.

«دعني أتناول إفطاري يا ولـد». غمغـم چـون: رغـم أن طبقه فرغ منذ فترة طويلة، وكان مسرورًا أن روي استدار له.

«هذا الولد أكيد مجنون»، غامرت سارة قائلة بتعقل.

صاح روي: «فلتنصتوا إلى القديسة الـصغيرة! لـن يعـاني أبي من أي مشاكل معها – هذه البنت ولدت مقدسـة. أراهـن أن أول كلمات نطقتها كانت: 'الشكر لـك يـا يـسوع' ألـيس كذلك يا أمي؟»

قالت ضاحكة: «فلتكف عن هـذه الحماقـة، واذهـب إلى عملك. فلن يجاريك أحد في حماقاتك طوال الصباح».

سـألها روي: «أوه، هـل لـديك عمـل لي هـذا الـصباح؟ حسنًا، ها أنا أسألك ماذا تأمرينني أن أعمل؟»

«عليك إصلاح الخشب في غرفة الطعام. ولن تطأ بقدمك خارج المنزل قبل أن تقوم بذلك».

«لماذا تتكلمين هكذا الآن يا أمي؟ هل قلت لك إنني لـن أفعل؟ تعرفين أنني أعمل بجد عندما أرغب في ذلك. بعـد أن أنتهي هل بإمكاني الخروج؟»

«فلتبدأ في العمل وسوف نرى. ومـن الأفـضل أن تقـوم بعملك على خير وجه».

قال روي: «إنني دائمًا أقوم بعملي على خير وجه، لن تعرفي أخشابك القديمة عندما أنتهي من العمل».

قالت الأم: «كالأولاد الطيبين اكنس الغرفة الأمامية من أجل خاطري يا چون ونفض الأثاث. وسوف أنظف أنا هنا».

«نعم يا أماه». أجابها ونهض واقفًا. لقد نسيتْ عيد ميلاده. وأقسم هو ألا يذكره. ولن يفكر فيه أكثر من ذلك.

كان كنْس الغرفة الأمامية يعني أساسًا كنْس السجادة الثقيلة ذات الطابع الشرقي والملونة بالأحمر والأخضر والأرجواني، والتي كانت في وقت مضى مجد هذه الغرفة، ولكن ألوانها ذهبت الآن حتى أصبحت لونًا واحدًا غامًا، وتنسلت في بعض الأماكن لدرجة أنها كانت تعلق بالمكنسة. كان چون يكره كنس هذه الغرفة، لأن الغبار كان يصعد ويسد أنفه ويلتصق بجسده العرقان؛ وكان يشعر أنه لو استمر في كنسها إلى الأبد فلن تنقشع سحابات الغبار أبدًا، ولن تنظف أبدًا. اتخذت السجادة في مخيلته صورة المهمة المستحيلة في حياته، صورة عذابه المضني، كهذا الرجل الذي قرأ عنه في مكان ما، وكانت اللعنة المكتوبة عليه أن يدفع حجرًا إلى أعلى تل منحدر، لا لشيء إلا لكي يدفعه العملاق الذي يحرس التل إلى أسفل مرة أخرى – وهكذا إلى الأبد؛ مازال هناك، هذا الرجل التعس، في مكان ما عند الطرف الآخر من الأرض،

يدفع صخرته أعلى التل. كان يحظى بتعاطف چون التام، لأن الجزء الأطول والأشق من صباحات السبت بالنسبة له كان رحلته مع المكنسة عبر هذه السجادة اللانهائية؛ وعندما يصل إلى الأبواب الفرنسية التي تنهي غرفة المعيشة وتسد طريق السجادة، كان يشعر وكأنه مسافر أنهكه السفر إنهاكًا يفوق الوصف يرى الوطن أخيرًا. ومع ذلك ففي مقابل كل سلة مملوءة بالغبار تخرج بعد جهد جهيد من التنظيف عند عتبة الباب كانت الشياطين تعيد إلى السجادة عشرين سلة أخرى؛ في الفسحة الممتدة خلفه كان الغبار الذي رفعه يستقر مرة أخرى على السجادة؛ جزّ على أسنانه، وكان التوتر قد ألم به من جراء الغبار الذي ملأ فمه، وكاد أن يبكي من التفكير في أن كل هذا الكدح لم يجن إلا القليل.

ولم تكن تلك نهاية عمل چون؛ لأنه ما إن يبعد المكنسة وسلة المهملات حتى يخرج من الدلو الصغير تحت الحوض خرقة التنفيض وزيت تلميع الأثاث وقطعة قماشٍ مبللة، ويعود إلى غرفة المعيشة ليستنقذ، إذا جاز التعبير، ممتلكات عائلته من تحت الغبار الذي كان يهدد بطمرها. هجم على المرآة بقطعة القماش والمرارة تملأ تفكيره في عيد ميلاده، وراح ينظر إلى وجهه وكأنه خارج من سحابة. صدمه أن رأى وجهه لم يتغير، وأن يد إبليس مازالت خفية. كان والده يقول دائمًا إن

وجهه وجه إبليس - ثم ألم يكن ثمة شيء في رَفعة حاجبه والطريقة التي اتخذ بها شعره الخشن شكل الحرف v على جبهته.يشهد على صحة كلام أبيه؟ في العين يبدو نور ليس نور الجنة، والفم يرتعش بالشهوة والفجور ليعُب من خمر الجحيم. حملق في وجهه وكأنه وجه شخص غريب، بل سرعان ما ظهر حقًا أنه وجه غريب ينطوي على أسرار لا سبيل لجون أن يدركها. وإذ فكر في وجهه باعتباره وجهًا لشخص غريب، حاول أن ينظر إليه كما ينبغي لغريب، ويكتشف ماذا يرى الآخرون فيه. لكنه لم ير غير تفاصيل: عينين كبيرتين، وجبهة عريضة منخفضة، أنفه المثلث، وفمه الضخم، والشق الذي يكاد لا يرى في ذقنه، والذي كان كما قال والده أثر الإصبع الصغير للشيطان. لم تساعده هذه القسمات في اكتشاف ما يريده، لأن مبدأ وحدتها كان عصيًا على الاستجلاء، ولم يستطع أن يحدد ما كان يرغب من كل قلبه في معرفته: هل كان وجهه قبيحًا أم لا.

أطرق بعينيه إلى رف المدفأة، وراح يرفع الأشياء التي كانت تزينه. كان رف المدفأة يحمل في فوضى عارمة صورًا فوتوغرافية، وبطاقات تهانٍ، وشعارات مزخرفة، وشمعدانين من الفضة لا شموع بهما، وثعبان من المعدن أخضر اللون، في وضع الانقضاض. راح جون يحملق فيها في حالة التبلد التي

شملته اليوم دون أن يرى شيئًا؛ ثم بدأ ينفض الغبار عنها في عناية مبالغ فيها تليق بالحريصين. كان أحد الشعارات المزخرفة باللونين الوردي والأزرق مكتوبًا بحروف بارزة، مما جعل مهمة نفض الغبار أكثر صعوبة:

تعالَ في المساء، أو تعالَ في الصباح،

تعالَ عندما تُرام، أو دون إنذار متاح،

ستلقى هنا أمامك فيضًا من الترحاب،

وكلما جئتنا هنا، ستجد مزيدًا من الأحباب.

وكان الشعار الآخر، المكتوب بحروف من نار على خلفية من الذهب، يقول:

هكذا أحبَّ الله العالَمَ حتى وهَبَ ابنَهُ الأوحَدَ، فَلا يَهلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤمِنُ بِهِ، بل تكونُ لَهُ الحياةُ الأبدِيَّةُ

(يوحنا 3، 16)

كان هذان الشعاران، بما يثيرانه من مشاعر متباينة إلى حد ما، يزينان جانبي رف المدفأة، وكان الشمعدانان الفضيان يحجبانهما قليلاً. بين هذين الطرفين كانت بطاقات التهاني، التي تلقوها عامًا بعد عام، في أعياد الكريسماس وعيد الفصح وأعياد الميلاد، تزف بُشراها السعيدة؛ بينما الثعبان المعدني الأخضر، الخبيث أبدًا، يرفع رأسه بكبرياء بين هذه الغنائم

متحينًا الوقت للانقضاض. وعلى المرآة رصت الصور الفوتوغرافية كأنها في موكب.

كانت هذه الصور هي الآثار العتيقة الحقيقية للأسرة، مما أعطى الإحساس أن كل صورة يجب أن تحيي ذكرى الماضي السحيق. وكانت صور چون وروي والبنتين، التي بدت وكأنها تنتهك هذا القانون غير المعلن، تثبت في الواقع صرامته الحديدية: التقطت كلها في الطفولة، ذلك الزمان والطور اللذين لا يستطيع الأطفال أن يتذكروهما. كان چون في صورته يرقد عاريًا على مفرش سرير أبيض، كان الناس يضحكون ويقولون إنها صورة لطيفة لكن چون لم يستطع أبدًا أن ينظر إلى الصورة دون الشعور بالعار والغضب من أن ينكشف عريه فيها بمثل هذه القسوة. لم يكن أحد من الأطفال الآخرين عاريًا؛ كان روي يرقد في مهده في ثوب أبيض ويبتسم عن فم لا أسنان به في وجه الكاميرا، أما سارة فقد كانت ترتدي «بونيه» أبيض وتظهر متجهمة وعمرها ستة أشهر، وكانت روث على ذراع أمها. عندما كان الناس ينظرون إلى تلك الصور ويضحكون كان ضحكهم يختلف عن الضحك الذي يحيون به صورة چون عاريًا. لهذا السبب عندما كان الزوار يتلاطفون مع چون كان يتجهم ويشعرون هم أنه يكرههم لسبب ما فيقررون نكاية فيه أنه طفل غريب الأطوار.

من بين الصور الأخرى كانت صورة العمة فلورنس، وفيها كان شعرها مصففًا إلى أعلى على الموضة العتيقة ومربوطًا بشريط؛ كانت صغيرة جدًا عندما التقطت لها هذه الصورة وكانت قد وصلت لتوها إلى الشَمال. أحيانًا عندما كانت تأتي إلى زيارتهم كانت تحضر الصورة لتثبت أنها كانت جميلة حقًا في شبابها. كانت هناك صورة أخرى لأمه غير تلك التي رآها جون لمرة واحدة فقط، التقطت لها بعد الزواج مباشرة. وصورة لأبيه متشحًا بالأسود وهو جالس في شرفة منزل ريفي ويداه متشابكتان في تثاقل على حجره. كانت هذه الصورة قد التقطت في يوم مشمس، و قد ضخَّم ضوءُ الشمس بلا رحمة من قسمات وجه أبيه. كان يحملق في الشمس ورأسه مرفوع على نحو كريه، ورغم أن الصورة التقطت له في شبابه لم يكن وجهه وجه شابٍ؛ لم يكن هناك ما يدل على أن هذه الصورة التقطت منذ زمن بعيد سوى مظهر عتيق في ملابسه. في الوقت الذي التقطت فيه هذه الصورة، كما حكت العمة فلورنس، كان أبوه قد أصبح واعظًا، وكانت له زوجة تسكن الجنة الآن. لم يدهشه أنه كان واعظًا في ذلك الوقت، لأنه من المستحيل تخيله على أي وجه آخر؛ ولكن أن تكون له زوجة في ذلك الماضي البعيد متوفاة الآن فذلك من الأشياء التي ملأت جون بدهشة مزعجة للغاية. فكر جون أنه لو قدر لها أن تعيش ما كان ليولد أبدًا؛ ما كان أبوه لينزح إلى الشمال

ويلتقي بأمه. تلك المرأة الغامضة، المتوفاة منذ سنين عديدة، والتي كانت تدعى ديبورا. كانت تحمل في صمت قبرها، كما بدا لجون، مفتاح كل تلك الأسرار الغامضة التي كان يتوق إلى كشفها. فهي من عرفها أبوه في حياة لم يعشها هو وفي بلد لم يره أبدًا. عندما كان لا شيء، في لا مكان، هباءً، سحابًا، هواءً، شمسًا، ومطرًا ساقطًا، بل إنه حتى لم يكن قد خطر بالبال، كما كانت تقول أمه، أو في الجنة مع الملائكة كما كانت تقول عمته، كانت هي من عرفت أباه وشاركته منزله. من أحبته. كانت هي من عرفت أباه عندما أبرق البرق وأرعد الرعد عبر السماء، وقال أبوه: «أنصتي، الرب يتكلم». لقد عرفته في صباحات ذلك البلد البعيد عندما كان أبوه يتقلب في فراشه ويفتح عينيه، وكانت تنظر في هاتين العينين وترى ما بهما بلا خوف. لقد رأته مُعمدًا، يرفس وينهق كالبغل، ورأته يبكي عندما ماتت أمه، كان حينئذ، كما حكت فلورنس، شابًا مستقيمًا. ولأنها نظرت إلى هاتين العينين قبل أن ينظرا إلى جون فهي تعرف ما لن يعرفه جون أبدًا – نقاء عيني أبيه قبل أن تنعكس صورة جون في أعماقهما. كان بإمكانها أن تخبره – لو تمكن فقط أن يسألها من مكمنه ! كيف يجعل أباه يحبه. أما الآن فقد فات الأوان. فلن تتحدث قبل يوم الدينونة. وبين تلك الأصوات الكثيرة التي ستتلعثم، مثل صوته، لن يهتم بشهادتها.

عندما انتهى جون وأصبحت الحجرة على أهبة الاستعداد ليوم الأحد، شعر أنه مترب ومتعب فجلس بجوار النافـذة في كرسي أبيه الوثير . غمرت الشوارعَ شمسٌ باردةٌ وملأت ريح عاتيـة الجـو بقـصاصات ورق وغبـار صـقيعي، وصـفقت اللافتات المتدلية من الـدكاكين والكنـائس التـي اتخـذت مـن بعض الدكاكين مقارًا لها. كان الشتاء يقترب من نهايته والثلج المملوء بالقمامة المتراكمة عـلى حـواف الأرصـفة يـذوب الآن ويمـلأ البالوعـات. والأولاد يلعبـون البيـسبول في الـشوارع الرطبـة البـاردة، يرقـصون ويـصيحون في كنـزاتهم الـصوفية الثقيلة وسراويلهم السميكة، والكـرة تطرقـع عنـدما تـضربها العصي مرسلةً إياها في الهواء في سرعة . كان أحـدهم يرتـدى «كاب» من الصوف المشغول بالإبرة لونه أحمر فاقع تتدلى منـه كرة صوفية ضخمه تتقافز كلما قفز، كأنها نـذير سـاطع فـوق رأسه . جعلت الشمس البـاردة وجـوههم كالنحـاس، ومـن خلال النافذة المغلقة كان جون يسمع أصواتهم الخـشنة تتفـوه بالبذاءات. كان جون يود أن يكـون واحـدًا مـنهم، يلعـب في الشوارع بلا خوف ويتحرك بتلك الرشاقة والقوة، لكنه كـان يعرف أن هذا غير ممكن. ومع ذلك، فإن لم يكـن بمقـدوره أن يلعب ألعـابهم فبوسـعه أن يفعـل شـيئًا لا يـستطيعونه، كـان يقدر، كما قال أحد معلميه، أن يفكر. لكن ذلك لم يمنحـه إلا عزاءً قليلاً، لأنه اليوم كان مرعوبًا من أفكاره. رغب أن يكون

مع هؤلاء الأولاد في الشارع بلا حذر ولا تفكير ليستنفد جسده الخؤون المراوغ.

ولكن الساعة الآن الحادية عشرة، وفي خلال ساعتين سيعود أبوه إلى البيت. وحينئذ سوف يأكلون ثم يؤمهم أبوه في الصلاة ويعطيهم درسًا في الكتاب المقدس وسرعان ما يحل المساء فيذهب لتنظيف الكنيسة ويظل هناك لقداس المساء. فجأة وهو جالس أمام النافذة اعترته موجه من العنف غير مسبوقة وغمره طوفان من الغضب والدموع، أطرق برأسه وشد قبضتيه على زجاج النافذة وراح يصرخ وهو يجز على أسنانه: «ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل؟».

حينئذ نادته أمه، وتذكر أنها بالمطبخ تغسل الملابس وربما كان لديها شيء ما تكلفه به . نهض متجهًا وسار إلى المطبخ. كانت تقف على حوض الغسيل، ذراعاها مبللان يغطيهما الصابون حتى المرفقين والعرق ينز من جبهتها. كانت مريلتها، التي ارتجلتها من ملاءة قديمة، مبللة حيث تتكئ على لوح دعك الملابس . عندما دخل اعتدلت وجففت يديها في طرف المريلة وسألته «هل أنهيت عملك يا چون ؟»

أجابها: «نعم يا أماه». وتفكر كيف تنظر إليه على نحو غريب، وكأنها تنظر إلى ابن امرأة غيرها.

«أنت ولد طيب» قالتها وافتر ثغرها عن ابتسامه خجلى متوترة.

«هل تعرف أنك ذراع أمك اليمنى ؟»

لم يفه بشيء ولم يبتسم، ولكنه راح يراقبها متسائلاً إلى أي مهمة تمهد هذه المقدمة.

استدارت وهى تمسح جبهتها بيد رطبة واتجهت نحو خزانة المطبخ. كان ظهرها ناحيته، وراقبها بينما كانت تنزل زهرية لامعة مزخرفة ، لا تملأ بالزهور إلا في المناسبات الخاصة جدًا، ثم أفرغت محتوياتها في راحة يدها. سمع رنين النقود، وهذا يعنى أنها سوف ترسله إلى المتجر. أرجعت الزهرية إلى مكانها واستدارت لتواجهه وراحتها الممدودة مغلقة بغير إحكام. ثم قالت «لم أسألك أبدًا ما الذي تريده في عيد ميلادك؛ خذ هذه النقود واخرج لتشتري ما تريد».

فتحت راحته ووضعت بها النقود، دافئة ومبللة من أثر يدها. في اللحظة التي شعر فيها بالعملات الدافئة الملساء وبيدها على يده، حملق چون كالأعمى في وجهها، الذي كان بعيدًا فوقه. انفطر قلبه وأراد أن يضع رأسه على بطنها في المكان المبلل ويبكى. لكنه أطرق بعينيه ونظر في راحته إلى كومة العملات الصغيرة.

قالت: «ليس بالمبلغ الكبير».

قال: «لا بأس به» ثم تطلع إليها، فانحنت وقبلته على جبهته قائلةً وهي تضع يديها تحت ذقنه وتبعد وجهه عنها «سوف تصبح ولدًا كبيرًا صالحًا . وستكون رجلاً عظيمًا، هل تعرف ذلك؟ أمك تعتمد عليك».

مرة أخرى كان يعرف أنها لم تكن تقول كل ما تعنيه، كانت اليوم تُبلغه بما يشبه لغة سرية شيئًا ما يجب أن يتذكره ويفهمه غدًا. راح يرقب وجهها وقلبه يعترم بالحب لها وبألمٍ، لم يصبح ألمًا بعد، ألمٌ لم يفهمه ولكنه أنزل الفزع به.

«أجل يا أماه» قالها آملاً أن تدرك عمق رغبته في أن يفرحها رغم لسانه المتلعثم.

«أعرف». قالت ذلك بابتسامة وتركته ونهضت «هناك الكثير من الأشياء لا تفهمها .. لكن لا تقلق. سوف يكشف لك الرب في الوقت المناسب ما يريد لك أن تعرفه. فلتجعل إيمانك بالرب قويًا يا چوني ولا ريب أنه سيجعل لك مخرجًا فكل الأشياء تعمل معًا للخير .. للذين يحبون الرب».

لقد سمعها تقول ذلك من قبل– فقد كان نصها المفضل كما كان «أَوْصِ بيتك» نص أبيه المفضل –لكنه كان يعرف أنها تقوله له هو بشكل خاص اليوم، وكانت تحاول أن تساعده

لأنها كانت تعلم أنه في كرب. وكان هـذا الكـرب هـو كربهـا الذي لن تبوح به لجـون أبـدًا بـرغم أنـه كـان متيقنـا أنهـما لا يقـصدان بكلامهـما نفـس الأشـياء، إلا أن إدراكهـا لحالتـه وتأكيدها على حبها له أضفى على حـيرة چـون واقعًـا أفزعـه وكرامة منحته السلوان . وعلى نحـو مـبهم شـعر أن عليـه أن يهدئها ويعزيها، وشُده وهو ينصت إلى الكلمات التي سـقطت الآن من بين شفتيه:

«أجل يا أماه. سوف أحاول أن أحب الرب».

إزاء هذه الكلمات وثب شيء مباغت، شيء جميل وحزين حزنًا يفوق الوصف في وجه أمه- وكأنهـا كانـت تنظـر وراءه بعيدًا إلى طريق طويل مظلم، ترى عليه مسافرًا يحدق به خطـر دائم. أكان هو ذلك المسافر؟ أم هي؟ أم كانت تفكر في صليب يسوع؟ عادت إلى حوض الغسيل وهذا الحزن الغريـب يـريم على وجهها.

قالت له: «من الأفضل أن تذهب الآن قبل أن يعود أبوك للمنزل».

في حديقة «سنترال بارك» لم تكن الثلوج قد ذابت بعد على ربوته المفضلة. كانت هذه الربوة في وسط الحديقة بعـد دائـرة البحيرة الصناعية، حيث كان يرى دائمًا خارج سور الأسـلاك

الشائكة العالي سيدات من البيض في معاطف من الفراء ينزهن كلابهن الضخمة، أو مسنين من البيض يتكئون على عكـاكيز. عند نقطة بعينها كان يميزها بالغريزة وبشكل البنايات المحيطة بالحديقة، كان يشق طريقًا منحدرًا تغطيـه الأشـجار ويتـسلق لمسافة صغيرة حتى يصل إلى الأرض الفضاء التـي توصـل إلى الربوة. من أمامه كان المنحدر يمتد صـاعدًا ومـن فوقـه تمتـد السماء اللامعـة، ومـن ورائـه أفـق نيويـورك بعيـدًا، تفترشـه السحب. استبدت به نشوة وشعور بالقوة لا يدري لهما سـببًا، وراح يعدو صاعدًا الربوة كسيارة مندفعة أو كمجنون يرغـب في أن يلقي بنفسه رأسًا في المدينة التي كانت تتلألأ أمامه.

وعندما بلغ القمة هدأ واعـتلى ذروتهـا ويـداه معقودتـان أسفل ذقنه وراح ينظر للـسفح. شـعر جـون وكأنـه عمـلاق يستطيع أن يحطم هذه المدينة بغضبه، وكأنه طاغية بمقدوره أن يسحق هذه المدينة تحت قدمه، شعر وكأنه فاتح طال انتظـاره، على قدميه ستنثر الزهور ومن أمامه تـصيح الجمـوع: هوزانـا (خلصنا)!.

مـن بـين الجميـع سـيكون الأقـوى والمحبـوب الأعظـم ومسيح الرب، سيعيش في هذه المدينة المتأنقـة التـي رنـا إليهـا أجداده من بعيد في شوق. إنها مدينته، لقد أخبره ساكنوها أنها له، كل ما عليه أن يعدو هابطًا ويـصيح وسـوف يأخذونـه في قلوبهم ويشهدونه من العجائب ما لم تقع عليه عيناه أبدًا.

ظل ساكنًا على قمة الربوة. وتذكر البشر الذين رآهم في تلك المدينة وعيونهم التي لم تشف عن أي حب له. فكر في أقدامهم المنطلقة الضارية، وفي الملابس الرمادية الغامقة التي يرتدونها وكيف كانوا لا يرونه عندما يمرون به، و إن رأوه ابتسموا في سخرية. وكيف كانت أضواؤهم التي لا تتوقف تتكسر عليه، وكم هو غريب هناك. ثم تذكر أباه وأمه، وكل الأذرع الممدودة لكي تصده، لكي تنقذه من هذه المدينة، حيث ستلقى روحه كما قالوا هلاكها.

من المؤكد أن الهلاك كان يحوم حول أقدام السائرين هناك، ويزعق في الأضواء، والأبراج العملاقة. تبدت على وجوه رواد دور السينما المنتظرين عند الأبواب أمارات إبليس، وكلماته مطبوعة على إعلانات الأفلام الضخمة التي تدعو الناس للخطيئة؛ وهدير الملعونين يدوي في شارع «برودواى»، حيث تتصارع السيارات والأوتوبيسات والمارة المسرعون مع الموت على كل شبر من أرض الشارع. برودواى(*): رحبٌ هو الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين تراهم عليه، ولكن ما أضيق الطريق الذي يؤدي إلى الحياة الخالدة، قليلون هم الذين عثروا عليه. لكنه لم يكن تواقًا إلي الطريق الضيق الذي سار فيه أهله جميعًا، حيث لا تعلو المنازل وكأنها

(*) يعني اسم الشارع حرفيًا «الطريق الواسع» Broadway (المترجم)

تخترق السحب الساكنة، بل تتكوم قميئة ذليلة تقترب من الأرض القذرة، حيث الشوارع والطرقات والحجرات المظلمة، تفوح منها الروائح العاتية للغبار والعرق والبول وشراب الجن المصنع منزليًا. في الطريق الضيق، طريق الصليب، كان ينتظره الهوان الأبدي وينتظره يومًا ما بيت كبيت أبيه، يصير فيه عجوزًا أسود من الجوع و الكدح. طريق الصليب أعطته بطنًا مملوءًا بالريح وأحنت ظهر أمه، لم يتسنَ لهم أبدًا ارتداء الملابس الفاخرة، أما هنا حيث تناطح البنايات قوة الرب ولا يخافه الرجال والنساء، فقد يأكل ما يسر قلبه ويكسو جسده بأقمشة فاخرة المظهر ناعمة الملمس. وبعدئذ ماذا عن روحه التي ستفنى يومًا ما وتقف عارية أمام محكمة الآخرة؟ فماذا سيغني عنه غزوه للمدينة في ذلك اليوم؟ هل يطيح بأمجاد الخلود من أجل لحظة من الترف؟!

هذه الأمجاد لا يمكن تخيلها – لكن المدينة حقيقية. للحظة وقف ذاهلاً على الثلوج الذائبة ثم راح يركض هابطًا الربوة شاعرًا بنفسه تطير كلما أسرع بالهبوط، وأخذ يفكر: «أستطيع أن أتسلق عائدًا، إذا كان هذا الطريق خاطئًا بإمكاني دائمًا أن أتسلق عائدًا». وعند سفح الربوة حيث انبسطت الأرض فجأة على طريق مفروش بالحصى، كاد أن يطيح برجل أبيض عجوز ذي لحية بيضاء كان يسير بتؤدة شديدة ويتكئ على

عكازه. توقفا مشدوهين ينظر كلاهما إلى الآخر. حاول چون جاهدًا أن يسترد أنفاسه ويعتذر ولكن الرجل العجوز ابتسم. بادله چون الابتسام. بدا الأمر وكأن بينه وبين العجوز سرًا كبيرًا، واصل العجوز سيره. كانت الثلوج تتلألأ في بقع تغطي الحديقة كلها. وتحت الشمس الشاحبة القوية كان الصقيع يذوب بطيئًا على فروع الأشجار وجذوعها.

غادر الحديقة عند الشارع الخامس، كانت الحناطير القديمة تصطف بحذاء الرصيف كعادتها والحوذيون يجلسون على مقاعدهم العالية ويلفون ركبهم بسجاجيد أو يقفون مثنى وثلاث بالقرب من خيولهم يخبطون بأقدامهم ويدخنون الغلايين ويتسامرون. في الصيف كان يرى الناس يركبون هذه الحناطير ويبدون كأنهم خارجين من الكتب أو أفلام السينما التي يرتدي الجميع فيها ملابس عتيقة الطراز وينطلقون عند حلول الليل على طرق جليدية في مطاردات حامية من قبل أعدائهم الذين يريدون أن يحملوهم إلى الموت: «انظر خلفك، خلفك» تصيح امرأة جميلة ذات خصلات شقراء طويلة «وتبين هل مازلنا مطاردين ؟» – وكانت نهايتها، كما يتذكر چون، مروعة. راح يحملق الآن في الخيول، ضخمة وبنية وصابرة، تدق الأرض بين الحين والحين بحوافر مصقولة، وفكر ماذا لو أصبح له حصان ملكه في يوم ما؟. سوف يسميه

«رايدر» ويمتطيه في الصباح عندما يكون العشب نديًا، ومن فوق صهوة الحصان سيلقي بنظرة على حقول شاسعة تغمرها الشمس، ستكون حقوله. ومن خلفها يقف بيته عظيمًا وجديدًا وممتدًا، وفي المطبخ تعد زوجته، التي ستكون امرأة جميلة، الفطور، ويصعد الدخان من المدخنة ويتبدد في هواء الصباح. سيكون لهما أطفال ينادونه «بابا» ويحضر لهم في أعياد الكريسماس قطارات كهربائية. وسيكون عندهم ديوك رومية وأبقار ودواجن وإوز وخيول أخرى بخلاف «رايدر». وسيكون لديهم خزانة مملوءة بالويسكي والخمر، وسيارات– ولكن أي كنيسة سيذهبون إليها وماذا سيعلم أطفاله عندما يلتفون حوله في المساء؟ نظر أمامه مباشرة في الشارع الخامس حيث النساء الرشيقات يخطرن في معاطفهن الفرو، ينظرن إلى واجهات المحلات التي تعرض الفساتين الحريرية والخواتم. أي كنيسة يذهبن إليها؟ وكيف تبدو منازلهن في المساء عندما يخلعن هذه المعاطف والفساتين الحريرية ويضعن مجوهراتهن في صندوق ثم يسترخين في مخادع ناعمة ليفكرن للحظه في اليوم المنصرم قبل أن يخلدن إلى النوم؟ هل يقرأن آية من الكتاب المقدس كل ليلة ويركعن على ركبهن للصلاة؟ كلا، لم تكن أفكارهن حول الرب، وطريقهن لم يكن طريق الرب. لقد كن في الدنيا، ومن الدنيا، وموطئ أقدامهن في الجحيم.

ومع ذلك في المدرسة كان بعضهن لطيفًا معه، وكان من الصعب أن يتخيل هؤلاء الرشيقات الحسناوات الآن يحترقن في الجحيم للأبد. ذات شتاء عندما كان مريضًا ببرد شديد لا يفارقه أحضرت له إحدى معلماته زجاجة من زيت كبد الحوت، أُعِد خصيصًا بشربات مركز حتى لا يصبح مذاقه سيئًا: يقينًا كان ذلك تصرفًا مسيحيًا. قالت أمه إن الرب سوف يبارك تلك المرأة، وتحسنت صحته. لقد كن طيبات القلب – إنه متيقن من ذلك – وفى اليوم الذي سيلفت فيه انتباههن من المؤكد أنهن سَيُحْبِبْنَه ويقدرنه. لم يكن ذلك رأي أبيه. كان يقول إن كل البيض أشرار وإن الرب سيذلهم. كان يقول إنه لا يمكن الثقة بالبيض وإنهم لا يتفوهون إلا بالأكاذيب، ولا أحدًا منهم أحب زنجيًا قط. وإنه، جون، زنجي، وسوف يكتشف حالما يكبر كم هم أشرار أولئك البيض. كان جون قد قرأ عن ما فعله البيض بالملونين، وكيف كانوا، في الجنوب حيث ترجع أصول والديه، يسلبونهم أجورهم ويحرقونهم ويطلقون النار عليهم – بل وما هو أبشع من ذلك، كما قال أبوه، مما لا يحتمل اللسان النطق به. قرأ عن ملونين أُحرِقوا على الكرسي الكهربائي لجرائم لم يرتكبوها، وكيف كانوا يضربون في المظاهرات بالهراوات، ويعذبون في السجون وكيف كانوا آخر المعينين وأول المفصولين. لم يكن الزنوج يعيشون في هذه الشوارع التي يسير فيها جون الآن.

كان ذلك ممنوعًا. ومع ذلك فهو يمشى هنا ولا أحدًا يرفع يده ضده، ولكن هل يجرؤ أن يدخل هذا المتجر الـذي تخـرج منـه الآن امرأة بكل بساطة حاملـة صـندوقًا ضـخمًا مـستديرًا؟.أو تلك الشقة التي يقف أمامها رجل أبيض يرتـدى زيًـا متألقًـا. يعرف چون أنه لا يجرؤ، ليس اليوم، وسمع ضحكة أبيه: «لا، ولا غدًا أيضًا!» ليس له إلا الأبواب الخلفية والـسلالم المظلمـة والمطبخ وطوابق تحت الأرض. هذا العالم ليس لـه. إذا رفـض أن يصدق وأصر على كسر عنقه وهو يحاول، فليحـاول حتـى ترفض الشمس أن تشرق، فلن يسمحوا له بالـدخول.حينئـذ تغير الناس والشارع في مخيلـة چـون، وأصـابه الخـوف مـنهم وعرف أنه ذات يومٍ سيكرههم ما لم يُغيّر الرب قلبه.

غادر الشارع الخامس واتجه غربًا نحو دور السينما. هنا في شارع 42 كانت الأجواء أقل أناقة ولكن لا تقل غرابة. كـان يحب هذا الشارع ليس بسبب الناس أو المتاجر ولكـن بـسبب الأسدين الحجريين اللذين يحرسـان المبنـى الـرئيس الـضخم للمكتبة العامة، ذلك المبنى المكـدس بالكتـب، بـشكل يفـوق الخيال، والذي لم يجرؤ أن يدخله حتـى الآن. كـان يعـرف أنـه بإمكانه أن يدخله لأنه كان عضوًا في فرع منطقة «هارلم» ومـن ثم مسموحًا له أن يستعير كتبًا من أي مكتبة في المدينة. لكنـه لم يدخل هذا المبنى لأنه كان ضخمًا للغاية ومن المؤكد أنـه مـليء

بالطرقات والسلالم الرخامية وإنه سيضيع في هذه المتاهة ولن يجد الكتاب الذي يريده. حينئذ سيعرف الجميع وكل البيض بالداخل أنه لم يعتد دخول المباني الضخمة أو مقاربة الكتب الكثيرة، وسينظرون إليه في شفقة. سيدخل في يوم آخر عندما يكون قد فرغ من قراءة كل الكتب الموجودة في فرع منطقته، وهو إنجاز سيمنحه، كما شعر، التوازن الذي يؤهله لدخول أي مبنى في العالم. كان الناس، وأغلبهم من الرجال، يتكئون على الحواجز الحجرية للحديقة المرتفعة التي تحيط بالمكتبة أو يمشون جيئة وذهابًا وينحنون لشرب الماء من نافورات الشرب العامة. حطت حمامات فضية لبرهة على رؤوس الأسود أو حواف النافورة ثم تهادت على الطرقات. راح جون يتسكع أمام متاجر «وول ورث» محملقًا في الحلوى المعروضة، يحاول أن يقرر أي نوع يشتري – ولم يشتر شيئًا لأن المتجر كان مزدحمًا وكان على يقين بأن البنت البائعة لن تراه وتوقف أمام بائع زهور صناعية، ثم عبر الشارع السادس حيث توجد ماكينات بيع الأطعمة وسيارات الأجرة المصطفة والمحلات، التي لن يتفرج عليها اليوم، والتي تعرض في واجهاتها صورًا بذيئة ومزحًا عملية، كانت دور السينما تبدأ بعد الشارع السادس فراح يدرس الصور المعروضة من الأفلام بعناية محاولاً أن يقرر أي الدور سيدخل. توقف أخيرًا أمام صورة عملاقة ملونة تعرض امرأة فاسقة نصف عارية تتمايل في

مدخل أحد الأبواب ويبدو أنها تتشاجر مع رجل أشقر يحدق في الشارع بأسى. كان الإعلان فوق رأسيهما يقول: «هناك مغفل مثله في كل بيت – وامرأة في الجوار لتفتنه!». قرر أن يرى هذا الفيلم، لأنه شعر بالتوحد مع الشاب الأشقر، المغفل في عائلته، ورغب أن يعرف المزيد عن مصيره المشئوم.

ومن ثم راح يحملق في الأسعار المعلقة فوق شباك حجز التذاكر، وبعد أن أعطى البائعة النقود تلقى تلك الورقة المخولة بسلطة فتح الأبواب. ومنذ أن قرر الدخول لم يلتفت إلى الشارع مرة أخرى خوفًا من أن يراه أحد القديسين ممن قد يتصادف مرورهم فيرونه ويصيحون باسمه ويضعون أيديهم عليه ليردونه على عقبيه. سار بسرعة عبر المدخل المفروش بالسجاد لا يلوى على شيء، لم يتوقف البتة إلا لكي تقطع العاملة تذكرته وتلقى بنصفها في صندوق فضي وترد إليه نصفها الآخر. فتحت العاملة له أبواب ذلك القصر المظلم وبمساعدة كشاف النور الذي تحمله خلفها قادته إلى مقعده. وحتى بعد أن شق طريقه عبر غابة من السيقان والأقدام لم يجرؤ أن يخرج أنفاسه بل لم ينظر إلى الشاشة يحدوه أمل أخير سقيم في الغفران. حملق في الظلمة التي تلف المكان وفى الوجوه التي تبدت تدريجيًا من تلك الظلمة التي تشبه ظلمة الجحيم. انتظر أن تنقشع الظلمة بنور المجيء الثاني، أن تنشق السماء

كاشفة لكل عين ترى عربات النار محملة بإله غضوب وجيوش السماء. غاص أكثر في مقعده وكأن انحناءه قد يخفيه وينكر حضوره هناك. لكنه تفكر: «ليس بعد، إن يوم الحساب لم يحن بعد». ثم تناهت الأصوات إلى مسمعه، لا ريب أنها أصوات الرجل التعس والمرأة الشريرة، فرفع عينيه بأسى رانيًا إلى الشاشة.

كانت المرأة شريرة للغاية. شقراء وبيضاء كالعجين وتعيش في لندن، الواقعة في إنجلترا، منذ بعض الوقت كما تبين من ملابسها وكانت تسعل من جراء مرض خطير سمع عنه هو السل. مات أحد أفراد عائلة أمه به. كان لها الكثير من العشاق وتدخن وتتعاطى الخمور. وعندما قابلت الشاب الصغير الذي كان طالبًا وأحبها كثيرًا عاملته بمنتهى القسوة. كانت تسخر منه لأنه مُعاق. كانت تأخذ نقوده وتلهو بها مع رجال آخرين وكانت تكذب عليه لأنه أحمق بالتأكيد؛ كان يعرج وينظر في ضعف وحزن. وما لبث چون أن منح كل تعاطفه لتلك المرأة الشرسة الشقية. كان چون يفهمها عندما تنفث غضبها وتهز ردفيها وتلقي برأسها للخلف في ضحك جامح حتى تبدو عروق رقبتها وكأنها ستنفجر.

كانت تذرع الشوارع الباردة الضبابية، صغيرة القد، خالية من الجمال، تتأود في وحشية وفسق وكأنها تقول للعالم

أجمع: «لا أكترث بكم». لاشيء يروضها أو يكسرها. لا شيء يؤثر فيها، لا العطف ولا الاحتقار، لا الكراهية ولا الحب. لم تفكر البتة في الصلاة. كان مستحيلاً أن تتخيلها ساجدة تزحف على أرضية متربة نحو أي مذبح، تنتحب من أجل الغفران. ربما كانت خطيئتها من الكبائر التي لا تغتفر، ربما كان كبرياؤها من العظمة بمكان لا تحتاج معه للغفران. لقد سقطت من العلياء التي خلقها الرب للرجال والنساء وجعل سقوطها جليلاً لأنه كان مكتملاً. لم يكن بمقدور چون أن يجد في قلبه أي رغبة في خلاصها حتى وإن جرؤ على البحث فيه. كان يريد أن يكون مثلها، أو فقط أكثر قوةً واكتمالاً و قسوةً، لكي يجعل المحيطين به، كل الذين آلموه، يعانون كما كانت تفعل بالطالب، ويضحك في وجوههم عندما يسألونه أن يرحمهم من آلامهم. لم يكن هو ليطلب منهم الرحمة، رغم أن ألمه كان أعظم من ألمهم . فلتستمري يا فتاتي، همس چون بينما كان الطالب يتنهد ويبكي وهو يواجه بغضها الذي لا يريم. فلتستمري يا فتاتي. يومًا ما سوف يتحدث مثلها سوف يواجههم ويخبرهم كم يكرههم وكم آلموه وكيف سينتقم منهم !

ورغم ذلك عندما اقتربت من الموت، الذي كان مصيرها في النهاية، كما تستحق، وكانت تبدو غريبة الهيئة أكثر من أي

وقت مضى، شُلت أفكاره فجأة وجمده التعبير الذي اعترى وجهها. بدا وكأنها تحملق إلى ما لا نهاية نحو الخارج وإلى أسفل، في وجه ريح خارقة أكثر من أي ريح خلفتها على الأرض، وتشعر أنها مدفوعة بسرعة فائقة إلى مملكة لا يملك لها أحد فيها أي مساعدة، لا كبرياؤها ولا شجاعتها ولا شرها العظيم. ففي المكان الذي كانت ذاهبة إليه لم تكن تلك هي الأشياء المهمة بل شيء آخر، لا تعرف اسمًا له، مجرد إيحاء بارد، شيء لا تستطيع تغييره على أي نحو، بل لم تفكر فيه أبدًا. بدأت في البكاء وانكسر وجهها الفاسق وصار عابسًا كوجه طفلٍ، وانفض الجميع من حولها وتركوها قذرة في غرفه قذرة بمفردها لتواجه خالقها. تلاشى المشهد واختفت المرأة، ورغم أن الفيلم استمر ليتيح للطالب أن يتزوج من فتاه أخرى، أكثر سمرة، وشديدة العذوبة، إلا أنها لم تكن البتة على نفس القدر من الجاذبية، أخذ چون يتأمل تلك المرأة ومصيرها المروع. مرة أخرى، كاد يظن أن الرب هو الذي قاده إلى تلك السينما ليريه عبرة لجزاء الخطيئة.

انتهى الفيلم ونهض الناس من حوله، وبينما كانت النشرة الإخبارية تعرض فتيات بملابس البحر يتبخترن أمامه، وملاكمين يزمجرون ويتعاركون، ولاعبي البيسبول وهم عائدون إلى بيوتهم في أمان، ورؤساء وملوك دول لا يعرف

عنها إلا أسماءها يمرون بسرعة عبر مربع الضوء المتلألئ، كان جون يفكر في الجحيم، وخلاص روحه، ويجاهد من أجل أن يجد طريقًا وسطًا بين الطريق المؤدي للحياة الخالدة والطريق المؤدي للهاوية. لكن لم يكن ثمة وسطٌ لأنه نشأ وتربى في الحقيقة. فهو لا يستطيع أن يدعي، كما قد يفعل المتوحشون الأفارقة، أن أحدًا لم يبشره بالإنجيل. فأبوه وأمه وكل القديسين علموه منذ نعومة أظافره ما هي إرادة الرب. فإما أن ينهض من هذه السينما ولا يعود أبدًا ويرمي وراء ظهره هذا العالم بكل ملذاته ومفاخره وعظمته، أو يبقى هنا مع الأشرار ويشاركهم عقابهم الأكيد. حقًا، إنها طريق ضيقة – تململ جون في مقعده، لا يجرؤ أن يشعر بأنه ليس من عدالة الرب أن يضعه في هذا الاختيار القاسي.

عندما اقترب جون من البيت مرة أخرى في فترة متأخرة بعد الظهر، رأى الصغيرة سارة تندفع خارج البيت، وسترتها غير مزررة، وتجرى في الشارع بعيدًا عنه نحو الصيدلية البعيدة. تملكه الرعب في الحال، وتوقف لحظة محملقًا نحو نهاية الشارع متسائلاً عن سبب تلك العجلة الهستيرية. كانت سارة في الحقيقة ممتلئة بإحساسها بأهميتها، و تجعل أية مهمة تقوم بها مسألة حياة أو موت ومع ذلك فقد تم إرسالها في تلك المهمة وعلى وجه السرعة حتى أن أمها لم يتح لها الوقت لكي تزرر معطفها.

حينئذ شعر بالإرهاق، لو أن شيئًا قد حدث حقًا سيكون الموقف بالبيت الآن متأزمًا، ولـن يرغـب هـو في مـواجهتهم. ولكن ربما كان الأمر ببساطة أن أمه مصابة بـصداع وأرسـلت سارة للصيدلية من أجل بعض الأسبرين. ولكن لو كان ذلك صحيحًا، فسيكون عليـه أن يعـد العـشاء و يعتنـي بالأطفـال ويكون عاريًا تحت ناظري أبيه طوال المساء. لذا شرع في المشي ببطء أكثر.

كان هناك بعض الأولاد يقفون في المدخل يراقبونـه بيـنما يقترب ولكنه لم يحاول أن يلتفـت إلـيهم بـل حـاول أن يقلـد مشيتهم المختالة. قال أحدهم بينما كان چون يصعد الدرجات الصغيرة الحجرية متجهًا نحو البهو: «أيها الولد، لقـد أصـيب أخوك بجرح بالغ السوء اليوم».

نظـر إلـيهم في خـوف دون أن يـستطيع الـسؤال عـن التفاصيل، ولاحظ أنهم أيضًا يبـدون وكـأنهم خـارجون مـن معركة، شيء ذليل في نظراتهم يوحى بأنهم اضطروا للفرار. ثم نظر إلى أسفل، ورأى أن هناك دمًـا عـلى العتبـة، ودمًـا يلطـخ أرضية المدخل. نظر مرة أخرى إلى الصبية، الذين لم يكفوا عن النظر إليه، ثم أسرع صاعدًا للطابق العلوي.

كان الباب مواربًـا - مـن أجـل عـودة سـارة لا ريـب - فدلف منه دون أن يصدر أي صوت، تـضطرم بداخلـه رغبـة

مفاجئة في الهرب. لم يكن ثمة أحد في المطبخ، رغم أن الضوء كان مشتعلاً في جميع أنحاء البيت. على مائدة المطبخ كانت هناك حقيبة مشتروات ممتلئة بالبقالة، فعرف أن عمته فلورنس قد وصلت. كان حوض الغسيل حيث كانت أمه تغسل في وقت مبكر مازال مفتوحًا ويملأ المطبخ برائحة عطنة. كان ثمة قطرات من الدم على الأرضية هنا أيضًا، وبقع صغيرة ملطخة من الدم بحجم العملة المعدنية على الدرج بينما كان يصعده.

كل ذلك روعه بشدة. وقف في وسط المطبخ محاولاً أن يتخيل ما حدث وهو يهيئ نفسه لدخول غرفة المعيشة؛ حيث بدا كأن العائلة كلها هناك. لقد وقع روي في مشاكل من قبل، ولكن تلك المشكلة الجديدة تبدو وكأنها بداية تحقق نبوءة ما. خلع معطفه وألقاه على أحد المقاعد، ثم شرع في دخول غرفة المعيشة عندما سمع سارة تصعد درجات السلم جريًا.

تلبث في مكانه وانطلقت هي عبر الباب حاملة لفافة مهوشة. همس لها: «ما الذي حدث؟».

حملقت فيه في ذهول، وشيء من المرح الجامح. فكر مرة أخرى بأنه في الحقيقة لا يحب أخته. قالت في زهو وهي تمسك أنفاسها: «لقد طُعِن روي بسكين!» ثم انطلقت إلى غرفة

المعيشة. طُعِن روي بسكين أيًا كان ما يعنيه هذا فسوف يكون أبوه في أسوأ حالاته الليلة. سار چون بتؤدة إلى غرفة المعيشة.

كان أبوه وأمه يركعان بجانب الأريكة التي يرقد عليها روي وبينهما طست صغير من الماء، كان أبوه يغسل الدم النازف من جبهة روي. بدا وكأن أمه التي كانت لمستها أكثر رقة قد تم استبعادها جانبًا من قبل أبيه، الذي لم يحتمل أن يلمس أي شخص آخر ولده الجريح. الآن كانت هناك ترقب المشهد وإحدى يديها في الماء، أما الأخرى فكانت تضعها في نوع من الأسى على خصرها الذي مازالت تطوقه المريلة المرتجلة التي كانت ترتديها في الصباح. كان وجهها وهي ترقب الموقف مشحونًا بالألم والرهبة وبتوتر لا تحتمله إلا بالكاد، وبشفقة لا يمكن التعبير عنها حتى وإن ملأت العالم كله ببكائها. كان أبوه يغمغم لروي بكلمات حانية ومحمومة، وكانت يداه ترتعشان وهو يغمسهما ثانية في الطست ويعصر قطعة القماش. أما العمة فلورنس، وكانت لا تزال ترتدي قبعتها وتحمل حقيبة يدها، فقد وقفت بعيدة قليلاً وهي تنظر إليهم بوجه مكفهر.

حينئذ قفزت سارة إلى الغرفة قبله، فتطلعت أمه ومدت يدها لأخذ اللفافة ورأته. لم تقل شيئًا، لكنها نظرت إليه بحدة غريبة و بسرعة، كأن ثمة تحذيرًا على لسانها لا تجرؤ أن تتفوه

به. نظرت عمته فلورنس وقالت: «كنا نتساءل أين كنت، يا ولد. أخوك الشقي هذا خرج إلى الشارع وتسبب في إيذاء نفسه».

أدرك چون من نبرة صوتها أن الجلبة كانت أكبر قليلاً من حجم الإصابة – فبأي حال لم يكن روي على شفا الموت. لذا تماسك قليلاً. حينئذ استدار أبوه ونظر إليه وصرخ فيه «أين كنت يا ولد كل ذلك الوقت؟ ألا تعلم أن البيت هنا يحتاجك؟».

تسبب وجه أبيه أكثر من كلماته نفسها في أن يتجمد چون في الحال كرهًا وخوفًا. كان وجه أبيه في غضبه مروعًا، لكنه الآن اكتسى شيئًا يفوق الغضب. لقد رأى چون الآن ما لم يره فيه من قبل، إلا في خيالاته الانتقامية: رأى نوعًا من الذعر المتوحش الباكي الذي قرّ في وجه أبيه فبدا أصغر سنًا، وفي آن معًا أكبر سنًا وأكثر قسوة على نحو لا يوصف. ولحظة أن وقعت عينا أبيه عليه أدرك چون أن أباه يكرهه لأنه لم يكن هو الذي يرقد على الأريكة حيث كان يرقد روي. لم يجرؤ چون على النظر في عيني أبيه ومع ذلك فقد نظر بسرعة، دون أن يفوه بشيء، شاعرًا في قرارة قلبه بإحساس غريب بالانتصار ومؤملاً من كل قلبه أن يموت روي كي يطيح بأبيه.

كانت أمه قد حلت اللفافة وأخذت تفتح زجاجة المُطهر. قالت: «خذ، من الأفضل أن تغسل الجرح بهذا». كان صوتها هادئًا وجافًا، نظرت إلى أبيه لوهلة وهى تمد يدها بالزجاجة والقطن، ووجهها لا ينم عن أي شيء.

قال أبوه، وهو يستدير نحو الأريكة، في صوت مختلف، شديد الحزن والرقة: «إن هذا سوف يؤلم، كن رجلاً وتماسك فلن يستغرق هذا وقتًا طويلاً».

راح چون يرقب وينصت و يبث كراهيته تجاه أبيه . بدأ روي يتأوه ألمًا. تحركت العمة فلورنس صوب رف المدفأة ووضعت حقيبة يدها بجانب الثعبان المعدني. ومن الحجرة الواقعة خلفه سمع چون صوت الطفلة الرضيعة وهي تبكي. قالت أمه: «چون، فلتذهب كالأولاد الطيبين وتحملها». لم ترتعش يداها بل كانتا منهمكتين في العمل. فبعدما فتحت زجاجة المطهر شرعت في قطع شرائط من الرباط. سار چون إلى حجرة نوم والديه ورفع الطفلة الباكية التي كانت مبتلة. وما أن شعرت روث به وهو يرفعها حتى كفت عن البكاء وحملقت فيه بعينين حزينتين مفتوحتين على وسعهما، كأنها كانت تعي أن هناك مشكلة بالبيت. ضحك چون على ورطتها التي بدت قديمة قدم التاريخ فقد كان مولعًا غاية الولع بأخته الرضيعة – وهمس في أذنها وهو يعود أدراجه إلى غرفة المعيشة:

«الآن يجب أن تنصتي لما سيخبرك به أخوك الكبير يا صغيرتي. بمجرد أن تصبحي قادرة على الوقوف على قدميك يجب أن تفري من هذا البيت، بعيدًا بعيدًا». لم يدرِ لما قال ذلك، أو أين أراد لها أن تفر، ولكن ذلك جعله يشعر بتحسن سريع.

عندما دلف چون إلى الغرفة كان أبوه يقول: «من المؤكد أن لديّ بعض الأسئلة سأطرحها عليك في خلال دقيقة، أيتها السيدة الكبيرة. فأنا أريد أن أعرف كيف حدث وتركت ذلك الولد يخرج من المنزل ويعرض نفسه للموت؟».

قالت العمة فلورنس: «آه، لا، لن تبدأ شجاراتك تلك في مسائنا هذا. أنت تعرف جيدًا أن روي لا يستأذن أحدًا أبدًا فيما يفعله – فهو ينطلق على هواه ويفعل ما يريد. ومؤكد أن إليزابيث لن تستطيع تقييده بالسلاسل وهي مشغولة طوال الوقت في هذا البيت، وليس خطؤها أن روي عنيد الرأس مثل أبيه».

«دائمًا لديك ما تقولينه، ألا تستطيعين أن تبعدي لسانك مرة واحدة عن التدخل في شئوني؟». وجه لها كلامه دون أن ينظر إليها.

«ليس خطأي أنك وُلِدتَ أحمق وكنت أحمق طوال الوقت ولن تتغير أبدًا. أقسم بأبي أن صبر أيوب نفسه لا يحتملك».

قال لها دون أن يتوقف عن تضميد روي الذي كان يتـأوه – فقد كان يضع له المطهر الآن على الجرح – «ألم أخـبرك مـن قبل إنني لا أريـدك أن تـأتي إلى هنـا وتـستخدمي هـذه اللغـة السوقية أمام أطفالي».

ردت عليه بحماس: «لا تقلـق مـن لغتـي يـا أخـي، مـن الأحرى بك أن تقلق بشأن حياتك، فما يسمعه الأطفال هنا لن يؤذيهم بمقدار ما يرونه».

غمغم أبوه: «إن ما يرونه هو رجل فقير يحـاول أن يخـدم الرب. هذه هي حياتي».

قالت: «أؤكد لك أنهم سيبذلون قصارى جهـدهم في ألا يتمثلوها في حياتهم. ولتتذكر كلماتي».

استدار ونظر إليها معترضًا الطريق عـلى النظـرة المتبادلـة بين المرأتين. كانت أم چون، لأسباب مختلفة تمامًا عن أسـباب أبيه، تريد من العمة فلورنس أن تلـزم الـصمت. أشـاح الأب بنظره في سخرية. وأخذ چـون يراقـب أمـه وهـي تـزم فمهـا بمرارة وتطرق بعينيها .وفي صمت بدأ أبـوه في لـف الـضمادة حول جبهة روي.

قال أخيرًا: «إنه لمن رحمة الـرب أن هـذا الـصبي لم يفقـد عينه. انظري هنا».

انحنت أمه ونظرت في وجه روي وهي تهمهم بنبرة حزينة ومتعاطفة. ومع ذلك فقد شعر چون أنها أدركت في الحال الخطر الذي كان يتهدد عين روي وحياته وأنها تجاوزت ذلك القلق الآن. بدا الأمر وكأنها تعد الدقائق استعدادًا للحظة التي سيتحول فيها غضب زوجها بكل قوته ضدها.

استدار أبوه حينئذ تجاه چون الذي كان يقف بجانب الأبواب الفرنسية حاملاً روث بين ذراعيه.

ثم قال: «يا ولد، تعالَ هنا وانظر ما فعله البيض بأخيك». مشى چون باتجاه الأريكة في كبرياء تحت نظرات أبيه الغاضبة وكأنه أمير يسير إلى المشنقة.

«انظر هنا» قال أبوه وهو يشده بفظاظة من إحدى ذراعيه «انظر إلى أخيك».

نظر چون إلى أخيه الذي كان يحملق فيه دون أن تنم عيناه القاتمتان عن أي تعبير. لكن چون أدرك من الحالة التي كان عليها فم روي الصغير من إنهاكٍ ونفاد صبر أن أخاه يرجوه ألا يعتبره مسئولاً عن أي مما يحدث. الآن. كانت عينا روي تقولان ليس خطئي أو خطأ چون أن لنا هذا الأب المجنون.

تنحى أبوه جانبًا بعض الشيء، وعليه سيماء من يدفع الخاطئ لأن ينظر في الهوة التي ستكون من نصيبه، لكي يتمكن چون من رؤية جرح روي.

لقد طُعِن روي بسكين، لم تكن حادة النصل لحسن الحظ، في منتصف جبهته عند منبت شعره حتى العظمة التي تعلو عينه اليسرى مباشرة. رسم الجرح شكلاً يشبه هلالاً شائهًا ينتهي بذيل أشعث عنيف دمر حاجب روي. سيتكفل الزمن بإخفاء ذلك الهلال في بشرة روي السوداء، لكن الحاجب المشقوق بعنف لن يلملمه شيء. رفعة الحاجب الشائهة تلك ومعها ذلك السؤال الذي تحمله سوف يلازمانه للأبد، وسيوحيان للأبد بسمتٍ ساخر وشرير في وجه روي. شعر چون برغبة مفاجئة في أن يبتسم لكن عيني أبيه كانتا مصوبتين نحوه فقاوم تلك الرغبة. من المتيقن أن الجرح الآن كان في غاية القبح وشدة الاحمرار وشعر چون منجرفًا بتعاطفه مع روي، الذي لم يبك، بأنه لابد في غاية الألم. كان بإمكانه أن يتخيل مدى الإثارة التي حدثت عندما اندفع روي إلى البيت معميًا بدمائه، ومع ذلك لم يلقَ مصرعه، ولم يتغير، ولسوف يخرج للشوارع مرة أخرى حالما يتحسن.

قال أبوه: «هل ترى؟ إنهم البيض، بعض من البيض الذين تحبهم حبًا شديدًا، هم الذين حاولوا قطع رقبة أخيك».

فكر چون، وقد اعتراه غضب سريع واحتقار غريب لمجانبة أبيه الصواب، أن شخصًا أعمى فقط، حتى وإن كان أبيض، هو من كان بإمكانه أن يصوب السكين نحو عنق

روي؛ وقالت أمه في إصرار هادئ: «وهو أيضًا كان يحاول أن يقطع أعناقهم. هو ورفاق السوء».

قالت العمة فلورنس «نعم، لم أسمعك قط تسأل هذا الولد سؤالاً واحدًا عن كيف حدث ذلك. يبدو الأمر وكأنك قررت فقط أن تقيم الدنيا بأي طريقة وتجعل كل من في المنزل يعاني لأن مكروهًا أصاب قرة عينك».

صاح أبوه في غضب مروع: «لقد طلبت منك أن تغلقي فمك. فلا شأن لك بما يحدث هنا. هذه أسرتي وهذا بيتي. هل تريدين أن أصفعك على وجهك؟»

ردت عليه بهدوء مروع بالمثل: «اصفعني وأنا أضمن لك أنك لن تكررها أبدًا دونما تفكير».

نهضت أمه قائلة: «صمتًا الآن، فلا حاجة بنا لكل هذا. ما حدث قد حدث. يجب أن نسجد شكرًا للرب أن الأمر ليس أسوأ من ذلك».

قالت العمة فلورنس: «آمين يا رب، فلتقولي شيئا لذلك الزنجي الأحمق».

توجه بالحديث لزوجته في غِلٍ، وكأنه قرر فيما يبدو أن يتجاهل أخته، «بإمكانك أن تقولي شيئًا لابنك الأحمق، الذي يقف هناك بعينيه الواسعتين. فلتقولي له أن يعي أن هذا نذيرًا

من الرب. هذا هو ما يفعله البيض بالزنوج. لطالما أخبرتك، والآن فلتر بنفسك».

صرخت العمة فلورنس: «أن يعي أن هذا نذيرًا؟ أن يعي هذا؟ لماذا يا جبريل؟ فليس چون هو من جاب نصف المدينة ليشتبك في مشاجرات مع الأولاد البيض، ولكن هذا الولد الراقد على الأريكة هو من ذهب عن عمد مع ثلة من الآخرين حتى الجانب الغربي من المدينة للبحث عن الشجار. إنني أتعجب مما يدور برأسك».

قالت أمه وهي تنظر مباشرةً إلى أبيه: «إنك تعلم جيدًا أن چون لا يخرج مع نفس نوعية الأولاد التي يصاحبها روي. وكم من المرات قمت أنت بضرب روي في هذه الغرفة لخروجه مع هؤلاء الأولاد الفاسدين. لقد تسبب روي في إيذاء نفسه بعد ظهر اليوم لأنه زج بنفسه فيما لا يعنيه وهذه هي العاقبة. يجب أن تشكر مخلصك أن ولدك لم يمت».

ردَّ قائلاً: «ورغم عنايتك الفائقة فقد كان من الممكن أن يتعرض للموت. لا تتظاهري وكأنك تهتمين بحياته أو موته».

«الرحمة يا إلهي»، قالت العمة فلورنس.

قالت أمه بحرارة: «إنه ابني أيضًا، لقد حملته في بطني تسعة أشهر وأعرفه حق المعرفة كأبيه، فهما متماثلان تمامًا. والآن ليس من حقك أن تكلمني بهذه الطريقة».

قال لها وهو يتحشرج متنفسًا بصعوبة: «أعتقد أنك تعرفين كل شيء عن حب الأم؛ لذا فأنا متأكد من أنه باستطاعتك أن تخبريني كيف يتسنى لامرأة أن تجلس في بيتها طوال اليوم وتترك فلذة كبدها يخرج للشارع ليُذبَح. لا تقولي لي إنكِ لا تعرفين كيف تمنعينه، لأنني أتذكر أمي، رحمها الله، وما كانت تفعله».

قالت العمة فلورنس: «لقد كانت أمي أنا أيضًا، وإن كنت ناسيًا أذكرك كم مرة عدت إلى المنزل ميتًا أكثر منك حيًا. ولم تُجدِ أي طريقة لمنعك. لقد أنهكت نفسها من كثرة ما ضربتك، تمامًا كما تفعل أنت نفسك مع هذا الولد».

قال لها: «يا للعجب، إن لديك الكثير لتقوليه».

فردت عليه: «لا أفعل شيئًا سوى أنني أحاول أن أوصل الكلام المعقول لرأسك الكبير الأسود الصلب. من الأفضل لك أن تكف عن إلقاء اللوم على إليزابيث في كل شيء وانظر إلى سوء أفعالك».

قالت أمه: «لا بأس يا فلورنس، لقد انتهى كل شيء الآن».

صاح قائلاً: «إنني أخرج من هذا البيت كل يوم من أيام الرب للعمل من أجل وضع الطعام في أفواه هؤلاء الصغار.

ألا ترين أن من حقي أن أسأل أُم هؤلاء الأطفال أن تعتني بهم وتحرسهم من أن يكسروا أعناقهم حتى أعود للمنزل؟»

قالت: «ليس لديك إلا ولد واحد معرض لكسر عنقه، ألا وهو روي، وأنت تعلم ذلك. ولا أعرف بأية حال كيف تتوقع مني أن أدير هذا البيت وأرعى الأطفال وأظل أجري في الحي بحثًا عن روي. لا، إنني لا أستطيع أن أوقفه، لقد أخبرتك بذلك من قبل، وأنت كذلك لا تستطيع ردعه لذا فإنك تلقي باللوم على أي شخص. ليس هناك من يُلام يا جبريل. ومن الأجدى لك أن تدعو الرب أن يوقفه قبل أن يطعنه شخص آخر ويُلقَى به في قبره».

حملق كلاهما في الآخر لبرهة رهيبة، وفى عينيها سؤال متوسل مرتعد. حينئذ رفع يده وصفعها على وجهها بكل قوته. انهارت في التو وهي تخبئ وجهها النحيف بكفها النحيلة، وأسرعت العمة فلورنس لتسندها. كانت سارة ترقب كل ذلك بعينين متوجستين. عندئذ همّ روي من مرقده وقال بصوت مرتعش: «لا تصفع أمي. إنها أمي. إذا صفعتها ثانية يا أسود، يا ابن الزنا، فقسمًا بالرب لأقتلنك».

في اللحظة التي ملأت تلك الكلمات فيها الغرفة وبقيت محلقة كالضوء المتقطع العالق الذي يسبق الانفجار، كان چون وأبوه يحملقان في عيني أحدهما الآخر. فكر چون للحظة أن

أباه ربما ظن أن الكلمات خرجت من فيه هو، فقد كانت عيناه في غاية التوحش وبهما حقد سحيق، والتوى فمه مكشرًا في ألم. في الصمت المطلق الذي أعقب كلمات روي، رأى چون أن أباه لم يكن يراه، إذ ما عاد بمقدوره أن يرى أي شيء إلا بحسبانه رؤيا يُوحَى بها إليه. أراد چون أن يدور على عقبيه ويلوذ بالفرار كأنه قابل وحشًا مفترسًا في الغابة له عيون مفتوحة كفوهات الجحيم؛ وكأنه وجد نفسه عند انحناءة طريق ما في مواجهة دمار محقق، وأنه لا يستطيع الفرار. استدار الأب حينئذ ونظر إلى روي.

سأله: «ماذا قلت؟»

قال روي: «قلت لك لا تلمس أمي »

رد أبوه: «لقد شتمتني»

لم يفه روي بشيء ولم ينزل عينيه.

قالت أمه: «جبريل، جبريل، دعنا نصلي ...»

كان جبريل يضع يديه عند خصره، فخلع حزام سرواله، والدموع تملأ عينيه.

صرخت العمة فلورنس: «جبريل، ألم تنته من لعب دور الأحمق الليلة؟»

حينئذ رفع أبوه حزامه الذي هوى بصوت صافر على روي الذي ارتعد وتراجع للخلف موليًا وجهه للحائط. لكنه لم يصرخ. ثم رفع الحزام مرة بعد أخرى. ردد الهواء صفير الحزام وفرقعته على جسد روي. وبدأت الطفلة الرضيعة روث في الصراخ.

همس أبوه «يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي».

ثم رفع الحزام كرة أخرى، لكن العمة فلورنس أمسكت به من الخلف وأخذته. هرعت أمه إلى الأريكة وأخذت روي بين ذراعيها وراحت تبكي كما لم ير جون امرأة أو أي إنسان يبكي في حياته من قبل. أمسك روي أمه من عنقها وتعلق بها كالغريق.

وقفت عمته فلورنس قبالة أبيه وجهًا لوجه.

وقالت: «نعم يا سيدي، لقد وُلدت أرعن وستموت أرعن. لكن لا فائدة من أن تجرجر العالم معك. ليس بمقدورك أن تغير شيئًا يا جبريل. ينبغي أن تعرف هذا الآن».

فتح جون باب الكنيسة بمفتاح أبيه في الساعة السادسة. كان القداس الليلي يبدأ رسميًا في الثامنة، لكن بالإمكان أن يبدأ في أي وقت، وقتما يدفع الرب أحد القديسين ليدخل الكنيسة ويصلي. ومع ذلك نادرًا ما كان يصل أحد قبل الثامنة

والنصف، فروح الرب من الأريحية بمكان يتيح للقديسين الوقت الكافي للقيام بتسوق حاجياتهم كالمعتاد ليلة السبت، وتنظيف بيوتهم ووضع أطفالهم في أسرتهم.

أغلق چون الباب وراءه ووقف في ممشى الكنيسة الضيق يتسمع لأصوات الصغار من خلفه يلعبون، ولأصوات أكثر وقاحة تنبعث من إخوانهم الأكبر سنًا، الذين كانوا يشتمون ويتصايحون في الشارع. كانت الظلمة تلف الكنيسة؛ وكانت مصابيح الأعمدة تطقطق وهي تضاء من حوله في الشارع المزدحم؛ لقد ولى ضوء النهار. بدت قدماه وكأنهما زرعتا في الأرضية الخشبية؛ لم ترغبا في أن تحملاه خطوة واحدة للأمام. أحاقت به الكنيسة في ظلمتها وصمتها باردة كالقضاء، وبدت الأصوات القادمة من النافذة وكأنها تصرخ من عالم آخر. تحرك چون للأمام، متسمعًا وقع أقدامه على خشب الأرضية الهابط، إلى حيث الصليب الذهبي، على مفرش المذبح الأحمر، يتوهج كالنار المطمورة، وأضاء مصباحًا خافتًا.

هواء الكنيسة، كما كان دائمًا، عبق برائحة الغبار والعرق؛ فغبار هذه الكنيسة كان لا يقهر ولا يريم مثل السجادة الموجودة في غرفة معيشة أمه؛ وعندما كان القديسون يصلون أو يغنون كانت تفوح من أجسادهم رائحة نفاذة ساخنة، مزيج من روائح الأجساد الناضحة بالعرق وبلل الملابس

الكتانية البيضاء المنشاة. كانت الكنيسة من تلك الكنائس التي تتخذ من أحد الدكاكين مقرًا لها، وكانت تقع، طوال حياة جون، عند ناصية هذا الشارع المليء بالخطايا، في مواجهة المستشفى الذي كان يستقبل المصابين والقتلى من المجرمين كل ليلة. وعندما وصل القديسون استأجروا هذا الدكان المهجور وتخلصوا مما كان به؛ ثم قاموا بطلاء الجدران وبناء منبر وأتوا ببيانو ومقاعد واشتروا أكبر كتاب مقدس تيسر لهم الحصول عليه. وعلقوا ستائر بيضاء في واجهة العرض، وكتبوا على هذه الواجهة «معبد المعمدين بالنار». عندئذ كانوا على أهبة الاستعداد لخدمة الرب.

وكما وعد الرب الاثنين أو الثلاثة الذين اجتمعوا معًا لأول مرة فقد أرسل بالمزيد؛ وهؤلاء بدورهم جلبوا آخرين وأسسوا كنيسة. من هذه الكنيسة الأم قد تنبثق فروع أخرى، بنعمة الرب، ويبدأ عمل عظيم عبر المدينة كلها بل وعبر البلاد. فكما جاء في تاريخ المعبد لقد جمع الرب المبشرين والمعلمين والأنبياء وناشدهم أن ينطلقوا إلى الحقل ليعملوا له، وأن يصعدوا ويهبطوا في الأرض حاملين إنجيله، أو يشيدوا معابد أخرى – في فيلادلفيا وجورجيا وبوسطن وبروكلن. أينما قادهم الرب كانوا يذهبون. ومن حين لآخر كان أحدهم يرجع ليشهد بالعجائب التي أظهرها الرب من خلاله أو

خلالها. وفي بعض الأحيان كانوا يخصصون يومًا من أيام الأحاد ليزوروا مجتمعين إحدى كنائس الأخوة القريبة.

في وقت من الأوقات، قبل ميلاد چون، كان أبوه أيضًا من الذين يخرجون لخدمة الرب؛ أما الآن حيث كان عليه أن يكسب قوت يومه من أجل أسرته فنادرًا ما كان يستطيع أن يسافر أبعد من فيلادلفيا، وعندما يقوم بذلك فلفترة قصيرة فقط. لم يعد أبوه يؤم اللقاءات الإحيائية الكبرى، كما فعل ذات مرة عندما طبع اسمه بحروف كبيرة على اللوحات التي كانت تعلن عن زيارة أحد رجال الرب. فيما مضى كان أبوه يتمتع بشهرة عظيمة؛ ولكن كل ذلك على ما يبدو قد تغير بعد أن غادر الجنوب. ربما كان ينبغي الآن أن يكون له كنيسة خاصة به – كان چون يتساءل إذا ما كان أبوه يريد ذلك؛ ربما كان يجب أن يقود قطيعًا كبيرًا إلى مملكة الرب، كما يفعل الأب چيمس الآن. لكن أبوه كان مجرد حارس في بيت الرب. تنحصر واجباته في استبدال مصابيح النور المحترقة ونظافة الكنيسة والعناية بالأناجيل وكتب التراتيل واللوحات الحائطية. وفي ليلة الجمعة كان يؤم قداس القساوسة الشبان ويعظ معهم. ونادرًا ما كان يلقي خطبة صباح الأحد؛ كان يستدعى لذلك فقط عندما لا يوجد شخص آخر لإلقائها. كان بمثابة خطيب احتياطي، أو خادم مقدس متعدد الواجبات.

ومع ذلك، وبقدر ما رأى چون، كان أبوه موضع احترام كبير. فلم يوبخه أي قديس أو يلمه في أي موقف، ولم يوحِ أحد بأن حياته كانت تتصف بأي شيء إلا الطهارة. وبالرغم من ذلك فهذا الرجل، خادم الرب، قد ضرب أم چون، ولقد أراد چون أن يقتله – ومازال يريد أن يقتله.

كان چون قد مسح جانبًا واحدًا من الكنيسة، وكانت المقاعد مازالت مكومة في الفسحة الواقعة أمام المذبح، عندما دق الباب. وما إن فتحه حتى وجد إليشا الذي جاء لمساعدته.

قال إليشا وهو يقف على عتبة الباب مبتسمًا: «ليتمجد الرب».

قال چون «ليتمجد الرب». كانت هذه هي التحية التي يستخدمها القديسون دائمًا فيما بينهم.

دخل الأخ إليشا وصفق الباب من خلفه وأخذ يدق الأرض بقدميه. كان على الأرجح عائدًا من ملعب كرة السلة، جبهته مصقولة بعرق ندي وشعره أشعث. كان يرتدي كنزته الصوفية الخضراء، التي طبع عليها حروف اسم مدرسته الثانوية، وقميصه مفتوحًا عند العنق.

سأله چون وهو يحملق فيه: «ألا تشعر بالبرد هكذا؟»

«لا، أيها الأخ الصغير، لا أشعر بالبرد. هل تظن كل الناس خرعين مثلك؟»

«ليس الصغار وحدهم من يودي بهم البرد إلى المقبرة»، أجابه چون وقد اعتراه شعور غير معتاد بالجرأة والخفة، إذ كان مجيء إليشا قد غير من مزاجه.

كان إليشا قد سار إلى آخر ممشى الكنيسة باتجاه الغرفة الخلفية، فاستدار وحملق في چون في دهشة ووعيد. وقال «آه، أرى أنك تنوي أن تتواقح الليلة مع الأخ إليشا - سوف أضطر إلى تهذيبك بعض الشيء. انتظر حتى أغسل يدي».

«لا حاجة بك إلى غسيل يديك إن كنت قد جئت للعمل. كل ما عليك هو أن تمسك بهذه الممسحة وتضع بعض الصابون والماء في الدلو».

قال إليشا، وهو يفتح المياه في الحوض، وكأنه يتحدث فيما يبدو إلى الماء: «يا إلهي، من المؤكد أن هذا الفتى زنجي وقح. آمل ألا يتسبب في إيذاء نفسه يومًا ما، بسبب لسانه المنفلت. ويبدو أنه لن يتوقف حتى يلكمه أحدهم في عينه».

تنهد بعمق وبدأ في تصبين يديه. «لقد جريت طوال هذه الطريق حتى لا يفتح بطن أحد وهو يرفع واحدًا من هذه المقاعد، وكل ما قدر له أن يقوله هو «ضع بعض الماء في

الدلو» المعروف لا يجدي مع الزنجي على أية حال». توقف واستدار ليواجه چون. «أليس لديك أيّة آداب للسلوك يا ولد؟ من الأفضل لك أن تتعلم كيف تتكلم مع من هم أكبر منك».

«من الأفضل لك أن تأتي إلى هنا بالمسحة والدلو. فليس لدينا الليل بطوله».

قال إليشا: «استمر، أعتقد أنني سأوسعك ضربًا الليلة».

توارى إليشا وسمعه چون في الحمام عبر هدير الماء يقلب الأشياء في الحجرة الخلفية.

«والآن ماذا تفعل؟»

«دعني وشأني يا ولد. فأنا أستعد للعمل».

«إن الأمر يبدو كذلك حقًا». أسقط چون مكنسته ومشى نحو الحجرة الخلفية. كان إليشا قد أوقع صفًا من المقاعد المنطبقة، المرصوصة في أحد الأركان، ووقف فوقها مغضبًا وهو يمسك المسحة بيديه.

«لقد أخبرتك مرارًا ألا تخبئ تلك المسحة هناك في الخلف. لا يمكن العثور عليها بسهولة».

«لكني أجدها دائمًا بسهولة. فليس كـل شـخص أخـرق مثلك».

ترك إليشا الممسحة الرمادية الصلبة تـسقط عـلى الأرض وهجم على چون، فأخـل بتوازنـه ورفعـه مـن عـلى الأرض. وحاول أن يقطع أنفاس چون بإحكام ذراعيه حـول خـصره، وهو يراقبه بابتسامة استحالت إلى تكشيرة ضارية مع مقاومـة چون ومحاولته الإفلات. أخذ چـون يـدفع إليـشا بكلتـا يديـه ويضربه عـلى كتفيـه وعـضلات ذراعيـه، وحـاول أن يركلـه بركبتيه في بطنه. عادة ما كانت تنتهي معركة كهـذي سريعًـا، لأن إليشا كان يفوقه ضخامة وقوة، وأمهر منـه في المـصارعة؛ لكن چون كـان مـصممًا الليلـة ألا ينهـزم، أو عـلى الأقـل أن يُصعِّب النصر عليه. فناضل بكل قواه ضـد إليـشا، واحتـشد بقوة توشك على الكراهية. فراح يركل ويلكم ويتلوى ويدفع، مستغلاً صغر حجمه في إرباك خصمه وإغاظته، حتى انزلقت قبضتاه المبللتان عن خاصرة چون. كان الموقـف معلقًـا؛ فلـم يكن بإمكان إليشا أن يحكم قبضته، كـما لم يملـك چـون منهـا فكاكًـا. ومـن ثـم اسـتدارا ودار القتـال في الحجـرة الـضيقة، وأفعمت رائحـة عـرق إليـشا النفـاذة خياشـيم چـون. ورأى العروق نافرة على جبهة إليـشا وفي عنقـه؛ وأصـبحت أنفاسـه متقطعة وغليظة، وغدت التقطيبـة عـلى وجهـه أكثـر ضراوة؛

فاعترت چون بهجة متوحشة وهو يرى آثار قوته. وتعثرا في المقاعد المنطبقة فزلت قدم إليشا وانفلتت قبضته عن چون. حملق كلاهما في الآخر بابتسامة واهنة. ثم سقط چون على الأرض ممسكًا برأسه بين يديه.

سأله إليشا: «لم أوقع بك أذىً، أليس كذلك؟».

تطلع إليه چون: «أنا؟ لا، فقط أريد أن ألتقط أنفاسي».

ذهب إليشا إلى الحوض، ونثر بعض الماء البارد على وجهه وعنقه. وقال «أعتقد أنك سوف تدعني أعمل الآن».

نهض چون وقال «لم أكن أنا من عطلك عن العمل في البداية». أحس بقدميه ترتعشان. نظر إلى إليشا، الذي كان يجفف جسده بالمنشفة. «سوف تعلمني المصارعة في وقت من الأوقات، أليس كذلك؟»

قال إليشا ضاحكًا: «لا يا ولد، لا أريد أن أصارعك. فإنك تفوقني قوة». وبدأ في ملء الدلو الكبير بالماء الساخن.

مر چون بجواره نحو المقدمة والتقط مكنسته. لم تمض برهة حتى تبعه إليشا وبدأ في مسح الأرض قرب الباب. انتهى چون من المسح، وصعد إلى المنبر لينفض الغبار عن الكراسي الثلاثة التي تشبه العروش، بلونها الأرجواني، والمفارش الكتانية المربعة التي تغطي مساند الرأس والذراعين

الضخمتين. كان المنبر يعلـو كـل شيء: منـصة مرتفعـة فـوق مقاعد المصلين، وحامل مرتفع في المنتـصف للإنجيـل، يقـف أمامـه الـواعظ. وفي مواجهـة المـصلين كـان المـذبح، بقماشـه القرمزي الذي ينـساب مـن هـذا الارتفـاع، يحمـل الـصليب المذهب وشعار: يسوع مخلصي. كان المنبر مقدسًا. لا يرتقيه إلا من ختم الرب عليه بخاتمه.

نفض جون الغبـار عـن البيـانو وجلـس عـلى مقعـده في انتظار أن ينتهي إليشا من مسح أحد جانبي الكنيسة حتى يُعيد الكراسي إلى مكانها. فجأة قال إليشا دون أن ينظر إليه:

«أما آن الأوان يا ولد أن تفكر بشأن روحك؟»

«أظن ذلك»، قالها جون في هدوء بث في نفسه الرعب.

رد إليشا: «أعرف أن الأمر يبدو صعبًا في الظاهر، خاصة عندما تكون صغيرًا. ولكن صدقني يا ولد لن تجد متعة أعظم من تلك التي ستجدها في خدمة الرب».

لم يقل جون شيئًا. ولمـس أحـد مفـاتيح البيـانو الـسوداء فأصدر صوتًا مكتومًا، كصوت طبل بعيد.

قال إليشا وهو يلتفت ناظرًا إليه: «يجب أن تتـذكر، أنـك تفكر في الأمر بعقل جسداني. مازال لديك عقل آدم، يا ولـد، وتفكر في أصدقائك، وتريد أن تفعل مثلما يفعلون، وتريـد أن

تذهب إلى السينما، وأراهن أنك تفكر في البنات، أليس كذلك. ولكن عندما يخلصك الرب سوف يحرق آدم القديم كله، ويعطيك عقلاً جديدًا وقلبًا جديدًا، وحينئذ لن تجد لذة في العالم، ستكون كل بهجتك في السير مع يسوع والحديث معه كل يوم».

حملق چون، وقد شله الرعب، في جسد إليشا. رآه واقفًا – هل نسى إليشا؟ – بجانب الإماي أمام المذبح والأب چيمس يوبخه على الشر الذي يعشش في الجسد. نظر في وجه إليشا، تملأه أسئلة لا يرغب في طرحها أبدًا. ولم يخبره وجه إليشا أي شئ.

قال إليشا منحنيًا مرة أخرى على ممسحته: «يقول الناس إن الأمر صعب، لكن دعني أخبرك، أنه ليس بمثل صعوبة العيش في هذا العالم الشرير بكل أحزانه حيث لا سعادة على الإطلاق، ثم الموت والذهاب للجحيم. لا شيء بمثل هذه الصعوبة». ونظر مرة أخرى إلى چون. «هل ترى كيف يغرر الشيطان بالبشر ويفقدهم أرواحهم؟»

«نعم»، قال چون أخيرًا، يكاد صوته يوحي بالغضب، وبعجزه عن تحمل أفكاره، أو تحمل الصمت الذي كان إليشا ينظر إليه من خلاله.

ابتسم إليشا – وكان قد انتهى من أحد جانبي الكنيسة وأشار لجون لكي يُعيد الكراسي إلى موضعها – «هناك بنات في المدرسة التي أذهب إليها، وهن بنات لطيفات، ولكن عقولهن لا تفكر في الرب، وأحاول أن أخبرهن أن وقت التوبة ليس غدًا، بل اليوم. لكنهن لا يعتقدن أن هناك ما يدعو للقلق الآن، فبإمكانهن أن يتسللن إلى الجنة وهن على فراش الموت. ولكني أقول لهن، يا عزيزاتي لا يموت الجميع في فراشهم – فالناس دائمًا تموت فجأة، فاليوم تراهم وغدًا لن تراهم. كما أنهن لا يعرفن كيف يتعاملن مع إليشا العجوز، يا ولد، لأنه لا يذهب إلى السينما، ولا يرقص، ولا يلعب الورق، ولا يرافقهن خلف السلالم». سكت وراح يحملق في جون، الذي أخذ ينظر إليه في عجز لا يدري ماذا يقول. «وفوق ذلك يا ولد، بعضهن رقيقات حقًا، أعني جميلات، فإذا كانت إرادتك قوية بحيث لا تقع في غوايتهن حينئذ تدرك أن خلاصك مؤكد. أنا فقط أنظر إليهن وأقول لهن لقد خلصني يسوع ذات يوم، وسوف أسير على دربه دائمًا. فليس هناك امرأة ولا حتى رجل بإمكانه أن يغير رأيي». سكت مرة أخرى، وابتسم ثم أطرق بعينيه. «هل تتذكر يوم الأحد ذاك؟» قال إليشا «عندما صعد الأب إلى المنبر وناداني أنا وإلاماي، لأنه ظن أننا على وشك أن نرتكب الخطيئة – حسنًا، لن أكذب عليك يا ولد، لقد كنت حانقًا على ذلك الرجل العجوز في ذلك اليوم. لكني تفكرت

في الأمر، وهداني الرب إلى أنه كان على حق. لم يكن في عقلينا أنا وإلاماي أي شيء على الإطلاق، ولكن يبدو أن الشيطان في كل مكان – فأحيانًا يمسك بخناقك فلا تستطيع أن تتنفس. تبدو المسألة وكأنك تحترق، وعليك أن تفعل شيئًا، وتجد نفسك عاجزًا عن عمل أي شيء؛ لقد ركعت على ركبتي مرات عديدة، وبكيت وصارعت أمام الرب – كنت أصرخ يا چوني – وأدعو باسم يسوع. فهذا هو الاسم الوحيد الذي له سطوة على إبليس. كان هذا هو الحال معي في بعض الأحيان، وها أنا نلت خلاصي. كيف ستسير الأمور معك على ما تظن يا ولد؟» نظر إلى چون، الذي كان منحنيًا يصف المقاعد في مكانها.

«هل تريد أن تنال خلاصك يا چوني؟»

أجابه چون: «لا أعرف».

«هل ستحاول؟ فقط اركع على ركبتيك في أحد الأيام واطلب منه أن يساعدك على الصلاة؟»

أشاح چون بوجهه بعيدًا، ورنا إلى الكنيسة، التي بدت كأنها حقل شاسع عال، مهيأ للحصاد. تذكر يومًا من أيام الآحاد الأولى وآخر من آحاد التناول الرباني القريبة عندما كان القديسون، بملابسهم البيضاء، يأكلون خبز اليهود المسطح

غير المملح، الذي كان يمثل جسد الرب، ويشربون عصير العنب الأحمر، الذي كان يمثل دمه. وعندما نهضوا عن المائدة، التي أعدت خصيصًا لهذا اليوم، افترقوا، فذهب الرجال إلى جانب من الكنيسة، وذهبت النساء إلى الجانب الآخر، وملأوا طستين بالماء بحيث يغسلون أقدام بعضهم البعض، كما أمر المسيح حوارييه أن يفعلوا. انحنوا أمام بعضهم البعض، كل امرأة أمام امرأة، وكل رجل أمام رجل، وغسلوا أقدام بعضهم البعض وجففوها. انحنى إليشا أمام والد چون. وعندما انتهى القداس قَبَّلَ كل منهم صاحبه قبلات مقدسة. استدار چون مرة أخرى ونظر إلى إليشا.

نظر إليشا إليه وابتسم: «فكر فيما قلته لك يا ولد».

عندما انتهيا من العمل، جلس إليشا إلى البيانو وعزف لنفسه. وجلس چون على أحد المقاعد في الصف الأمامي وراح يراقبه.

بعد صمت طويل قال چون: «يبدو أنه لن يأتي أحد الليلة». لم يتوقف إليشا عن عزف أغنية حزينة على البيانو: «فلترحمني يا إلهي».

قال إليشا: «سوف يأتون».

وبينما هو يتكلم، دق الباب. توقف إليشا عن العزف. وتوجه چون نحو الباب، ليجد الأخت ماكندلس والأخت برايس.

ألقت كل منهما بالتحية: «ليتمجد الرب، يا ولدي».

رد چون: «ليتمجد الرب».

دخلتا، ورأساهما منحنيان ويداهما أمامهما معقودتان حول إنجيليهما. كانتا ترتديان المعطفين الأسودين اللذين ترتديانهما طوال الأسبوع وعلى رأسيهما قبعتان قديمتان من اللباد. أحس چون بقشعريرة تسري فيه وهما يمران، وأغلق الباب.

نهض إليشا واقفًا، وعلا صوتهما مرة أخرى بالتحية: «ليتمجد الرب» ثم ركعت المرأتان للحظة أمام مقعديهما للصلاة. كانت هذه أيضًا إحدى الشعائر الحميمة. كان على كل قديس يدخل أن يتواصل مع الرب بمفرده قبل أن يشارك في القداس. جلس إليشا مرة أخرى إلى البيانو وواصل أغنيته الحزينة. نهضت المرأتان، الأخت برايس في المقدمة، تتبعها الأخت ماكندلس، وأخذتا تتفقدان الكنيسة.

سألت الأخت برايس: «هل نحن أول من وصل؟» كان صوتها رقيقًا، ولون بشرتها نحاسيًا. كانت أصغر من الأخت

ماكندلس بعدة أعوام، امرأة عازبة لم تعرف، كما أقسمت، رجلاً البتة.

ابتسم الأخ إليشا: «لا، يا أخت برايس، الأخ چوني هنا وهو أول من وصل. لقد قمت أنا وهو بالتنظيف هذا المساء».

قالت الأخت ماكندلس: «إن الأخ چوني قوي الإيمان، وسوف يكرمه الرب كرمًا كبيرًا، تذكر كلماتي هذه».

في بعض الأحيان – عندما كان الرب يظهر نعمته حقًا من خلال أعمال الأخت ماكندلس – كان أيًا ما تقوله يبدو كأنه نذير. في هذه الليلة كانت لا تزال تحت تأثير الموعظة التي ألقتها الليلة السابقة. كانت امرأة ضخمة، من أضخم النساء اللاتي خلقهن الله وأكثرهن سوادًا، وباركها الرب بصوت جهوري للغناء والوعظ، وكانت على وشك الخروج لحقل الدعوة إلى الرب. لسنوات مديدة كان الرب يدفع الأخت ماكندلس لتنهض، كما قالت، وتتحرك؛ ولكنها كانت ذات طبيعة خجلى تخشى أن تتعالى على الآخرين. فلم تنهض وتدعو للإنجيل إلا بعد أن أنزلها الرب أمام هذا المذبح بعينه. لكنها الآن عقدت عزمها وتأهبت للترحال. كانت ترفع عقيرتها بالصراخ ولا تتوقف وكأنها بوق يدوي على جبل صهيون.

قالت الأخت برايس بابتسامتها الرقيقة: «نعم، يقول الرب من كان مؤمنًا في صغائر الأمور سنجعله عظيمًا بين الناس».

ابتسم لها چون ابتسامة لم تسلم من نبرة سخرية بل وشيء من الخبث، رغم العرفان الحيي بالجميل الذي كانت تعني التعبير عنه. لكن الأخت برايس لم تر ذلك، مما عمَّق من إحساس چون الكامن بالسخرية.

«ألم يشارككما أحد في تنظيف الكنيسة؟» سألتهما الأخت ماكندلس بابتسامة مربكة – ابتسامة نبي يُبصر الأسرار الدفينة في قلوب البشر.

أجابها إليشا: «يا إلهي، يبدو أيها الأخت ماكندلس أنه ليس هناك سوانا نحن الاثنين دائمًا. لا أدري ماذا يفعل باقي الشبان في ليالي السبت، لكنهم لا يقتربون من هنا أبدًا».

كان إليشا عادة لا يأتي إلى الكنيسة في أمسيات السبت، لأنه ابن أخت القس ومسموحًا له بقدر من الحريات؛ لذا كان تفضلاً منه أن يأتي أصلاً.

علقت الأخت ماكندلس: «من المؤكد أنه قد آن الأوان لكي نقيم إحياءً بين شبابنا الصغير، شيء فظيع أن يفقدوا حماسهم. ولن يبارك الرب أي كنيسة تهمل صغارها حتى

يصيروا لا مبالين. فالرب يقول لأنك لست باردًا ولا حارًا سأتقيؤك من فمي. هذه هي الكلمة المقدسة». تلفتت حولها في تجهم، فأومأت الأخت برايس برأسها.

قال إليشا: «وها هو الأخ چوني لم ينل خلاصه بعد، فيبدو الأمر وكأن شباب الكنيسة الذين نالوا خلاصهم يعز عليهم أن يصبح أكثر إيمانًا منهم في بيت الرب».

قالت الأخت برايس بابتسامة ظافرة: «قال الرب أولون يكونون آخرين وآخرون أولين».

صدقت الأخت ماكندلس على كلامها: «حقًا، لقد قال الرب ذلك، هذا الصبي سوف يشق طريقه إلى مملكة الرب قبل كل الشباب، فلتنتظر وسترى».

قال الأخ إليشا، وهو يبتسم لجون: «آمين».

سألت الأخت ماكندلس بعد برهة: «هل سيأتي الأب ليصحبنا الليلة؟»

تجهم إليشا ومد شفته السفلى، قائلاً: «لا أظن ذلك، يا أختاه، أعتقد أنه سوف يبقى بالمنزل ليحتفظ بقوته لقداس الصباح. لقد كان الرب يتحدث إليه في رؤى وأحلام فلم ينل كفايته من النوم مؤخرًا».

قالت الأخت ماكندلس: «نعم، من المؤكد أنه رجل ورع. لا يسهر كل راعٍ أمام الرب من أجل قطيعه مثل الأب چيمس».

قالت الأخت برايس في حيوية: «إنها الحقيقة، لقد باركنا الرب بهذا الراعي الطيب».

أضافت الأخت ماكندلس: «وهو شديد الصرامة أحيانًا، ولكن كلمة الرب صارمة أيضًا. فطريق القداسة ليس هزلاً».

قال إليشا مبتسمًا: «لقد جعلني أدرك ذلك».

حملقت الأخت ماكندلس فيه. ثم ضحكت صائحةً: «يا ربي، أنا متأكدة من قولك هذا!»

قالت الأخت برايس: «وأنا أحبه لهذا السبب، فليس كل قس يوبخ ابن أخيه أمام الكنيسة كلها. وإليشا لم يرتكب خطأً جسيمًا».

علقت الأخت ماكندلس: «ليس هناك ما يمكن أن نسميه خطأً صغيرًا أو كبيرًا. فما أن يضع إبليس قدمه على الباب، لن يهدأ حتى يستقر في الحجرة. فإما إنك مع الكلمة المقدسة أو لا؛ لا يوجد طريق وسط مع الرب».

بعد حين، سألت الأخت برايس في تردد: «هل تعتقدين أنه ينبغي أن نبدأ الآن؟ لا يبدو لي أن أحدًا آخر سيأتي».

قالت الأخت ماكندلس لإليشا ضاحكة: «والآن لا تجلس هكذا وأنت على هذا القدر من قلة الإيمان. أعتقد أن الرب سيعطينا قداسًا عظيمًا الليلة». ثم التفتت إلى چون وقالت: «ألن يأتي أبوك الليلة؟»

أجابها چون: «بلى يا سيدتي، لقد قال إنه سيأتي».

«حسنًا!» قالت الأخت ماكندلس. «وأمك – هل ستأتي أيضًا؟»

قال چون: «لا أعرف، إنها مرهقة للغاية».

قالت الأخت ماكندلس: «لا أظن أنها مرهقة للحد الذي يمنعها من المجيء والصلاة قليلاً».

شعر چون أنه يكرهها لبرهة، وراح يحملق في وجهها البدين الأسود في غضب. قالت الأخت برايس:

«أتعجب كيف تعمل هذه المرأة بهذا الجد، وترعى هؤلاء الأطفال بحيث يبدون على هذا القدر من النظافة والتأنق، وتذهب إلى بيت الرب كل يوم تقريبًا. لا يمكن أن يتم كل هذا ما لم يكن الرب يعينها».

قالت الأخت ماكندلس: «أعتقد أنه ينبغي أن نغني قليلاً، فقط على سبيل الإحماء. فأنا أكره أن أسير في كنيسة لا

يفعل الناس فيها شيئًا سوى الجلوس والكلام. يبدو لي الأمـر وكأنه يستنزف روحي».

قالت الأخت برايس: «آمين».

بدأ إليشا أغنية «قد تكون هـذه آخـر مـرة لي»، وشرعـوا جميعًا في الغناء:

«قد تكون هذه آخر مرة معك أصلي،

قد تكون هذه آخر مرة لي، لا أدري».

وبينما كانوا يغنون، كانت أيديهم تصفق، ورأى چـون أن الأخت ماكندلس كانت تنظر حولها بحثًا عـن دف. فـنهض وصعد درجات المنبر، وأخذ ثلاثة دفوف من الفتحة الـصغيرة الموجودة في قاع المنبر. وأعطى واحدًا للأخت ماكندلس، التي أومأت برأسها وابتـسمت، دون أن تكـسر إيقاعهـا، ووضـع چون بقية الدفوف عـلى أحـد المقاعـد بـالقرب مـن الأخـت برايس.

«قد تكون هذه آخر مرة معك أغني»

«قد تكون هذه آخر مرة لي، لا أدري».

راح چـون يـرقبهم وهـو يغنـي معهـم – لأنهـم كـانوا سيرغمونه على الغناء ما لم يفعل – محاولاً ألا يـسمع الكلـمات التي كان يخرجها قسرًا من حلقه. وفكر في أن يصفق، لكنـه لم

يستطع؛ وظلت يداه مضمومتين في حجره. وإذا لم يُغَنِ معهم كانوا سيضغطون عليه، لكن قلبه أخبره أنه ليس من حقه أن يغني أو يفرح.

آه، قد تكون

هذه آخر مرة لي

قد تكون

هذه آخر مرة لي

آه، قد تكون

هذه آخر مرة لي

وراح چون يرقب إليشا، الذي كان أحد الشبيبة في الرب؛ وقسًا من طائفة ملكي صادق، الذي أوتي قوة على الموت والجحيم. لقد رفعه الرب، وهداه، ووضع قدميه على الطريق المشرق. ماذا كانت أفكار إليشا عندما يحل الليل، ويكون وحده حيث لا تراه عين، ولا يدلي لسان بشهادة إلا لسان الرب المدوي كالبوق؟ هل كانت أفكاره، وفراشه، وجسده في الدنس؟ ماذا كانت أحلامه؟

«قد تكون هذه آخر مرة لي،

فأنا لا أدري».

انفتح الباب من خلفه وتدفق الهواء الشتوي. استدار ليرى أباه وأمه وعمته يدخلون من الباب. لم يصدمه إلا حضور عمته، لأنها لم تدخل هذه الكنيسة من قبل: بدا وكأنها أُستدعيت لتشهد حدثًا دمويًا. بدا ذلك على محياها، الذي اعتراه ذلك الهدوء الرهيب، وهي تسير على ممشى الكنيسة خلف أمه ثم عندما انحنت للحظة بجانب أمه وأبيه للصلاة. أدرك چون أن يد الرب هي التي قادتها إلى هذا المكان، صار قلبه باردًا. فالرب يمتطي الريح الليلة. ما الذي يمكن أن تبوح به الريح قبل حلول الصباح؟

الجزء الثاني

صلوات القديسين

وَصَرَخُوا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ، قَائِلِينَ،
حَتَّى مَتَى أَيُّهَا السَّيِّدُ، الْقُدُّوسُ وَالْحَقُّ،
لاَ تَقْضِي وَتَنْتَقِمُ لِدِمَائِنَا
مِنَ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْض؟

صلاة

فلورنس

1

للجميع يأتي بالنور والحياة،

وقد أشرق بالشفاء في جناحيه!

رفعت فلورنس صوتها بالأغنية الوحيدة التي تتذكرها والتي اعتادت أمها أن تغنيها:

«هذا أنا، هذا أنا، هذا أنا يا إلهي،

أقف وبي حاجة للصلاة».

استدار جبريل ليحملق فيها، مندهشًا في زهوة انتصاره أن أخته قد أُذِلَّت أخيرًا. لم تنظر إليه. كانت كل أفكارها منصبة على الرب. بعد برهة، انضم إليها جموع المصلين والبيانو:

«ليس أبي، ولا أمي،

بل هذا أنا، يا إلهي».

كانت تعرف أن جبريل مبتهج، ليس لأن خشوعها قد يقودها إلى النعمة، ولكن لأن ألمًا ما بداخلها أرغمها على الضراعة: كشفت أغنيتها أنها تعاني، وكان أخوها سعيدًا أن يرى ذلك. لقد كانت هذه مشاعره ذاتها. لم يغيرها شيء؛ ولن يغيرها أي شيء أبدًا. للحظة أُستنفر كبرياؤها؛ وتعثرت الإرادة التي أحضرتها إلى هذا المكان، وشعرت أنها تفضل أن تموت وتتحمل الجحيم لأبد الآبدين على أن تنحني أمام مذبح جبريل، حتى وإن كان مسيح الرب. ولكنها خنقت كبرياءها، ونهضت لتقف معهم في الفضاء المقدس أمام المذبح، وهي تغني:

«أقف وبي حاجة للصلاة».

وعندما خرت راكعة كما لم تركع في حياتها لسنوات طويلة، وبين هذه الصحبة أمام المذبح، استعادت من الأغنية ذلك المعنى الذي كانت تنطوي عليه لأمها، ومعنى جديدًا لنفسها. في طفولتها كانت الأغنية تجعلها ترى امرأة، مسربلة بالسواد، تقف وحدها في ضباب لا نهائي، تنتظر تجلي ابن الرب ليقودها عبر تلك النيران البيضاء. الآن عادت إليها تلك المرأة مرة أخرى، أكثر وحدة وحزنًا؛ كانت هي نفسها تلك المرأة، لا تعرف أين تضع قدمها؛ كانت تنتظر، مرتعشةً، أن ينقشع الضباب حتى تسير في سلام. هذا الطريق الطويل،

حياتها، الذي قطعته لمدة ستين عامًا من الأنين، انتهى بها أخيرًا إلى نقطة البداية التي انطلقت منها أمها، انتهـي بهـا إلى مـذبح الرب. كانت قدماها تقفان على حافة النهر الذي عبرته أمها في ابتهـاج. هـل سيمد الـرب يـده الآن إلى فلـورنس ويـشفيها ويخلصها؟ ولكن خطر لها، وهي تركع أمام المفرش القرمـزي عند قدم الصليب الذهبي، أنها نسيت كيف تصلي.

كانت أمها قد علمتها أن الطريقة الصحيحة للصلاة هي أن تنسى كل الأشياء وكل الأشخاص عـدا يـسوع؛ أن تُفـرِغ قلبك، كما يُفرَغ الدلو من الماء، من كل الأفكار الشريرة، وكل الأفكار عن الذات، وكل الأحقاد تجـاه الأعـداء؛ أن تقـف في جرأة، وفي الآن نفسه في تواضع يفوق تواضع الطفل الصغير، أمام واهب كل الأشياء الطيبة. رغـم ذلـك كانـت الكراهيـة والمرارة تثقلان قلب فلورنس الليلة كالجرانيت، وأبى الكبرياء أن يتنازل عن العرش الذي اعتلاه لفترة طويلة. فلا الحب ولا الخشوع هما اللذان قاداها إلى المذبح، بل الخوف فقط. والـرب لا يسمع صلوات الخـائفين، لأن قلـوب الخـائفين خلـو مـن الإيمان. وتلك الصلوات لا تملك أن تصعد أعـلى مـن الـشفاه التي نطقت بها.

من حولها سمعت أصـوات القديـسين، تمـتمات متـواترة مشحونة، يرتفع خلالهـا اسـم يـسوع بـين الفينـة والأخـرى،

أحيانًا كطائر يحلق سريعًا في فضاء يوم مشمس، وأحيانًا كضباب يتصاعد ببطء من أرض سبخة. هل هذه هي الطريقة الصحيحة للصلاة؟ في الكنيسة التي التحقت بها عندما قدمت للشمال كان المرء يسجد في البداية مرة واحدة فقط أمام المذبح ليطلب الغفران لخطاياه؛ وما أن يتم ذلك، يتم تعميده ويصبح مسيحيًا، ولا يسجد بعد ذلك البتة. حتى وإن ألقى الرب على كاهل المرء بحمل ثقيل – كما فعل معها من قبل ولكن ليس كحملها الثقيل الذي تحمله الآن – كان المرء يصلي في صمت. كان الصراخ العالي عند قدم المذبح وانهمار الدموع على مرأى من العالم أجمعه طقسًا مشينًا يمارسه عامة الزنوج. ولكن فلورنس لم تمارسه أبدًا، ولا حتى وهي فتاة صغيرة في موطنها بالجنوب في الكنيسة التي كانوا يترددون عليها في تلك الأيام. ربما فات الأوان الآن، وسوف يدعها الرب لتموت في الظلمة التي عاشت فيها حقبة طويلة.

في سالف الزمان أبرأ الرب أطفاله. فجعل العميان يبصرون، والعُرجان يمشون، وأقام الموتى من القبور. لكن فلورنس تذكرت عبارة واحدة فقط، أخذت تتمتم بها من بين أصابعها التي أدمت شفتيها: «يا إلهي خلصني من الضلال».

لقد تلقت فلورنس نفس الرسالة التي تلقاها حَزَقِيَا: أوصِ بيتك لأنك تموت ولا تعيش. لليالٍ عديدة خلت كانت

هذه الرسالة تأتيها وهي تتقلب في فراشها. لأيام ولليالٍ ظلت الرسالة تتكرر؛ لقد كان ثمة وقت، حينذاك، للعودة إلى الرب. لكنها كانت تفكر في اجتنابه، وتبحث بين معارفها من النساء عن دواء؛ وعندما اشتد بها المرض، سعت إلى الأطباء؛ وعندما باء الأطباء بالفشل راحت تسعى في كل أنحاء المدينة إلى غرف يحترق فيها البخور حيث أعطاها الرجال والنساء الذين يتعاملون مع الشيطان مساحيق بيضاء، أو أعشابًا لعمل الشاي، وألقوا بالتعاويذ عليها لينتزعوا المرض منها. ولكن الحرقة التي في أحشائها لم تتوقف – تلك الحرقة التي كانت تنخر داخلها، أتت على اللحم الذي يكسو عظامها بصورة جلية وجعلتها تتقيأ طعامها. وذات ليلة وجدت الموت يقف ببابها. أسود من الليل البهيم، عملاقًا، يسدُ ركنًا من غرفتها الضيقة، ويرقبها بعينين كعيني الحية عندما ترفع رأسها لتلدغ. عندئذ صرخت إلى الرب ضارعة ثم أضاءت النور. فرحل الموت، لكنها أدركت أنه سيعاود أدراجه. كل ليلة ستقربه قليلاً من فراشها.

بعد تلك الزيارة الأولى الصامتة التي قام بها الموت لها، تراءت حياتها أمام فراشها تلعنها بأصوات عديدة. فأتت أمها، في أسمال بالية وهي تملأ الغرفة برائحة القبر، ووقفت فوقها تلعن الابنة التي أنكرتها على فراش الموت. وأتى

جبريل، عبر كل أزمانه وأعماره، ليلعن الأخت التي احتقرته وسخرت من مكانته الكهنوتية. وأتت ديبورا، سوداء، جسدها لا شكل له صلب كالحديد، تنظر بعينين غائمتين منتصرتين، وهي تلعن فلورنس التي سخرت من ألمها وعيرتها أنها عاقر. حتى فرانك نفسه أتى، بنفس الابتسامة، ونفس الميل في رأسه. وكان هو الوحيد من بينهم جميعًا الذي كانت لتطلب غفرانه لو أتوا إليها بآذان مصغية. لكنهم أتوا كأبواق كثيرة؛ حتى وإن أتوا لينصتوا وليس ليشهدوا. لم يكونوا هم من بيدهم الغفران، بل بيد الرب وحده.

سكن البيانو. والآن لم يكن يتصاعد من حولها سوى أصوات القديسين.

«أبانا العزيز» – كانت أمها تصلي – «لقد أتينا أمامك ساجدين هذا المساء لنسألك أن تحفظنا وترد يد الملاك المهلك. يا إلهي، انثر دم الحمل على عتبة هذا البيت حتى تبعد عنه شرار الناس. يا إلهي، إننا نصلي لكل ابن وابنة في كل أرجاء المعمورة ولكن نسألك أن تولي هذه البنت الموجودة هنا الليلة عناية فائقة، يا رب، وابعد عنها كل أذى. نعلم أنك على هذا لقدير، يا رب، باسم المسيح، آمين».

كانت هذه أول صلاة تسمعها فلورنس، الصلاة الوحيدة على الإطلاق التي سمعت فيها أمها تدعو الرب لحماية ابنتها

بحماس أكبر من الحماس التي دعت بـه لابنهـا. كـان الوقـت ليلاً، وقد أُغلقت النوافذ بإحكام وأُسدلت الستائر ، وأزيحت المائدة الكبيرة لتسد الباب. وكانت مصابيح الكيروسين ترسل ضوءًا خافتًا وترسم ظلالاً كبيرة على الجـدران المغطـاة بـورق الجرائد. كانت أمها راكعة في وسط الغرفة، في ثوبهـا الطويـل الكالح المنعدم الشكل، الذي كانت ترتديه طوال أيام الأسبوع باستثناء يوم الأحد، حيث كانت ترتدي ثوبًا أبـيض؛ رأسـها معصوب بمنديل قرمزي، ويداها مضمومتان تتهدلان أمامها، ووجههـا الأسـود مرفـوع، وعيناهـا مغلقتـان. كـان الـضوء الخافت المهتز يُلقي ظلالاً تحت فمها وفي محجريها، مضفيًا على الوجه جلالاً فبدا جامدًا كوجه نبيٍ، أو كقناعٍ. ساد الـصمت الغرفة بعد «آمين» التي نطقت بها، وفي الصمت سمعوا، بعيدًا على الطريق، صوت حوافر حـصان. لم يتحـرك أحـد. تطلـع جبريل، من الركن الذي كان يقف فيه بالقرب من الموقـد، إلى أمه وراح يرقبها.

قال جبريل: «لست خائفًا».

التفتت أمه، رافعة إحدى يديها. «فلتصمت الآن!»

اجتاحت الاضطرابات البلـدة اليـوم. في الليلـة الـسابقة اختطف عدد من الرجال البيض جارتهم ديبورا، التـي كانـت تبلغ من العمر ستة عشر عامًا، وتصغر فلورنس بثلاثة أعوام،

واقتادوها إلى الحقول حيث فعلوا بها ما دفعها للعويل وسبب لها نزيفًا. واليوم ذهب أبوها إلى منزل أحد البيض، وهدد بقتله هو وكل من سيلقاهم من البيض. أوسعوا الأبيض ضربًا وتركوه بين الحياة والموت. والآن، أغلق الجميع أبوابهم، واستغرقوا في الصلاة والانتظار، فقد قيل إن البيض سيضرمون النيران الليلة في كل البيوت، كما فعلوا من قبل.

في الليل المحدق بالخارج لم يسمعوا سوى حوافر الحصان، التي لم تتوقف؛ لم يسمعوا الضحك الذي كان يمكن أن يرتفع لو كان هناك جمع كبير قادم على الطريق، ولا الشتائم، ولم يسمعوا من يطلب الرحمة من البيض، أو من الرب. كانت دقات الحوافر تقترب من الباب ثم تمضي، ثم ينصتون إليها وهي تتخافت مبتعدة. حينئذ أدركت فلورنس كم كانت خائفة. وشاهدت أمها وهي تنهض وتمشي نحو النافذة. ثم تمعن النظر من إحدى زوايا البطانية التي كانت تغطي النافذة.

قالت: «لقد رحلوا أيًا من كانوا». ثم أردفت: «تبارك اسم الرب».

وهكذا عاشت أمها وماتت؛ كم من المرات ابتلاها الرب، لكنه لم يهجرها أبدًا. كانت دائمًا تبدو لفلورنس أسن امرأة في العالم، لأنها كانت في كثير من الأحيان تتكلم عن

فلورنس وجبريل باعتبارهما أطفال شيخوختها، وأنها وُلِدت من سنوات بعيدة لا تُحصى، في عصر العبودية، في أحد المزارع في ولاية أخرى. في تلك المزرعة كبرت كإحدى العاملات في الحقول، لأنها كانت فارعة الطول قوية البنيان؛ وسرعان ما تزوجت وأنجبت أطفالاً، أُنتزعوا منها جميعًا، أحدهم انتزعه المرض واثنان بيعا في مزاد العبيد؛ وآخر، لم يُسمَح لها أن تدعوه طفلها، حيث نشأ في بيت السيد الأبيض. وعندما صارت امرأة ناضجة، بعد تجاوزها الثلاثين وفقًا لحساباتها، وكانت قد وارت زوجًا التراب – ولكن السيد أعطاها زوجًا آخر – اجتاحت جيوش الشمال الجنوب، وأعملت النهب والسلب وأشعلت الحرائق لكي تحررهم. كان ذلك استجابة لصلوات المؤمنين، التي لم تتوقف عن الصراخ، آناء الليل وأطراف النهار، طلبًا للخلاص.

كانت إرادة الرب أن يسمعوا ويرووا لبعضهم البعض بعد ذلك قصة أبناء اليهود الذين كانوا ينوءون تحت نير العبودية بأرض مصر؛ وكيف سمع الرب أناتهم، وتأثر قلبه؛ وكيف أمرهم أن يتحلوا بالصبر حتى يبعث لهم بالخلاص. كانت أم فلورنس تعرف هذه القصة، على ما يبدو، منذ يوم ولادتها. فطوال حياتها – عندما كانت تستيقظ في الصباح قبل بزوغ الشمس، وعندما كانت تقف وتنحني في الحقول

والشمس في كبد السماء، وعندما كانت تعبر الحقول نحو المنزل والشمس تغرب عند بوابات السماء بعيدًا، مستمعة إلى صوت صفارة رئيس العمال وصيحته الغريبة عبر الحقول؛ في ابيضاض الشتاء عندما تذبح الخنازير والديوك الرومي والإوز، وتتوهج الأضواء ساطعة في البيت الكبير، وترسل باتشيبا الطباخة قطعًا من لحم الخنزير والدجاج والكعك المتبقي من السادة البيض - في كل ما كان يحدث: في أفراحها، وهي تدخن غليونها في المساء، ومع زوجها في الليل، وهي ترضع الأطفال، وتعلمهم أولى خطواتهم الصغيرة؛ وفي أتراحها، في الموت، وفي الفراق، وتحت ضربات السياط، لم تنس أبدًا الوعد بالخلاص وأنه قادم لا محالة. كل ما عليها هو أن تتجمل بالصبر وتؤمن بالرب. كانت تعرف أن البيت الكبير، بيت الكِبْر حيث يعيش السادة البيض، سوف يتهاوى: ذلك مكتوب في كتاب الرب. فهؤلاء الذين يسيرون في خيلاء الآن، لم يبنوا لأنفسهم أو لأبنائهم أساسًا وطيدًا كما فعلت هي. كانوا يسيرون على شفا جرف هارٍ وهم لا يبصرون - ولسوف يسقطون بأمر الرب، كما سقط قطيع الخنازير ذات مرة، في البحر. لكل هذه الأسباب كانوا يتمتعون بالجمال، وينعمون بأسباب الراحة، كانت تعرفهم، وترثى لهم، فلا حافظ لهم عندما يحين اليوم العظيم الذي ينزل الرب فيه غضبه.

ومع ذلك، كانت تقول لأطفالها إن الرب عادل، وإنه لا ينزل ضربته بعبيده إلا بعد أن يرسل إليهم النذر الكثيرة. الرب يمهل البشر، ولكن الوقت كله ملك يديه، وذات يوم ستنتهي المهلة لهجر المعاصي وفعل الخير: ثم لا شيء إلا العاصفة، والموت الذي يمتطيها، جزاءً لأولئك الذين نسوا الرب. طوال عمرها وهي تكبر يومًا بعد يوم، لم تنقطع النذر. «لقد هب العبيد»، كان الهمس ينتشر في الكوخ وعلى بوابة السيد: أحرق العبيد بيوت الأسياد وحقولهم في ولاية أخرى وهشموا أطفالهم على الصخور حتى الموت. «عبد آخر في الجحيم»، قد تقول باتشيبا ذات صباح، وهي تصيح بالأطفال السود لكي يبتعدوا عن الشرفة الكبيرة: قتل عبد سيده، أو المشرف عليه، وهوى في الجحيم جزاء ما فعل. «لن أبقى طويلاً هنا»، كان أحدهم يتمتم بجانبها في الحقول، ويفر في الصباح مرتحلاً إلى الشمال. كل هذه النذر، كالأوبئة التي ابتلى بها الرب مصر، لم تؤد إلا إلى تحجر قلوب هؤلاء السادة ضد الرب. وظنوا أن السوط سيخلصهم، فلجئوا إليه؛ أو إلى السكين، أو المشنقة، أو مزاد البيع؛ وظنوا أن العطف قد ينقذهم، فنزل السيد والسيدة إلى أكواخ العبيد وهم يبتسمون، ويلاطفون الأطفال ويحملون الهدايا. كانت تلك الأيام رائعة، وبدا الجميع، سودًا وبيضًا، في سعادة معًا. ومع ذلك فعندما تخرج الكلمة من فم الرب فلا راد لها.

تحققت كلمة الرب ذات صباح، قبل أن تستيقظ. لم يعن كثير من القصص التي حكتها أم فلورنس لها أي شيء؛ لقد فهمت هذه الحكايات على ما هي عليه، مجرد حكايات تحكيها امرأة سوداء عجوز في أحد الأكواخ في المساء لتلهي أطفالها عن البرد والجوع. ولكنها لم تنس أبدًا حكاية ذلك اليوم؛ إنه اليوم الذي عاشت لأجله. كان هناك هرج ومرج عظيمان في كل مكان بالخارج، كما قالت أمها، وعندما فتحت عينيها على نور صباح ذلك اليوم، وكان شديد السطوع والبرودة، كانت على يقين أنه قد نفخ في صور يوم الحساب. وبينما هي جالسة في مكانها لم تبرحه، وقد استبدت بها الدهشة، وراحت تسائل نفسها عن أفضل ما يمكن أن يفعله المرء في يوم القيامة، اندفعت باتشيبا وفي أعقابها كثير من الأطفال والزنوج الذين يعملون في الحقول ويخدمون في المنازل وهم يتقافزون، ويصيحون ومعهم باتشيبا: «انهضي، انهضي، يا أخت راشيل، وشاهدي خلاص الرب! لقد أخرجنا من مصر، كما وعد، وها نحن أخيرًا أحرار!» جذبتها باتشيبا، والدموع تسيل على وجهها؛ فخرجت راشيل في ملابس النوم إلى الباب لتنظر إلى اليوم الجديد الذي منحهم الرب إياه. في ذلك اليوم رأت بيت الكبرياء ذليلاً؛ رأت الحرير الأخضر والقطيفة الخضراء تتطاير من النوافذ، والحديقة يدهسها كثير من الرجال على ظهور الجياد، والبوابة الكبيرة مفتوحة على مصراعيها. كان السيد

والسيدة وأقاربها وطفل واحد من رحمها في ذلك البيت الذي لم تطأه. وسرعان ما تنبهت إلى أنه ليس هناك ما يدعوها لأن تبقى هنا. حزمت أشياءها في خرقة كانت تضعها على رأسها، وخرجت من البوابة، بلا عودة لتلك الديار إلى الأبد.

وأصبح هذا غاية طموح فلورنس: أن تخرج ذات صباح من باب الكوخ على ألا تعود أبدًا. فوالدها الذي لا تتذكره إلا لمامًا قد رحل من نفس الطريق ذات صباح بعد ولادة جبريل بأشهر قليلة. ليس والدها فحسب؛ فكل يوم تسمع عن رجل أو امرأة قال وداعًا لتلك الأرض والسماء الحديديتين، وبدأ رحلته نحو الشمال. ولكن أمها لم تراودها الرغبة أبدًا في الرحيل إلى الشمال حيث يجوب الشر والموت الشوارع. كانت راضية بعيشتها في ذلك الكوخ والعمل كغسالة لدى البيض رغم تقدمها في السن وظهرها المتوجع. وكانت تريد لفلورنس أيضًا أن تكون راضية – وتساعدها في الغسيل والطبيخ وهدهدة جبريل.

كان جبريل قرة عين أمه. ولو لم يولد لكانت فلورنس قد تطلعت إلى اليوم الذي تُعتق فيه من دوامة العمل المضني، وكانت حينذاك قد تفكر في مستقبلها وتنطلق لتحقيقه. ولكن ذلك المستقبل ذهب أدراج الرياح مع مولد جبريل عندما كانت هي في الخامسة من عمرها. كان ثمة مستقبل واحد في

ذاك المنزل، ألا وهو مستقبل جبريل - وكل ماعدا ذلك كان فداء له مذ كان طفلاً. لم تنظر أمها إلى الأمر باعتباره فداء، بل باعتباره من دواعي المنطق: ففلورنس عما قريب ستتزوج، وتنجب أطفالاً، وتضطلع بواجباتها كامرأة؛ ومن ثم فحياتها في الكوخ خير إعداد ممكن لحياتها في المستقبل. ولكن جبريل كان رجلاً؛ وسوف يخرج إلى العالم ذات يوم ليقوم بما يقوم به الرجال، ولذا فهو يحتاج إلى أكل اللحم إذا وُجد بالمنزل، وإلى الملابس إذا أمكن شراؤها، وإلى التدليل المفرط من قبل النساء، حتى يعرف كيف يتعامل معهن عندما تكون له زوجة. وهو يحتاج إلى التعليم الذي كانت فلورنس ترغبه أكثر منه، والذي لعلها كانت ستحظى به لو لم يولد كان جبريل هو من يُصفَع ويُحمَّم كل صباح ويُرسَل إلى المدرسة المكونة من غرفة واحدة التي كان يكرهها حيث لم يتعلم شيئًا كما اكتشفت فلورنس. وكثيرًا ما كان يهرب من المدرسة ويشاغب مع الأولاد الآخرين. فكل الجيران تقريبًا، بل وبعض البيض، كانوا يأتون من وقت لآخر ليشكوا من سوء سلوكه. فكانت أمها تخرج إلى باحة المنزل وتقطع فرعًا من شجرة وتظل تضربه وتضربه، حتى يخيل لفلورنس أنه لو تعرض ولد آخر لمثل هذا الضرب لسقط صريعًا، أو لارتدع عن سوء مسلكه من تكرار الضرب. لم يكن هناك رادع لجبريل، رغم أن صراخه كان يجعل السماء تزأر، ورغم أنه كان يصيح بأعلى صوته عندما

تقترب أمه منه بأنه لن يكون ذلك الولد الفاسد كرة أخرى. وبعد أن تفرغ من ضربه تجعله يركع بينما هي تصلي، ويكون سرواله مازال متدليًا حول ركبتيه والدموع والمخاط يبللان وجهه. كانت تطلب من فلورنس أن تصلي أيضًا، ولكن فلورنس في قرارة قلبها لم تصلِ أبدًا. كانت تأمل أن يُدق عنق جبريل. وأن ينزل به ذات يوم الأذى الذي كانت أمهما تدعو الرب أن يحفظه منه.

في تلك الأيام كانت فلورنس وديبورا، وقد جمعتهما أواصر الصداقة بعد حادثة ديبورا، يكرهان كل الرجال. فعندما كان الرجال ينظرون إلى ديبورا لم يروا أبعد من جسدها القبيح المنتهك. وفي أعينهم كان يقبع دائمًا سؤال شبق قلق عما حدث لها في تلك الليلة التي اقتيدت فيها للحقول. تلك الليلة سلبتها الحق في أن يُنظَر إليها كامرأة. فلم يجرؤ رجل أن يقترب إليها بشرف لأنها كانت وصمة عار على نفسها وعلى جميع السود نساء ورجالاً. ولعلها، لو لم تكن عاطلة من الجمال وحباها الرب بروح غاية في الحياء، كانت قد استمتعت، في لذة ساخرة، بذلك الاغتصاب في الحقول إلى الأبد. فطالما لم يكن بالإمكان النظر إليها كامرأة، فلا مفر من النظر إليها كعاهرة، كمصدر للذةٍ أكثر حيوانية وغموضًا أشد تأثيرًا مما يمكن أن تمنحه أية امرأة فاضلة. كانت الشهوة تتأجج في

عيون الرجال عندما ينظرون إلى ديبورا، شهوة لا يمكن تحملها لأنها كانت تفتقد للطابع الشخصي وتقصر التواصل على حيز العار الذي تحمله. أما فلورنس، التي كانت تحظى بالجمال ولا تنظر بعين الرضا إلى أي رجل أسود من الذين كانوا يشتهونها، ولا ترغب في أن تستبدل كوخ أمها بواحد من أكواخ أولئك الرجال وتربي أولادهما وتنتهي، بعد أن ينهكها الكدح، إلى ما يشبه القبر العمومي، فقد دعمت في ديبورا ذلك اليقين الرهيب الذي لم تكن ثمة أية بينة لتنقضه: وهو أن كل الرجال على هذه الشاكلة، لا تسمو أفكارهم أعلى من ذلك، ولا يعيشون إلا لكي يشبعوا رغباتهم الحيوانية المهينة من أجساد النساء.

في يوم من أيام الآحاد في أحد الملتقيات التبشيرية التي كانت تعقد في الخلاء عندما كان جبريل في الثانية عشرة ويتوجب تعميده، كانت ديبورا وفلورنس تقفان على ضفة نهر مع كل المتجمعين في المخيم ترقبانه. لم تكن لدى جبريل رغبة في أن يُعمّد. فقد أرعبته الفكرة وأثارت غضبه، ولكن أمه أصرت على أنه قد أصبح بالغًا وعليه أن يتحمل مسئولية خطاياه أمام الرب – وأنها لن تحيد عن الواجب الذي وضعه الرب في عنقها بأن تفعل ما بوسعها لتقوده إلى عرش النعمى. على ضفة النهر، تحت وهج الظهيرة القائظ، كان المؤمنون

الذين اعترفوا بخطاياهم والأطفال الذين في عمر جبريل ينتظرون أن يصحبوا إلى الماء. في وسط النهر كان الكاهن يُرَى في ملابسه البيضاء والماء يغطيه حتى خصره وكان يمسك برؤوسهم لبرهة قصيرة تحت الماء ويصيح باتجاه السماوات والمعمدون يحبسون أنفاسهم: «لقد عمدتكم بالماء حقًا: ولكن الرب سيعمدكم بالروح القدس». وعندما يخرجون مغمضي الأعين والزبد يتطاير من أفواههم يتم اصطحابهم للشاطئ، كان يصيح مرة أخرى: «اذهبوا ولا تأتوا الخطيئة بعد الآن». ويصعدون من الماء وهم يبدون تحت إمرة الرب، وعلى الضفة ينتظرهم القديسون، وهم يدقون دفوفهم. وعلى مقربة من الشاطئ كان مشايخ الكنيسة يقفون ممسكين بمناشف لتغطية المعمدين الجدد، الذين يصحبون بعد ذلك إلى خيمتين، واحدة للذكور وأخرى للإناث، حيث يغيرون ملابسهم.

وأخيرًا وقف جبريل على حافة الماء وهو يرتدي قميصًا قديمًا أبيض وسروالاً قصيرًا من الكتان. واصطحب على مهلٍ إلى النهر، ذلك المكان الذي كثيرًا ما كان ينزل إليه للهو وهو عارٍ، حتى بلغ الكاهن. وفي اللحظة التي رماه فيها الكاهن إلى الماء، وهو يصيح بكلمات يوحنا المعمدان، بدأ جبريل يرفس ويزبد، حتى كاد أن يطيح بالكاهن مفقدًا إياه توازنه؛ ورغم أنهم ظنوا في البداية أنها قوة الرب التي تعتمل بداخله، إلا أنهم

أدركوا عندما صعد من الماء، وهو لا يزال يرفس وعيناه مغلقتان بإحكام، أن ذلك لم يكن إلا من شدة الغضب، ومن الماء الكثير الذي دخل أنفه. كان الحنق قد استبد بفلورنس، قبل ذلك بسنوات، عندما دخل الماء الموحل فمها المفتوح في غفلة، إلا أنها بذلت قصارى جهدها لكيلا يتطاير الزبد من فمها أو تصرخ. ولكن ها هو جبريل قد خرج من الماء وهو يتعثر ويرغي حنقًا، كان ما نظرت إليه وأثار فيها غضبًا عنيفًا لم تشعر به من قبل البتة هو جسده العاري. كان جبريل مبللاً تلتصق ملابسه البيضاء الشفافة بجسده الأسود كأنها جلد آخر. راحت فلورنس وديبورا تنظران إلى بعضهما البعض، بينما الغناء يتصاعد ليطغى على زعيق جبريل، ثم أشاحت ديبورا بوجهها بعيدًا.

بعد ذلك بسنوات، كانت ديبورا وفلورنس تقفان في شرفة منزل ديبورا ذات ليلة وشاهدتا جبريل في صورة أخرى وهو يترنح صاعدًا الطريق الذي غمره ضوء القمر وجسده غارق في القيء. صاحت فلورنس: «كم أكرهه! كم أكرهه! هذا الزنجي الحقير، الضخم الداعر!» فتقول لها ديبورا بصوتها الثقيل: «تعرفين يا عزيزتي أن الإنجيل يأمرنا أن نكره الخطيئة وليس الخاطئ».

في عــام 1900، عنــدما كانــت فلــورنس في الــسادسة والعشرين من عمرها، خرجت من بـاب الكـوخ. فكـرت أن تنتظر حتـى تـدفن أمهـا التـي اشـتد عليهـا المـرض فألزمهـا الفراش. ولكنها أدركت أنها لـن تنتظـر أكثـر مـن ذلـك وأن الوقت قد حان للرحيل. كانت تعمل طباخة وخادمـة لعائلـة بيضاء كبيرة في المدينة، وفي اليـوم الـذي راودهـا سـيدها عـن نفسها لتصير عشيقته أدركت أن حياتها بين هؤلاء التعساء قد وصـلت إلى نهايتهـا المحتومـة. تركـت عملهـا في ذات اليـوم (مخلفة وراءها ضغينة زوجية شديدة)، و بجزء من النقود التي ادخرتها بالحيلة والقسوة والتضحية على مدار سنوات اشترت تذكرة قطار إلى نيويورك. وعندما اشترتها وهي تتميـز غيظًـا، كانت الفكرة التي ترددت في ذهنهـا كالطلـسم: «بإمكـاني أن أرجعها، بإمكاني أن أبيعها. هـذا لا يعنـي أن علـيّ الرحيـل». لكنها كانت تدرك أن لا شيء يمكن أن يوقفها.

وكانت صـورة هـذا الرحيـل هـي مـا أتـى فلـورنس في أخريات أيامها لتقف بجانب سريرهـا بـصحبة شـهود كُثـر. كانت الغيوم الكابية تحجب الشمس في ذلك اليـوم، وخـارج نافذة الكوخ كان الضباب مازال يغطي الأرض. كانـت أمهـا راقدة في الفراش مستيقظة؛ كانت تتجادل مـع جبريـل الـذي قضى ليلته السابقة في معاقرة الخمر، ولم يفق مـن سـكره بعـد،

ليصلح من سلوكه ويأتي إلى الرب. وقف جبريل أمام المرآة منحني الرأس يزرر قميصه، كانت مشاعر الاضطراب والألم والذنب تعصف به وتطبع شخصيته عندما يفكر أن أمه تعاني بسببه، ولكنه كان ينوء بتلك المشاعر عندما ترهقه هي بها. كانت فلورنس تعرف أنه لا يستطيع أن ينطق ببنت شفة؛ لا يملك أن يقول نعم لأمه، وللرب؛ ولا يملك أن يقول لا.

كانت أمهما تقول «يا حبيبي، لا تدع أمك العجوز تموت دون أن تنظر في عينيها وتخبرها أنها سوف تراك في المجد. هل تسمعني يا ابني؟»

تذكرت فلورنس في احتقار أن الدموع كانت تملأ عينيه في لحظة، وأنه كان يعدها بأن يكون «أفضل». لقد كان يعدها بأنه سيكون أفضل منذ اليوم الذي عمد فيه.

وضعت حقيبتها في وسط الحجرة الكريهة.

وقالت: «أمي، سوف أرحل هذا الصباح».

وما أن قالتها حتى استبد بها الغضب من نفسها لأنها لم تقل ذلك في الليلة السابقة، حتى يتسنى لهما الوقت لينتهيا من البكاء والجدال. لم تكن واثقة من قدرتها على الاحتمال في الليلة السابقة؛ أما الآن فليس هناك متسعًا من الوقت. كان عقلها مشغولاً بصورة الساعة الكبيرة البيضاء في محطة القطارات، التي لا تتوقف عقاربها عن الدوران.

«إلى أين تذهبين؟» سألتها أمها في حدة. لكنها كانت تعرف أن أمها قد فهمت، بل إنها كانت تفهم قبل تلك اللحظة بوقت طويل أن هذه اللحظة ستحين. والدهشة التي اعترتها وهي تحملق في حقيبة فلورنس لم تكن كلها دهشة، بل تنبه حذر مذعور. خطر يراود المخيلة وقد تجسد حاضرًا وحقيقيًا، ولكم حاولت أمها من قبل أن تكسر إرادة فلورنس. تذكرت فلورنس كل ذلك في لحظة وهو ما جعلها أقوى. راحت ترقب أمها منتظرة.

انتبه جبريل لنبرة صوت أمه، فلم يسمع تقريبًا ما أعلنته فلورنس. كان شديد الامتنان أن شيئًا ما قد حدث ليحول انتباه أمه عنه، ووقع بصره على حقيبة السفر الخاصة بفلورنس. فكرر سؤال أمه بصوت ذاهل غاضب، ولم يعِ كنهه إلا والكلمات تشق الهواء:

«نعم، يا بنت. إلى أين تذهبين؟»

قالت: «أنا ذاهبة إلى نيويورك، ولدي تذكرتي».

كانت أمها ترقبها. للحظة لم يفه أحد بكلمة. وبصوت مختلف يلفه الخوف سأل جبريل:

«ومتى قررت ذلك؟»

لم تنظر إليه ولم تجب على سؤاله. وواصلت مراقبتها لأمها. ثم قالت مكررة: «لدي تذكرتي، وسأرحل في قطار الصباح».

سألتها أمها في هدوء: «هل أنت واثقة أنك تعين ما تفعلينه؟»

تخشبت فلورنس وهي ترى في عيني أمها شفقة ساخرة. وقالت: «أنا امرأة راشدة وأعرف ما أفعله».

صاح جبريل، «وترحلين هذا الصباح – هكذا بكل بساطة؟ وتتركين أمك هكذا؟»

«أنت تسكت، فأنت لديها، أليس كذلك؟» قالت ذلك وهي تلتفت إليه لأول مرة.

أدركت عندما خفض بصره أن هذا هو الأمر المرير المزعج. فلم يكن ليتحمل فكرة بقائه وحيدًا مع أمه دونما شيء يحول بين نفسه وحبه المجلل بالذنب. برحيل فلورنس يكون الزمان قد ابتلع كل أبناء أمه، ما عداه هو وحده؛ ومن ثم يتحتم عليه هو أن يعوضها عن كل الآلام التي تحملتها، ويحلي لحظاتها الأخيرة بكل دلائل حبه. ولم تكن أمه تطلب منه إلا دليلاً واحدًا، وهو ألا يمعن طويلاً في الخطيئة. وبرحيل فلورنس، سيتقلص زمن تلعثمه ومراوغته وينحصر في لحظة الاستجواب، حينها يتحتم عليه أن يلملم شتات نفسه ويجيب أمه وكل حشود السماوات بنعم أو لا.

ابتسمت فلورنس في أعماقها ابتسامة صغيرة خبيثة وهي ترقب اضطرابه وفزعه وحنقه؛ ونظرت إلى أمها مرة أخرى. وكررت كلامها، «أنت لديها، وهي لا تحتاجني».

حينئذ قالت أمها: «هل ستذهبين للشمال، ومتى تنوين الرجوع؟»

قالت: «لا أنتوي الرجوع».

قال جبريل في حقد: «سرعان ما ستعودين باكية، بمجرد أن يسوطوا مؤخرتك هناك أربع أو خمس مرات».

نظرت إليه كرة أخرى. «هلا خرست إذن حتى ذلك الحين، هل تسمع؟»

قالت أمها: «بنت، هل تعنين أن تخبريني أن الشيطان قد طمس على قلبك فتتركين أمك في فراش الموت، ولا تعبئين إن كنت لن تريها بعد في هذا العالم؟ حبيبتي، لا تقولي لي إنك أصبحت شريرة بكل هذا القدر؟»

شعرت أن جبريل يراقبها ليرى كيف ستتلقى هذا السؤال – ذلك السؤال الذي كانت تخشى كل الخشية سماعه رغم عزمها الأكيد. أشاحت عن أمها، وشدت قامتها وحبست أنفاسها وهي تنظر عبر النافذة الصغيرة المواربة. في الخارج وراء الضباب الذي بدأ ينجاب وئيدًا، وفي الأفق بعيدًا عن مرمى بصرها، كانت حياتها تنتظرها. كانت المرأة الراقدة في السرير عجوزًا، تتلاشى حياتها مع الضباب المتلاشي. كانت تنظر إلى أمها باعتبارها في القبر؛ ولن تدع أيدي الموتى تخنقها.

قالت: «سوف أرحل يا أماه، لا بد أن أرحل».

استلقت أمها على ظهرها، ووجهها يتطلع إلى النور، وطفقت تبكي. تحرك جبريل إلى جانب فلورنس وأمسك بذراعها. نظرت إلى وجهه ورأت عينيه مغرورقتين بالدموع.

قال: «لا يمكن أن ترحلي، لا يمكن أن ترحلي. لا يمكن أن ترحلي وتتركي أمك في هذه الحالة. إنها بحاجة لامرأة لتعتني بها يا فلورنس. ماذا يمكنها أن تفعل وهي وحيدة تمامًا معي؟»

دفعته بعيدًا عنها وسارت لتقف بجانب فراش أمها.

قالت: «أماه، لا تبتئسي هكذا. لست شيئًا مباركًا لتبكيه كل هذا البكاء. ما يمكن أن يحدث لي في الشمال يمكن أن يحدث هنا. الرب في كل مكان، يا أمي فلا داعي للقلق».

كانت تعرف أنها تلوك الكلمات فقط؛ وأدركت فجأة أن أمها تربأ بنفسها عن أن تولي كلماتها تلك أي اهتمام. لقد سلمت أمها بانتصارها بسرعة كان لها أثرها في جعل فلورنس تتساءل رغم إرادتها وعلى نحو مبهم إن كان نصرها هذا حقيقيًا. لم تكن تبكي على مستقبل ابنتها، كانت تبكي على الماضي، وتبكي لألم ليس لفلورنس دور فيه. كل ذلك ملأ فلورنس بخوف رهيب، سرعان ما تحول إلى غضب. فقالت

وصوتها يرتعش بالخبث: «جبريل يمكن أن يعتني بكِ، ولن يتركك أبدًا. هل ستتركها يا ولد؟» راحت تنظر إليه.وهو يقف على مبعدة بوصات قليلة من الفراش، يبدو عليه الغباء في ذهوله وحزنه. قالت: «أما أنا فيجب أن أرحل». ثم سارت إلى وسط الغرفة مرة أخرى، وحملت حقيبتها.

همس جبريل لها: «يا بنت، أليس لديك أية مشاعر على الإطلاق؟»

«يا إلهي!» صرخت أمها؛ وانتفض قلب فلورنس لسماع الصوت؛ وحملقت هي وجبريل في الفراش ذاهلين. «يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي! اللهم ارحم ابنتي الخاطئة برحمتك! ومد يدك لتقيها عذاب البحيرة التي تتقد للأبد! آه يا إلهي يا إلهي!» خفت صوتها، ثم انكسر، وطفقت الدموع تجري على وجهها. «يا إلهي، لقد بذلت ما في وسعي مع كل أولادي الذين منحتني إياهم. اللهم ارحم أولادي، وأولاد أولادي».

ناشدها جبريل: «فلورنس، أرجوك لا ترحلي. أرجوك لا ترحلي. أتصرين على الرحيل وتتركينها هكذا؟».

جفت الدموع فجأة في عينيها، رغم أنه لم يكن لديها ما تقوله عن سبب بكائها. «دعني وشأني»، أجابت جبريل ثم حملت حقيبتها مرة أخرى. وفتحت الباب فدخل هواء

الصباح البارد. قالت: «وداعًا». ثم توجهت بالحديث لجبريل: «قل لها إنني قلت وداعًا». خرجت من باب الكوخ وهبطت الدرجات المنخفضة إلى الباحة التي كان الصقيع يغطيها. كان جبريل يرقبها وهو يقف متجمدًا بين الباب والفراش الباكي. وبينما كانت يدها على البوابة جرى أمامها وأغلقها.

«أين تذهبين يا بنت؟ ماذا أنت فاعلة؟ هل تظنين أنك ستجدين بعض الرجال في الشمال يلبسونك اللآلئ والجواهر؟»

فتحت البوابة بعنف ومشت إلى الطريق. راح يرقبها فاغرًا فاه، وشفتاه تتدليان مبللتين. فقالت له: «لو قدر لك أن تراني مرة أخرى، فلن تراني في أسمال بالية كالتي تلبسها».

في كل أرجاء الكنيسة لم يتردد سوى صوت صلوات قديسي الرب، أكثر رهبة من الصمت العميق. الضوء الأصفر الباكي يسطع من فوقهم كاسيًا وجوههم بالتماعات كالذهب الموحل. وجوههم ومواقفهم وأصواتهم الكثيرة التي ارتفعت كصوت واحد دفعت چون إلى التفكير في الوادي السحيق، والليل الطويل، و بطرس وبولس في القبو، أحدهما يصلي والآخر يغني؛ أخذ يفكر في البحار العاتية التي لا نهاية لها ولا قرار، ولا بر لها على مرمى البصر، المؤمن الحق يتشبث بقشة. وراح يفكر في الغد، عندما تنهض الكنيسة، وتغني، تحت نور

الأحد الباهر، فكر في النور الذي ينتظرونه، والذي كان يملأ الروح في لحظة - عبر كل العصور الحديدية المظلمة، المستعصية على التخيل قبل أن يأتي چون إلى هذا العالم - ويعين منْ يولدون مرة أخرى في المسيح على النطق بشهادتهم: لقد كنت أعمى والآن أبصر.

ثم راحوا يغنون: «سِرْ في النور، النور البهيّ. أشرِقْ من حولي نهارًا وليلاً يا يسوع، يا نور العالم». ويغنون: «يا إلهي، يا إلهي، أريد أن أكون متأهبًا، أريد أن أكون متأهبًا. أريد أن أكون متأهبًا لأسير في أورشليم مثل يوحنا».

لأسير في أورشليم مثل يوحنا. الليلة كانت أفكاره غارقة في الرؤى: لم يبق شيء. كان الشك والبحث يضنيانه. تاق إلى نور لا يشوبه شك يرشده إلى الطريق لأبد الآبدين. لقوة تعصمه بحب الرب بعيدًا عن البكاء لأبد الآبدين. ورغب من ناحية أخرى في أن ينهض حالاً ويغادر هذا الهيكل المقدس وألا يرى هؤلاء الناس بعد الآن. كان الغضب والألم يستبدان به، لا يُحتملان ولا يتراجعان؛ كان عقله على وشك الانفجار، لأن الزمن هو ما كان يشغل عقله، الزمن العنيف بذلك الحب الغامض للرب. ولم يستطع عقله أن يستوعب ذلك الامتداد الرهيب للزمن الذي يوحد بين اثني عشر رجلاً يصطادون على ضفاف الجليل، والسود الذين يبكون راكعين الليلة، وهو شاهد بينهم.

روحي شاهد على ربي. كان ثمة صمت مروع في القاع من عقل چون، حمل رهيب، فكرة رهيبة. لا لم تكن فكرة، ولكنه جيشان، كأنه جيشان كائن جسيم أسود لا شكل له، ميت منذ آماد على قاع المحيط، وشعر الآن بأن ريحًا واهية بعيدة هزت سكينته، وأمرته: «انهض». وطفق هذا الحمل يتحرك في قاع عقل چون، في صمت يشبه العدم قبل خلق الخليقة، ثم انتابه شعور بالفزع لم يستشعره من قبل.

جال بنظره في الكنيسة من حوله، وفي المصلين هناك. لم تحضر الأم واشنطن المصلية إلا بعد أن ركع كل القديسين، وحينئذ وقفت تلك المرأة المروعة العجوز السوداء فوق عمته فلورنس تساعدها على الصلاة. وقد جاءت حفيدتها إيلاماي معها ترتدي سترة من الفرو الرث فوق ملابسها العادية. ركعت متثاقلة في ركن قريب من البيانو، تحت اللافتة التي كانت تتحدث عن عقاب الخطيئة، وراحت تئن من آن لآخر. لم يرفع إليشا بصره عندما دخلت، وصلى في صمت: والعرق على جبهته. كانت الأخت ماكندلس والأخت برايس تصيحان من آن لآخر: «نعم، يا إلهي!» أو: «تبارك اسمك يا يسوع!» وكان أبوه يصلي ورأسه مرفوع وصوته مسترسل كجدول جبلي بعيد.

ولكن عمته فلورنس كانت صامتة؛ وتساءل إن كان قد غلبها النوم. لم يرها البتة تصلي في كنيسة من قبل. كان يعرف

أن الناس مختلفون؛ كلٌ يصلي على طريقته: هل كانت عمته دائمًا تصلي في هذا الصمت؟ كانت أمه أيضًا صامتة، ولكنه رآها تصلي من قبل، وأشعره صمتها بأنها تبكي. ولِمَ تبكِ؟ ولِمَ يأتون إلى هنا، ليلة بعد أخرى، ينادون ربًا لا يأبه لهم؟ ثم تذكر أن الأحمق قال في قلبه أنْ ليس هناك رب - وخفض بصره عندما لمح الأم واشنطن المصلية ترنو إليه من فوق رأس عمته فلورنس.

كان فرانك يغني أغاني البلوز، ويعاقر الخمر. لون بشرته بني فاتح بلون حلوى «الكرامل». وربما لهذا السبب كانت دائمًا تراه وكأن الحلوى في فمه، تلطخ أطراف أسنانه المدببة الحادة. لفترة من الوقت كان لديه شارب صغير، ولكنه حفه كما طلبت، لأنه كان يجعله يبدو، في نظرها، كقواد هجين. في مثل تلك التفاصيل الصغيرة كان متساهلاً - فكان يطاوعها على ارتداء قميص نظيف، أو حلاقة شعره، أو مصاحبتها في اجتماعات النهوض بالزنوج حيث كانا يستمعان لخطب المبرزين من الزنوج حول مستقبل الجنس الزنجي وواجباته. وقد أعطاها هذا انطباعًا في بداية زواجهما أنها تسيطر عليه. وكان هذا الانطباع زائفًا تمامًا ووخيم العواقب.

عندما هجرها منذ أكثر من عشرين عامًا، وبعد أكثر من عشر سنوات من زواجهما، لم تشعر في تلك اللحظة سوى

بحنق واهن وراحة بالغة. كان قد تغيب عن المنزل لمدة يومين وثلاث ليالٍ، وعندما عاد إلى المنزل تشاجرا في مرارة أكثر من المعتاد. ذلك المساء واجهته بكل السخط الذي راكمته خلال زواجهما وهما يقفان في مطبخهما الصغير. كان لا يزال يرتدي «أفرول» العمل ولم يحلق ذقنه، وكان وجهه متسخًا بالعرق والوحل. لم يفه بشيء لفترة طويلة، ثم قال: «حسنًا، يا حبيبتي. أظن أنك لا تودين رؤيتي بعد الآن، لا تودين رؤية خاطئ بائس أسود مثلي». انغلق الباب خلفه، وسمعت أصداء خطواته عبر الردهة الطويلة وهي تتلاشى. وقفت وحيدة في المطبخ، تمسك بإبريق الشاي الذي كانت على وشك أن تغسله. فكرت: «سوف يعود، وسوف يعود مخمورًا». ثم عاودت التفكير، وهي تجول بنظرها في المطبخ: «يا إلهي، أليست نعمة إن لم يعد أبدًا». منحها الرب ما تمنته، وكالعادة اكتشفت نهج الرب المحير في الاستجابة للدعوات. لم يعد فرانك أبدًا. عاش لفترة طويلة مع امرأة أخرى، وعندما قامت الحرب مات في فرنسا.

الآن في مكان ما من الطرف الآخر للكرة الأرضية يرقد زوجها في قبره. ينام في أرض لم يرها آباؤه أبدًا. كانت تتساءل مرارًا إن كان قبره يحمل شاهداً – إن كان ثمة صليب أبيض صغير من فوقه كما في الصور التي رأتها. لو أتاح الرب لها أن تعبر عباب ذلك المحيط لذهبت بحثًا عن قبره بين الملايين

المدفونين هناك. ولعلها كانت لتضع إكليلاً من الزهور وهي ترتدي ملابس الحداد الحالكة السواد كما تفعل النساء الأخريات؛ ولوقفت للحظة ورأسها منحنٍ تتأمل الأرض الخرساء. يا له من شيء مروع أن ينهض فرانك يوم الحساب بعيدًا هكذا عن موطنه! ولا ريب أنه لن يتردد حتى في ذلك اليوم في أن يصب جام غضبه على الرب. فقد اعتاد أن يقول: «أنا والرب لسنا على علاقة طيبة. إنه يدير العالم وكأنه يظن أنني بلا عقل». كيف كان موته؟ بطيئًا أم فجأة؟ هل صرخ؟.هل أتاه الموت زاحفًا خلسة من خلفه، أم واجهه مواجهة رجل لرجل. لم تعرف شيئًا عن هذا الأمر، لأنها لم تعلم بموته إلا بعد فترة طويلة، عندما بدأ الأولاد في العودة إلى الوطن وشرعت تبحث عن وجهه في الشوارع. كانت المرأة التي عاش معها فرانك هي من أخبرتها بموته، لأنه كان قد سجل اسمها باعتبارها أقرب أقربائه. لم تدر المرأة ماذا تقول لها بعد أن أخبرتها بموته، وراحت تحدق في فلورنس في شفقة ساذجة. أحنق هذا فلورنس، وتمتمت بصعوبة: «شكرًا لك» قبل أن تتركها. كرهت فرانك لأنه جعل من هذه المرأة شاهدًا رسميًا على مذلتها. وتساءلت مرة أخرى ما الذي أعجب فرانك في هذه المرأة، فرغم أنها كانت تصغر فلورنس عمرًا إلا أنها كانت عاطلة من الجمال، وتعاقر الخمر طيلة الوقت، وتشاهد برفقة الكثير من الرجال.

ولكنها غلطتها الكبرى منذ البداية أنها قابلته وتزوجته وأحبته كل هذا الحب المرير. عندما كانت تنظر إلى وجهه، كان يخطر لها أحيانًا أن اللعنة قد حاقت بكل النساء وهن في المهد؛ فكلهن على نحو أو آخر كُتب عليهن نفس المصير الأليم، وُلدن ليحتملن عبء الرجال. كان فرانك يزعم أنها تفهم الأمور بصورة مقلوبة رأسًا على عقب: إن الرجال هم الذين يعانون لأن عليهم أن يحتملوا مسالك النساء منذ الميلاد وحتى المات. ولكنها هي من كان على صواب، فهي تدرك ذلك؛ مع فرانك كانت دائمًا على صواب؛ ولم يكن الخطأ خطأها في أن فرانك كان ما هو عليه، عازم على أن يعيش ويموت كعامة الزنوج.

لكنه كان يقسم دائمًا أنه سوف يغير نفسه إلى الأفضل؛ ربما كانت ضراوة توبته هي ما أبقتهما معًا لفترة طويلة. كان بداخلها شيء يدفعها لاستمراء أن تراه صاغرًا عندما يعود للمنزل تفوح منه رائحة الويسكي، ويزحف دامعًا إلى ذراعيها. وحينئذ يصبح من كان سيد المنزل عبدًا. وعندما كان يغلبه النوم أخيرًا بين ذراعيها، كانت تفكر مغمورة بأحاسيس الرفاهية والقوة: «ولكن هناك جوانب خيِّرة في فرانك. عليّ فقط أن أتحلى بالصبر وسوف يتطور ويصبح على ما يرام». كانت كلمة «يتطور» تعني أن يغير من طريقته في الحياة ويوافق

أن يكون الزوج الذي سافرت كل هذه المسافة لتحصل عليه. ولكنه كان من علمها بلا هوادة أن ثمة أناس في الدنيا كان التطور بالنسبة لهم سيرورة أبدية، فقد قدر لهم ألا يصلوا أبدًا إلى تلك الغاية. لعشر سنوات كان يتطور، ولكنه عندما هجرها كان هو عين الرجل الذي تزوجته. لم يتغير قيد أنملة.

فلم يدخر قط ما يكفي من المال لشراء البيت الذي كانت تريده، أو أي شيء آخر كانت ترغبه بحق، وكان هذا جزءًا من المشاكل التي كانت بينهما. لم تكن المشكلة أنه لا يكسب نقودًا ولكن أنه لا يدخرها. فكان من عادته أن يأخذ نصف أجره الأسبوعي ويخرج لشراء شيء يريده أو يخيل إليه أنها تريده. فكان يعود في عصر أيام السبت، نصف ثمل، حاملاً شيئًا لا نفع منه، كزهرية، جال بخاطره إنها ربما تحب أن تملأها بالزهور – هي التي لم تهتم قط بالزهور ومن المتيقن أنها لن تشتريها أبدًا. أو يعود بقبعة، دائمًا ما تكون باهظة الثمن أو شديدة السوقية، أو بخاتم يبدو وكأنه مصمم خصيصًا لعاهرة. وأحيانًا كان يعن له أن يقوم بعمل مشتروات يوم السبت في طريق عودته للمنزل، حتى لا تتحمل هي القيام بذلك؛ وفي تلك الحالة كان يقوم بشراء ديكٍ رومي، أكبر وأغلى ديك يجده، وعدة أرطال من القهوة، إذ كان دائمًا ما يظن إنه لا يوجد بالمنزل ما يكفي، وكمية من حنطة الإفطار تكفي لإطعام جيش لمدة شهر. وكان بعد نظره هذا يملأه بإحساس

بفضيلته حتى أنه كان، من باب المكافأة، يشتري لنفسه زجاجة ويسكي. وحتى لا تظن أنه يكثر من الشراب، كان يدعو واحدًا من سفلة القوم للمنزل ليشاركه الزجاجة. فيجلسان حتى الأصيل في ضيافتها يلعبون الورق ويتبادلون النكات البذيئة، ويفسدون الهواء برائحة الويسكي والدخان. كانت تجلس في المطبخ، تتميز غيظًا وتحملق في الديك، الذي كان يكلفها ساعات من العمل المضني اللعين لأن فرانك كان دائمًا يشتري الديوك دون نزع ريشها أو قطع رأسها. ثم كانت تُسائل نفسها أي دافع لعين استبد بها وجعلها تخوض تلك الشقاوات وترحل بعيدًا عن موطنها، إذا كان كل ما وجدته شقة من غرفتين في مدينة لا تحبها، ورجلاً أكثر طفولة من أي رجل عرفته وهي في ميعة الصبا.

أحيانًا كان يناديها من المضيفة حيث يجلس مع ضيفه:

«مرحبًا، يا فلو!»

وكانت لا ترد. كانت تكره أن تُنادى «فلو»، ولكنه لم يكن ليتذكر ذلك أبدًا. قد ينادي عليها مرة أخرى، وعندما لا ترد يأتي إليها في المطبخ.

«ماذا دهاك يا بنت؟ ألا تسمعيني أناديك؟»

وعندما لا تنبس البتة بأي حرف، وتجلس ساكنة تمامًا، ترقبه بعينين ممرورتين، كان يضطر أن يصرح لها أنه يشعر أن ثمة خطبًا ما.

«ما الأمر، يا عزيزتي؟ هل أنت غاضبة علي؟»

وعندما كان يحملق فيها في جزع حقيقي، ورأسه يميل جانبًا، و تلوح على وجهه ابتسامة خافتة، كان شيء ما يلين بداخلها، شيء كانت تقاومه، فتهب واقفةً وتزمجر في وجهه بصوت خفيض حتى لا يسمع الضيف:

«أود لو تخبرني كيف تظن أننا سنعيش بقية الأسبوع على ديكٍ رومي وخمسة أرطال من البن؟»

«حبيبتي، إنني لم أشترِ شيئًا لسنا في حاجة إليه!»

كانت تتنهد في غضب يائس، وتشعر بالدموع تفيض من مقلتيها.

«ألم أخبرك مرارًا أن تعطيني النقود عندما تقبض راتبك، ودعني أشتري حاجياتنا – لأنك فقدت عقلك الذي ولدت به».

«حبيبتي، لم أرتكب أي خطأ سوى محاولتي أن أساعدك. خلت أنك قد ترغبين في الذهاب إلى مكان ما الليلة ولا تريدين أن تزعجي نفسك بتسوق المشتروات».

«في المرة القادمة عندما ترغب في مساعدتي، أخبرني أولاً، هل تسمع؟ وكيف تتوقع أن أذهب إلى أي حفل عندما تحضر هذا الطائر إلى المنزل لكي أنظفه؟»

«حبيبتي، سوف أقوم بتنظيفه أنا. فلن يستغرق وقتًا».

سار صوب المائدة حيث كان الديك يرقد ونظر إليه مليًا، كأنه يراه لأول مرة. ثم نظر إليها وافترت شفتاه عن ابتسامة. «ليس هناك ما يستدعى أن تغضبي بشأنه».

راحت تبكي. «لا أعلم ما الذي يحل بك. كل أسبوع يدفعك الرب للخروج وارتكاب المزيد من الحماقات. كيف تتوقع إذن أن نوفر ما يكفي من المال لكي ننتقل من هنا إذا كنت لا تكف عن الخروج طوال الوقت لتبدد نقودك على الحماقات؟»

عندما شرعت في البكاء، حاول أن يطيب خاطرها وهو يضع يده الضخمة على كتفها ويقبلها على خديها حيث سقطت دموعها.

«حبيبتي، أنا آسف. ظننت أنها قد تكون مفاجأة لطيفة».

«المفاجأة الوحيدة التي أتوقعها منك هي أن تتحلى ببعض العقل! هذه هي المفاجأة! هل تظن أنني أود البقاء هنا بقية حياتي مع هؤلاء الزنوج القذرين الذين تجلبهم للمنزل طوال الوقت؟»

«أين تظنين أن بإمكاننا العيش، يا حبيبتي، حيث لا يوجد أي زنوج؟»

حينئذ استدارت بعيدًا، وراحت تنظر من نافـذة المطـبخ. كانت النافذة تواجه خط قطار مرتفعًا كان يمر قريبًا جدًا حتى أنها كانت تشعر دائمًا برغبة في البصق على الوجوه التـي تمـرق من أمامها محملقة فيها.

«أنا لا أحب كل هذه الرثاثـة...التـي يبـدو أنـك تعزهـا كثيرًا».

ساد الصمت حينئذ. ورغم أنها أدارت ظهرها له، إلا أنها كانت تشعر أنه كف عن الابتسام وأن عينيـه قـد غامتـا وهـو يرقبها.

«وأي الرجال تظنين أنك تزوجت؟»

«ظننتُ أنني تزوجت رجلاً ذا همـة، لا يريـد أن يظـل في القاع طوال حياته!»

«وما الذي تريدينني أن أفعل، يا فلورنس؟ هل تريدينني أن أصير أبيض اللون؟»

كان هذا السؤال دائمًا هو ما يملأها بفورة من الكراهيـة. فاستدارت وواجهته، وطفقت تـصرخ، وقـد غفلـت عـن أن هناك شخصًا يجلس في المضيفة:

«ليس من الضروري أن تصير أبيض اللـون لكـي تحظـى ببعضٍ من احترام الذات! هل تظن أنني أعمل كالعبيد في هذا المنزل حتى تأتي أنت وهؤلاء الزنوج الرعاع لتجلسوا هنا كـل مساء وتلقون برماد سجائركم على الأرض؟»

«ومن الذي يسلك كالرعاع الآن يا فلورنس؟» ألقى عليها السؤال بهدوء في الصمت الرهيب الذي ران سريعًا وأدركت خلاله خطأها. «من الذي يسلك كالرعاع الآن؟ ماذا تظنين أن صديقي الجالس هناك سيقول؟ أنا أقول لك، فلن أندهش إذا فكر: «يالفرانك المسكين، من المؤكد إنه تزوج امرأة من الرعاع». وعلى أية حال، هو لا يلقي برماد سجائره على الأرض – بل يضعها في المطفأة، لأنه يعرف ما هي المطفأة». كانت تعرف أنها جرحت مشاعره، وأنه حانق، وذلك من عادته في تحريك لسانه بسرعة وبلا توقف على شفته السفلى في مثل تلك اللحظات. «ولكننا سنخرج الآن، لذا بإمكانك أن تنظفي المضيفة وتجلسي هناك، إذا شئتِ، حتى يوم القيامة».

غادر المطبخ. وسمعت هي همهمات في المضيفة، ثم اصطفاق الباب. تذكرت، بعد فوات الأوان، أنه يحمل كل نقوده معه. وعندما عاد في الهزيع الأخير من الليل، وضعته في الفراش وراحت تفتش في جيوبه، فلم تجد شيئًا، أو لا شيء تقريبًا، وسقطت يائسةً على أرضية المضيفة وراحت تبكي.

عندما كان يعود في مثل هذه الأوقات يكون نكد المزاج وشاعرًا بالذنب. فلا تنسل إلى الفراش إلا عندما تظن أنه راح في النوم. ولكنه لا يكون نائمًا. بل يستدير عندما تمدد ساقيها

تحت البطاطين، وتمتد ذراعه حولها، وتلفح أنفاسه الساخنة الخَمِرة وجهها.

«لماذا تنكدين على حبيبك هكذا يا سكر؟ ألا تعلمين أنكِ تسببتِ في أن أخرج وأسكر ولم يكن في نيتي أن أفعل ذلك؟ وددتُ أن أصحبك إلى مكان ما الليلة». وبينما هو يحدثها كانت يده تتحسس صدرها وشفتاه تدغدغان عنقها. أطلق ذلك في نفسها حربًا لا تطيق لها احتمالاً. كانت تشعر أن كل شيء في الوجود القائم بينهما جزء من مؤامرة ضخمة لإذلالها. لم تكن ترغب في لمسته، ومع ذلك كانت تريدها: كانت تحترق بلهيب الاشتياق وتتجمد بسطوة الحنق. وكانت تعرف أنه يعي ذلك ويبتسم في دخيلته للسهولة التي يستطيع أن يحرز بها نصرًا مؤكدًا في هذا الجانب من ميدان المعركة. ومع ذلك كانت تشعر أن حنانه وهيامه وعشقه صادقون.

«دعني وشأني، يا فرانك. أريد أن أنام».

«لا، لا تريدين النوم بسرعة هكذا. بل تريدينني أن أتحدث إليك قليلاً. فأنت تعرفين أن حبيبك يحب الكلام. اسمعي». وراح يداعب عنقها بلسانه. «هل تسمعين ذلك؟»

راح ينتظر بينما كانت صامتة.

«أليس لديك شيء آخر تقولينه غير ذلك؟ سوف أقول لكِ شيئًا آخر». وبدأ يغمر وجهها بالقبلات؛ وجهها وعنقها وذراعيها ونهديها.

«دعني وشأني. رائحة الويسكي تفوح منك».

«آه. إذا لست أنا الوحيد الذي لديه لسان هنا. ماذا تقولين في هذا إذن؟» وراحت يده تتحسس باطن فخذها.

«كف عن هذا».

«لا لن أتوقف. هذا هو الكلام اللذيذ يا حبيبتي».

عشر سنوات. ولم تنتهِ معركتهما؛ ولم يشتريا المنزل. مات لاحقًا في فرنسا. والليلة كانت تتذكر نتفًا من تلك السنوات التي ظنت أنها نسيتها، وأخيرًا شعرت أن قلبها الصخري يتصدع؛ وطفق دمعٌ عصيٌ ثقيل كالدم ينسرب من بين أصابعها. وحدست المرأة التي كانت تقف فوقها ذلك، وصاحت: «نعم يا عزيزتي. أطلقي لنفسك العنان، يا عزيزتي. دع الرب يُحطك لكي يرفعك». أكان ذلك هو الدرب الذي ينبغي أن تسلكه؟ هل كانت على خطأ عندما حاربت بكل تلك الضراوة؟ ها هي الآن امرأة عجوز، وحيدة تمامًا، وعلى حافة الموت. ولم تجنِ شيئًا من كل معاركها. هذا ما انتهت إليه: ساجدة على وجهها أمام المذبح، تبكي طلبًا لرحمة الرب. ومن خلفها كانت تسمع جبريل يصيح: «تبارك اسمك يا يسوع!» وبينما كانت تتفكر في طريق القداسة السامي الذي قطعه، انحرف عقلها كإبرة البوصلة وراحت تفكر في ديبورا.

كانت ديبورا قد كتبت إليها عدة مرات ليست بـالكثيرة، ولكن إيقاع رسائلها بدا أنه يتزامن مع كل أزمة في حياتها مـع جبريل. وذات مرة، عندما كانت هي وفرانك مـازالا يعيـشان معًا، تلقت خطابًا من ديبورا ظلت تحتفظ به حتى الآن: كانت تحمله الليلة في حقيبتها، التي استقرت على المذبح. كان في نيتها دائمًا أن تُري جبريل هذا الخطاب ذات يـوم، ولكنهـا لم تفعـل قط. وقد تحدثت في وقت متأخر ذات ليلة مع فرانك بشأن هذا الخطاب بينما كان يرقد في السرير مصفرًا لحنًا راقـصًا وكانـت هي أمام المرآة تدعك كريمًا مبيضًا على بشرتها. كـان الخطـاب مفتوحًا أمامها، وطفقت تتنهد بصوت مسموع لتجذب انتباه فرانك.

توقف عن الـصفير في منتـصف جملـة؛ أكملتهـا هـي في ذهنها. سألها في تكاسل: «ماذا لديك، يا سكر؟».

«إنه خطاب من زوجة أخي». حملقت في وجهها في المرآة، وفكرت في غضب أن كل كريمات البشرة هذه مضيعة للنقود، فلا نفع يرجى منها.

«ما أخبار الأهل الزنوج في الجنـوب؟ عـساهم بخـير؟» وواصـل دندنتـه بـصوت عميـق مـن الحلـق بـلا توقـف. «لا...الأخبار ليست بالطيبة، ولكنها لا تدهشني. تقـول إنهـا تظن أن أخي له ابن غير شرعي يعيش قريبًا منه في نفس البلدة لكنه يخشى الاعتراف به».

«غير معقول؟ ظننت أنك قلت إن أخاك واعظ في الكنيسة».

«لا يتوقف الزنجي عن أفعاله القذرة لمجرد أنه واعظ».

عندئذ ضحك فرانك. «من المؤكد أنك لا تحبين أخاك كما ينبغي. وكيف اكتشفت زوجته أمر هذا الطفل؟»

التقطت الخطاب واستدارت في مواجهته. «يبدو لي أنها كانت على علم بذلك الأمر طوال الوقت؛ ولكن لم تواتها الشجاعة لقول أي شيء». توقفت برهة، ثم أردفت على مضضٍ: «هذا طبيعي، إذ يمكنك أن تقول إنها غير متأكدة على وجه اليقين. كما أنها ليست بالمرأة التي تقضي الوقت في الظنون. إنها قلقة للغاية».

«اللعنة، وما الداعي لقلقها الآن؟ لقد قضي الأمر».

«إنها تتساءل هل ينبغي أن تفاتحه في الموضوع».

«وهل تظن أنها إذا سألته، سيكون من الحمق بمكان بحيث يقول نعم؟»

تنهدت مرة أخرى، بشكل أكثر صدقًا هذه المرة، واستدارت صوب المرآة. «حسنًا...إنه واعظ. وإذا كانت ديبورا على حق، فليس من حقه أن يكون واعظًا. فهو ليس بأفضل من الآخرين. في الحقيقة هو ليس أكثر من قاتل».

كان فرانك قد بدأ في الصفير مرة أخرى؛ فتوقف. «قاتل؟ كيف؟»

«لأنه ترك أم هذا الطفل ترحل وتموت وهي تلده. هذا هو الأمر». سكتت لبرهة. «وهذا يتفق تمامًا مع طبيعة جبريل. فهو لا يفكر على الإطلاق ولو لحظة واحدة إلا في نفسه».

لم يتفوه فرانك بشيء وراح يتأمل ظهرها المتصلب. ثم قال: «هل ستردين على هذا الخطاب؟»

«أظن ذلك».

«وماذا ستقولين؟»

«سوف أقول لها إنها ينبغي أن تبين له أنها تعرف شروره. وإذا اضطرها الأمر أن تقف أمام جموع المصلين وتخبرهم بذلك أيضًا».

«تململ في رقدته متجهمًا». حسنًا، إنك أدرى مني في هذا الشأن. ولكني لا أعرف ما جدوى ذلك.

«سوف يعود هذا عليها بالنفع. سيضطره أن يعاملها بصورة أفضل. فأنت لا تعرف أخي كما أعرفه. ليس هناك سوى طريقة واحدة للتعامل معه، لابد أن تروعه حتى يشارف على الموت. هذا كل ما في الأمر. فليس من حقه أن يسعى بين الناس مرددًا كم هو تقي إذا كان قد أتى تلك الفعلة الدنيئة».

ران الصمت بينهما؛ راح يصفر مقاطع أخرى من أغنيته؛ ثم تثاءب وقال: «هل تأوين إلى الفراش يا عزيزتي؟ لا أعرف لم تضيعين كل وقتك وكل نقودي على مبيضات البشرة تلك. فأنت مازلت سوداء كيوم وُلدت».

«أنت لم تكن حاضرًا عندما ولدت. وأنا أعرف أنك لا تريد امرأة سوداء كالفحم». ولكنها نهضت من أمام المرآة وسارت نحو الفراش.

«لم أقل شيئًا كهذا بحياتي. لو تفضلت بإطفاء النور سأجعلك تعرفين كم هو رائع الجمال ذلك اللون الأسود».

تساءلت إن كانت ديبورا قد أفصحت عن الأمر في أي وقت؛ وإن كانت هي ستعطي لجبريل الخطاب الذي كانت تحمله في حقيبتها الليلة. لقد كانت تحمله في حقيبتها طوال تلك السنوات، متحينة فرصة همجية. ولم تكن تدري أي شكل ستتخذه هذه الفرصة؛ في تلك اللحظة لم تكن ترغب في أن تعرف. فقد كانت تفكر دائمًا في هذا الخطاب باعتباره أداةً في يدها يمكن أن تستخدمها في تدمير أخيها.

فعندما يسقط تمامًا لن تدعه ينهض مرة أخرى بأن تظهر أمامه دليل خطيئة الدم التي ارتكبها. ولكنها الآن تفكر في أنها لن تعيش لكي ترى هذا اليوم الذي طالما انتظرته في صبر. فسوف تموت.

وملأتها الفكرة بالروع والحنق؛ جفت الدموع على وجهها وخفق قلبها بين جوانحها، وتقسمت بين توقها المروع لأن تستسلم، ورغبتها أن تسائل الرب عن مسؤوليته. لم فضَّل أمها وأخاها، المرأة العجوز السوداء، والرجل الأسود الوضيع، بينما هي، التي سعت دائمًا أن تتخذ طريق الاستقامة، عليها أن تموت وحيدة فقيرة في غرفة مفروشة قذرة؟ ضربت قبضتيها بقوة على المذبح. هو، سوف يعيش هو، ويبتسم حين يراها تهبط إلى قبرها! وسوف تكون أمها هناك، تتكئ على أبواب الجنة وهي ترى ابنتها تتلظى بنيران الهاوية.

وإذ هي تضرب بقبضتيها على المذبح، أمسكت بها المرأة العجوز التي تقف فوقها من كتفيها، وصاحت: «ادعيه يا ابنتي! ادعي الرب!» وبدا الأمر كأنها قذفت إلى الخارج في الزمن، حيث تتلاشى الحدود، لأن الصوت كان صوت أمها، ولكن اليدين كانتا يدي الموت. فراحت تبكي بصوت مدوٍ، كما لم تبك طوال حياتها، وخرّت على وجهها أمام المذبح، عند قدمي المرأة العجوز السوداء. تدفقت دموعها كالمطر الحارق. وربتت يدا الموت على كتفيها، وراح الصوت يهمس ويهمس في أذنها: «لقد حصل الرب على عنوانك، ويعرف أين تعيشين، وأصدر أمرًا لملاك الموت ليقبض روحك».

صلاة

جبريل

2

الآن أصبحتُ في حضرة،

الأب والابن، ولم أعد غريبًا الآن!

عندما صدعت فلورنس بالصراخ، كان جبريل ينطلق إلى الخارج في الظلمة النارية يحادث الرب. بلغته صرختها من بعيد وكأنها آتية من أعماقٍ سحيقة؛ لم تكن صرخة أخته تلك التي سمعها، بل صرخة الخاطئ عندما تجثم عليه خطيئته. تلك كانت الصرخة التي سمعها مرارًا أيامًا وليالي، أمام كثير من المذابح، فصاح الليلة، كما صاح من قبل: «لتكن مشيئتك أيها الرب! لتكن مشيئتك!»

ثم ران الصمت على الكنيسة. حتى واشنطن المصلية كفت عن النواح. وسرعان ما تصدع صرخة أخرى حتى تنطلق الأصوات من جديد؛ تتبعها الموسيقى، والصياح، وصوت الدفوف. في هذا الصمت المقيم المثقل، بدا أن كل

الأجساد – وقد سكنت كأنها تسمرت بشيء معلق في الهواء – كانت تترقب القوة المانحة للحياة.

هذا الصمت الممتد كردهة أعاد جبريل إلى ذلك الصمت الذي سبق ولادته في المسيح. كالميلاد حقًا، فكل ما سبق تلك اللحظة كان مسربلاً في الظلام، قابعًا في قاع بحر النسيان، ولا يحسب عليه الآن، بل كان يخص ذلك الفساد الأعمى، الشقي، النتن الذي كانه قبل أن تولد روحه من جديد.

كان الصمت صمت الصباح الباكر، وهو عائد من بيت عاهرة. كانت أصوات الصباح من حوله: الطيور في مكامنها وهي تُسبّح باسم الرب؛ والجنادب في أعراش الكرم، والضفادع في المستنقع، والكلاب التي تنبح على بعد أميال أو عن كثب، والديوك على الشرفات. لم تكن الشمس قد أشرقت تمامًا؛ فقط كانت ذؤابات الشجر قد بدأت ترتعش عندما مر بها؛ وكان الضباب يتهادى متجهمًا أمام جبريل ومن حوله، متراجعًا أمام الضياء الذي يحكم بالنهار. في زمن لاحق، قال عن ذلك الصباح إن خطيئته كانت تثقل كاهله؛ وإنه عرف أنه يحمل عبئًا كان يتوق إلى وضعه عنه. كان عبئه أثقل من أرسخ الجبال، وكان يحمله في قلبه. ومع كل خطوة يخطوها كان عبئه يزداد ثقلاً، وتصبح أنفاسه بطيئة متحشرجة، وفجأة يغمر العرق البارد جبهته ويبلل ظهره.

وحدها في الكوخ كانت أمه تنتظر؛ ليس فقط عودته ذلك الصباح، ولكن أيضًا أن يسلم نفسه للرب. لم تكن تتوق إلا إلى ذلك، وكان يعرف توقها، رغم أنها كفت عن نصحه وحثه كما كانت تفعل في أيام لم يمض عليها الكثير. فقد استودعته يدي الرب، وانتظرت صابرةً لترى كيف سيُسيّر الرب الأمر.

كانت تود أن يمتد بها العمر حتى ترى وعد الرب متحققًا. وألا تثوى إلى قبرها إلا عندما يلحق ابنها، آخر أولادها، الذي سيلفها في الكفن، بمعية القديسين. الآن ركنت إلى الصمت، هي التي كانت ذات زمن ضيقة الصدر، عنيفة، تشتم وتصرخ وتكافح كرجل، لم تعد تكافح، بآخر رمق فيها، إلا الرب. وذلك أيضًا كانت تفعله كالرجال: كانت تعرف أنها استمسكت بإيمانها، فانتظرت من الرب أن يفي بوعده. كان جبريل يعلم أنها لن تسأله عندما يدخل أين كان؛ لن توبخه؛ وأن عينيها، حتى عندما كانت تسلم جفنيها للنوم، كانتا تتبعانه أينما ذهب.

لاحقًا، لأن اليوم كان الأحد، كان بعض الأخوة والأخوات يأتون إليها ليتغنوا ويصلوا حول فراشها. وكانت تصلي من أجله، وهي تجلس في فراشها دونما مساعدة، رأسها مرفوع، وصوتها متزن؛ بينما كان هو يركع في زاوية من

الحجرة، يرتعش بل ويكاد يتمنى الموت لها؛ ويرتعش مرة أخرى لهذا الدليل على الشر اللعين الذي يملأ قلبه؛ فكان يصلي بلا كلمات طلبًا للمغفرة. لم تكن لديه كلمات ينطق بها عندما يركع أمام العرش. لقد كان يخشى أن يتفوه بنَذرٍ أمام السماء إلا عندما يجد القوة بداخله للوفاء به. وكان يعلم أنه لن يجد تلك المقدرة في نفسه إلا عندما يقدم النذر.

لقد كان يرغب في أعماقه، بخشية ورعشة، في كل الأمجاد التي كانت أمه تدعو له بها. أجل، لقد كان يريد القوة – كان يريد أن يرى نفسه مسيح الرب، ومحبوبه، وأن يكون جديرًا بتلك اليمامة البيضاء كالثلج التي أرسلت من السماء لتشهد أن يسوع هو ابن الرب. كان يريد أن يكون سيدًا، وأن يتكلم بتلك السلطة التي لا تأتي إلا من الرب وحده. كانت شهادته التي اعتز بها فيما بعد أنه طالما كره خطاياه – حتى عندما كان يركض نحو خطيئته، بل حتى وهو منغمس فيها. لطالما كره الشر الثاوي في جسده، وخافه، كما كان يخاف ويكره وحوش الشهوة والرغبة التي تجوس مدينة عقله المشرعة بلا أسوار. فيما بعد كان يقول إن يد الرب التي دامت ترعاه منذ بواكير حياته كانت هبةً وهبته أمه إياها؛ لكنه كان يعي أنه عندما يحل الليل كان العماء والحمى يعصفان به؛ كان الصمت الذي يمتد عبر الكوخ بينه وبين أمه شيئًا لا يحتمل؛ لم يكن يجرؤ أن ينظر

إليها وهو يرتدي سترته أمام المرآة محاولاً أن يهرب من وجهه فيها، كان يقول لها إنه خارج ليتمشى قليلاً وسيعود سريعًا.

أحيانًا كانت ديبورا تجالس أمه وتحيطه بنظرات لا تقل صبرًا وتوبيخًا عن نظرات أمه. كان يخرج هاربًا إلى الليل المرصع بالنجوم ويسير حتى يأتي حانة، أو بيتًا كان قد حدده من قبل خلال نهار شهوته الطويل. وكان يعب الخمر حتى يسمع دق مطارق في جمجمته البعيدة؛ كان يلعن أصدقاءه وأعداءه، ويتشاجر حتى تسيل الدماء؛ وفي الصباح يجد نفسه في الوحل والرغام وفي مخادع غريبة، ومرة أو مرتين في السجن؛ تملأ المرارة فمه، والرثاثة ملابسه، وتفوح منه رائحة الفساد العفنة. حينئذ كان لا يقوى حتى على البكاء، ولا على الصلاة. كان يتوق تقريبًا إلى الموت، وهو الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يخلصه من قسوة أغلاله.

كانت عينا أمه عليه في كل ذلك؛ تقبض يدها، كملقط النار المتأجج، على جمرة قلبه الخامدة؛ وتجعله يشعر من جراء فكرة الموت برعبٍ أكثر برودة. فنزول المرء لقبره دنسًا بلا مغفرة هو السقوط في الهاوية للأبد، حيث ينتظره من الرعب صنوف أشد هولاً مما حملته الأرض عبر كل أزمنتها وأنينها. فلسوف ينفصل عن الأحياء للأبد؛ وينمحي اسمه للأبد. ولن يكون هناك سوى الصمت والصخر والجُذامَة، ولا بذور؛ لا

أمل في المجد له أو لذريته أبد الآبدين. لـذا عنـدما كـان يـأتي العاهرة، كان يأتيها في سورة مـن الغـضب، ويرحـل عنهـا في حزن عقيم – وهو يشعر، مرة أخرى، أنه تم سـلبه عـلى نحـو قذر، فلقد ألقى ببذرته المقدسة في ظلمة محرمة حيث لا مـصير لها إلا الفناء. كان يلعن الشهوة الخؤون التي تسكنه، ويلعنهـا ثانية في الآخرين. ولكنه كما كان يقول فيما بعد: «إننـي أتـذكر اليوم الذي اهتزت فيه أركان سجني وسقطت أغلالي».

وكان يسير عائدًا إلى البيت، متفكرًا في الليلة التي خلفهـا وراءه. لقد رأى المرأة في أول المـساء، ولكنهـا كانـت بـصحبة الكثير من الآخرين، من الرجال والنساء، وعليه فقد تجاهلها. ولكن بعدئـذ، عنـدما أضرم الويـسكي النـار بـه، نظـر إليهـا مبـاشرة، وأدرك في التـو أنهـا هـي أيـضًا تفكـر فيـه. لم يكـن بصحبتها الآن كثير من الرفقة – وكأنها تفسح مكانًا لـه. كـان قد علم أنها أرملة من الشمال، تقضي بضعة أيام في زيارة أهلها. وعندما نظر إليها بادلته النظرات، ودوت ضحكتها كأنها جزء من الحديث الـضاحك الـذي كانـت تتبادلـه مـع أصـدقائها. كانت فلجاء الأسنان؛ واسعة الفم؛ وعندما تـضحك تمـسك شفتها السفلى بين أسنانها على مهـل، وكأنهـا خجـلى مـن ذاك الفم الضخم، ويرتج نهـداها. ولكـن لـيس الارتجـاج الهـائج الذي يعتري النساء البدينات الـضخمات عنـدما يـضحكن –

كان نهداها يرتفعان ويهبطان خلف قماش ثوبها المحبوك. كانت تكبره سنًا بكثير - في سن ديبورا، وربما تجاوزت الثلاثين - ولم تكن بالغة الجمال. ومع ذلك احتشدت المسافة بينهما بوجودها على نحو مفاجئ، وفعمت رائحتها أنفه. شعر وكأن نهديها المتوفزين تحت كفيه. فراح يعب الشراب مرة أخرى، تاركًا وجهه، دونما وعي، أو ما قارب ذلك، يكتسي بقسمات البراءة والقوة التي علمته خبرته مع النساء أنها تستدر حبهن.

أجل (تفكر وهو يسير عائدًا إلى المنزل، والبرد يوخزه) لقد التقيا. يا إلهي، كيف كانا يرهزان في فراش خطيئتهما، وكيف كانت تصرخ وترتعش؛ يا إلهي، كيف سال حبها! أجل (وهو يشق طريقه إلى البيت عبر الضباب الهارب، والعرق البارد على جبهته) تفكر فيها، وهو في خيلاء الغزو والغرور، في رائحتها، وسخونة جسدها تحت كفيه، في صوتها، ولسانها، كلسان قطة، وأسنانها، ونهديها المترعين، وكيف كانت تتحرك له، وتضمه، وتجهد معه، وكيف سقطا، وهما يرتعشان ويموءان، ملتحمين معا، في العالم مرة أخرى. كان جسده، وهو يفكر في هذا، يتجمد في عرقه البارد، ومع ذلك تعتريه سورة من عنف ذكرى الشهوة، وإذا به يصل إلى شجرة على تلة منخفضة، يقع المنزل وراءها، بعيدًا عن

الأبصار، حيث ترقد أمه. وعلى حين غرة قفزت إلى مخيلته – كالمياه التي تجتاح السدود في عنف وتفيض على الضفاف، في اندفاعها الطليق نحو البيوت الساكنة المحتومة المصير والتي مازالت الشمس ترتعش شاحبة على أسطحها ونوافذها – ذكرى كل الصباحات التي ارتقى فيها إلى هنا ومر بتلك الشجرة، التي كان يلمحها في لحظة بين الخطايا التي ارتكبها والخطايا التي سوف يرتكبها. كان الضباب على تلك التلة قد تبدد، فشعر بينما كان يقف قبالة تلك الشجرة الوحيدة أنه يقف تحت عين السماء المجردة. بعدئذ، في لحظة، عم السكون، السكون فقط، في كل الأرجاء – حتى الطيور نفسها كفت عن الصداح، والكلاب كفت عن النباح، ولم يصح الديك إيذانًا ببداية نهار جديد. فشعر أن هذا الصمت هو حكم الرب؛ أن كل المخلوقات قد سكنت في حضرة الغضب الإلهي المروع العادل، وانتظر الآن ليرى الخاطئ – لقد كان هو الخاطئ – مبعدًا ومنفيًا من حضرة الرب. فلمس الشجرة، وهو يكاد لا يعي أنه لمسها بدافع باطني للاختفاء؛ ثم صاح: «يا إلهي، رحمتك! يا إلهي، رحمتك بي!»

ووقع على الشجرة، وسقط نحو الأرض وهو يتشبث بجذورها. صرخ في الصمت، ولم يرد عليه سوى الصمت – ومع ذلك عندما صرخ، أطلقت صرخته دويًا في كل أنحاء

الأرض. صرخته الوحيدة امتـدت بـين المخلوقـات، وألقـت الروع في الأسماك والطيور النائمـة، مـرددةً أصـداءها في كـل مكان، في النهر، والوادي، وحائط الجبل، ملقية فيه هـو خوفًـا رهيبًا حتى أنه رقد للحظة صامتًا مرتعشًا عند أصل الـشجرة، وكأنه يتمنى أن يدفن هناك. ولكـن قلبـه المهمـوم لم يهـدأ، ولم يدعه في سكينة – لم يدعه يتنفس حتى صرخ مرة أخرى. ومن ثم صرخ ثانيةً؛ وارتدت له صرختـه ثانيـةً؛ وران الـصمت في انتظار أن يتكلم الرب.

وراحت دموعه تنهمر – دمـوع لم يعهـدها في نفـسه مـن قبل. قال فيما بعد: «لقد بكيت كطفل صغير». ولكن لم يذرف طفل على الإطلاق مثل تلك الدموع التي ذرفهـا هـو في ذلـك الصباح وهو منكفـئٌ عـلى وجهـه أمـام الـسماء، تحت تلـك الشجرة العظيمة. كانت تلـك الـدموع تـصعد مـن أعـماق لم يكتشفها طفل بعد، وهزته بحمى لا يحتملها طفل. وسرعـان ما راح يصرخ في سورة عذابه، كل صرخة وكأنها تشق حلقه، وتخنق أنفاسه، وتدفع بالدموع الساخنة إلى وجهه، فتسقط على يديه وتبلل جذر الشجرة: «خلصني! خلصني!» ودوى الكون بدعائه، ولكن دونها إجابة. «لم أسمع أحدًا يصلي».

أجل، لقد كان في ذلك الوادي حيـث سـيجد نفـسه كـما أخبرته أمه، لا إنسان يساعده هناك، لا يد تمتد لتحمي أو تنقذ.

هنا لا شيء ينتصر إلا رحمة الرب – هنا المعركة تدور بين الرب والشيطان، بين الموت والحياة الأبدية. لقد توانى كثيرًا، وخاض في الخطيئة كثيرًا، ولن يسمعه الرب.لقد فات الوقت الموعود وأشاح الرب بوجهه بعيدًا.

«حينئذ»، كما شهد، «سمعت أمي تغني. كانت تغني من أجلي. كان غناؤها خفيضًا عذبًا، إلى جانبي مباشرة، وكأنها كانت تعرف أنها إذا دعت الرب فسوف يأتي». عندما سمع هذا الغناء، الذي ملأ الفضاء الصامت، وامتد حتى ملأ كل الأرض المنتظرة، انفطر القلب الذي بين جوانحه، وبدأ في الصعود، متحررًا من أثقاله؛ وانفك حلقه، وانهمرت دموعه وكأن السموات التي كانت تنصت انفتحت. «حينئذ شكرت الرب الذي أخرجني من مصر ووضع قدمي على الصخرة الصلبة». وعندما رفع ناظريه أخيرًا رأى سماء جديدة وأرضًا جديدة؛ وسمع صوتًا جديدًا للغناء، لأن خاطئًا قد عاد إلى بيته. «نظرت إلى يدي وكانتا يدين جديدتين. ونظرت إلى قدمي وكانتا قدمين جديدتين. وفتحت فمي للرب في ذلك اليوم ولن يجعلني الجحيم أرجع عن يقيني». أجل، كان ثمة غناء في كل مكان؛ كانت الطيور والجنادب والضفادع في حال من البهجة، وكانت الكلاب البعيدة تتقافز وتلهث، حبيسة في حدائقها الضيقة، والديوك تصيح من على الأسوار المرتفعة بأنه ها هنا بداية جديدة، يوم جديد مغسول بالدم!

وكانت هذه هي بداية حياته كرجل. كان قد تجاوز الواحدة والعشرين لتوه؛ ولم يكن مضى من عمر القرن سوى عام واحد. انتقل إلى المدينة، إلى تلك الغرفة التي كانت تنتظره على سطح ذلك المنزل الذي كان يعمل به، وبدأ يمارس الوعظ. تزوج من ديبورا في نفس العام. فبعد موت أمه كان قد بدأ يراها طول الوقت. يذهبان إلى بيت الرب معًا، ولما لم يكن هناك من يرعاه، كانت تدعوه مرارًا إلى بيتها لتناول الطعام، وتقوم على الاعتناء بملابسه، وبعد أن بدأ في الوعظ كانا يتناقشان في المواعظ التي سيلقيها؛ بمعنى أدق كان يستمع إليها بينما هي تمجد الرب.

من ناحية أخرى، كانت هناك حكايتها الشهيرة، تاريخها، الذي كان يكفي، حتى لو لم تكن عاطلة تمامًا من الجمال والجاذبية، لكي يضعها للأبد بعيدًا عن أبواب رغبة أي رجل محترم. كانت هيئتها الساكنة الصلبة توحي في الحقيقة بأنها تعي ذلك: بينما تعتقد نساء أخريات أن سرهن وسحرهن الخاص يكمن في تلك المتعة التي يمكن أن يمنحنها ويشاركنها، كانت هي لا تنطوي إلا على الإحساس بالعار الذي تحمله – العار هو كل ما كان يمكن أن تمنحه ما لم تنقذها معجزة من حب إنساني. لذلك كانت تسير بين تلك الجماعة الصغيرة كامرأة ابتلاها الرب على نحو غامض، كمثل مروع للتواضع، أو

كبلهاء مقدسة. لا شيء يزين جسدها البتة؛ لا رنين الحلي أو بريقها، ولا نعومة. لا شريط زينة يزخرف غطاء رأسها النظيف الذي لا تشوبه شائبة؛ فقط أقل القليل من الزيت على شعرها الجعد. لم تكن تثرثر بالنميمة مع النساء الأخريات، فلم يكن لديها في واقع الحال ما تتناوله بالنميمة، كانت «نعم» و «لا» فقط هما كل ما تنبس به، تقرأ الكتاب المقدس وتمارس صلواتها. كان ثمة أناس في الكنيسة، من بينهم رجال من حملة الإنجيل، يسخرون منها من وراء ظهرها؛ ولكن سخريتهم كانت وجلة؛ كانوا يتخوفون أنهم ربما يسخرون من أعظم القديسات بينهم، من كنز الرب الفريد ووعائه الأقدس.

كان جبريل يقول لها أحيانًا: «من المؤكد أنك عطية الرب لي، يا أخت ديبورا، لا أدري ماذا كنت سأفعل من دونك».

كانت تسانده وتدعمه في وضعه الجديد على نحو غاية في الروعة؛ فبإيمانها الذي لا يتزعزع بالرب، وإيمانها به، كانت تمثل شاهدًا أرضيًا على وظيفته الجديدة كواعظ، أكثر من الخطاة الذين كانوا يأتون باكين إلى المذبح بعد أن ينتهي من موعظته؛ وعندما كانت تتحدث حديث الرجال، إذا جاز التعبير، كانت تضفي واقعية على العمل الجليل الذي وضعه الرب في يدي جبريل.

كانت تنظر إليه بابتسامتها الحيية: «فلتصمت أيها المبجل. إنني لا أسجد مرة إلا وأشكر الرب عليك».

ما نادته ولو مرة واحدة باسمه جبريل أو «جيب»؛ لم تكن تخاطبه منذ أن بدأ يعظ إلا بكلمة المبجل، فجبريل الذي عرفته طفلاً انتهي وأصبح رجلاً جديدًا في عيسى المسيح.

«هل تصلك أي أخبار من فلورنس؟» كانت تسأله أحيانًا.

«يا إلهي، يا أخت ديبورا، إنه أنا من ينبغي أن يسألك. هذه البنت لا تكتب لي مطلقًا».

«حقيقة لم أسمع منها مؤخرًا». سكنت لبرهة ثم أضافت: «لا أظن أنها سعيدة هناك في الشمال».

«هذا ما تستحقه – لم يكن هناك ما يستدعي رحيلها عن هنا مثلما فعلت، لقد تصرفت بجنون». حينئذ سأل بحقد: «هل أخبرتك إن كانت قد تزوجت بعد أم لا؟»

نظرت إليه نظرة خاطفة ثم حولت عينيها بعيدًا وقالت: «فلورنس لا تفكر في الزواج».

ضحك قائلاً: «بارك الله في قلبك الطاهر، يا أخت ديبورا. إن لم تكن هذه البنت قد رحلت من أجل البحث عن زوج، فلن أكون جبريل جرايمز».

«يبدو لي أنها إن كانت تريد زوجًا كان بإمكانها أن تلتقط واحدًا هنا. من المؤكد أنـك لا تعنـى أنهـا قطعـت كـل هـذه الرحلة للشمال من أجل الحصول على زوج؟» وابتسمت عـلى نحو غريب ابتسامة بها شيء من الحياد الصارم. ففكر هو حين رأى تلك الابتسامة أنها يقينًا تركت أثرًا غريبًـا عـلى وجههـا: فقد بدا كوجه بنت مذعورة.

ثم قال وهو ينظر إليهـا بإمعـان أكثـر: «هـل تعلمـين أن فلورنس كانت لا ترى أيًا من هؤلاء الزنـوج الموجـودين هنـا مناسبًا لها».

غامرت بالسؤال: «ترى هل ستجد رجـلاً مناسـبًا لهـا في أي وقت. فهي شديدة الكبرياء – ويبدو أنها لن تسمح أساسًا لأي رجل أن يقترب منها».

قال عابسًا: «نعم، إنهـا شـديدة الكبريـاء وسـوف يـذلها الرب ذات يوم. ولتتذكري كلامي».

تنهدت قائلة: «حقًا، إن الكتاب المقدس يخبرنـا أنـه قبـل الخيبة الكبرياء».

«وأنه قبل السقوط تشامخ الروح .. هـذا كـلام الكتـاب المقدس».

«حقًا»، قالت وهي تبتسم مرة أخرى، «إن كلمة الرب لا مفر منها، أليس كذلك أيها المبجل؟ لا تملك إلا أن تؤمن بهـا،

هذا كل ما هنالك – لأن كل كلمة من الرب هي الحق، ولن تصمد أبواب الجحيم أمامها».

ابتسم وهو ينظر إليها، وشعر بحنان يملأ قلبه. «فلتتمسكي بكلام الرب، أيتها الأخت الصغيرة. ولسوف تنفتح نوافذ السماء وتمطرك بالبركات حتى تحتاري أين تحتفظين بها».

عندما ابتسمت هذه المرة كانت ابتسامتها مترعة بالفرحة. «لقد باركني الرب أيها المبجل. لقد باركني عندما أنقذ روحك وبعث بك لتعظ إنجيله».

قال ببطء: «أخت ديبورا، هل كنت تصلين من أجلي عندما كنت غارقًا في الخطيئة كل هذا الوقت؟»

أصبحت نبرة صوتها خفيضة للغاية. «حقًا، كنا نصلي أيها المبجل، أنا وأمك، كنا نصلي طوال الوقت».

ونظر إليها وهو ممتلئ بالعرفان وبحدس مفاجئ جامح: لقد كان محط اهتمامها، كانت ترقبه، وتصلي لأجله طوال كل هذه السنوات بينما كانت هي بالنسبة له مجرد ظل لا أكثر. كانت لا تزال تصلي لأجله؛ وكان يرغب في أن تساعده صلواتها طوال حياته – وكان يرى ذلك في وجهها الآن. لم تفه بشيء، ولم تتبسم، كانت تنظر إليه فقط بحنانها الرزين، على محياها تساؤل ما وشيء من الخجل.

قال لها أخيرًا: «باركك الرب، يا أختاه».

في أثناء هذا الحوار الذي دار بينهما، أو ربما في أعقابه مباشرة، شهدت البلدة مؤتمرًا إحيائيًا ضخمًا. فقد وفد المبشرون من كل المقاطعات المجاورة، من أقصى الجنوب من فلوريدا، ومن أقصى الشمال من شيكاغو، ليلتقوا في مكان واحد ويكسروا خبز الحياة. كان يطلق على هذا التجمع المؤتمر الإحيائي للآباء الأربع والعشرين، وكانت تلك هي المناسبة العظيمة في ذلك الصيف. كان هناك أربع وعشرون من آباء الكنيسة، لكل منهم ليلة للوعظ – ليتألق إذا جاز التعبير، أمام الناس، وليمجد أباه السماوي. ومن بين هؤلاء الأربع وعشرين، كان هناك رجال ذوو سلطة وخبرة عظيمتين، وكان بعضهم ذا شهرة عظيمة، وكانت مفاجأة لكبرياء جبريل أن يتم اختياره ليكون بينهم. لقد كان شرفًا عظيمًا مبهظًا لشاب حديث العهد بالإيمان، وصغير في العمر – كان بالأمس فقط يرقد غارقًا في قيئه في حمأة الرذيلة – وشعر جبريل بقلبه يخفق هلعًا وهو يتلقى دعوته. ومع ذلك شعر أن يد الرب هي التي تمتد لتختاره مبكرًا ليثبت جدارته أمام هؤلاء الرجال العظام.

كان سيعظ في الليلة الثانية عشرة. وقد تحدد هذا الموعد تخوفًا من فشل محتمل في أن يجذب المستمعين، فوضع في الوسط بين عدد متساوٍ تقريبًا من الرجال المحنكين. ومن ثم

فسوف يستفيد من العاصفة التي كانوا سيثيرونها يقينًا قبله؛ وإذا ما فشل في تعزيز الأثر الطيب الذي سيتركونه، فسوف يأتي من بعده من يغطي على أدائه.

ولكن جبريل لم يكن يرغب في أن ينطمس أداؤه – وهو أهم حدث في حياته المهنية حتى الآن، وعليه تتوقف كثير من الأمور؛ لم يكن يرغب في أن يتم نبذه كمجرد صبي لم يشتد عوده بعد للسبق، أو لا يُعتبر بين المرشحين للجائزة. صام ساجدًا أمام الرب آناء الليل والنهار، داعيًا أن يكرسه الرب أداةً لعمل عظيم وأن يرى كل الناس حقًا أن يد الرب ترعاه، وأنه مسيح الرب.

شاركته ديبورا الصوم والصلاة دون أن يطلب منها، وأخذت أفضل حلة سوداء لديه لكي يتم تنظيفها وإصلاحها وكيها لليوم المشهود. وأخذتها مرة أخرى بعد الموعظة مباشرة لكي لا تكون أقل بهاء يوم الأحد في العشاء الكبير الذي كان سيختتم الإحياء. كان ذلك الأحد يوم عيد للجميع، ولا سيما للآباء الأربع والعشرين، الذين كانوا سيولمون وليمة عظيمة في ذلك اليوم على حساب أتباع الكنيسة وعملهم.

في الليلة التي كان سيعظ فيها، سار هو وديبورا إلى القاعة الكبيرة المنيرة التي شهدت منذ فترة قريبة فرقة رقص، وكان أتباع الكنيسة قد استأجروا هذه القاعة طوال فترة الإحياء.

كان القداس قد بدأ؛ وغمرت الأضواء الشوارع؛ وملأت الموسيقى الأثير؛ وتوقف العابرون ليتسمعوا ويختلسوا النظر عبر الأبواب المواربة. كان يريدهم أن يدخلوا جميعهم؛ أن يركض عبر الشوارع ويجر جميع الخطاة للداخل لكي يسمعوا كلمة الرب. ورغم ذلك، عندما اقتربوا من الأبواب، انتابه الخوف الذي كبح جماحه أيامًا وليالي كثيرة، وتخيل كيف سيقف الليلة، عاليًا ووحيدًا تمامًا لكي يؤكد الشهادة التي خرجت من فمه، بأن الرب قد دعاه للموعظة.

قال فجأة، بينما يقفان أمام الأبواب: «أخت ديبورا، هلا جلستِ حيث أستطيع أن أراك؟»

قالت: «سأفعل ذلك من المؤكد، أيها المبجل، فلتصعد للمنبر. وثق بالرب».

دونما كلمة أخرى استدار تاركًا إياها عند الباب، وسار عبر الممشى الطويل نحو المنبر. كان الآباء جميعهم قد سبقوه هناك، رجال كبار، مسترخين، مرسمين؛ ابتسموا وأومأوا وهو يصعد درجات المنبر؛ قال أحدهم وهو يشير إلى جماعة المصلين، التي كانت متحمسة كما يتمنى أي واعظ: «لقد هيأنا لك هذا الحشد من الحضور يا فتى. نريدك أن تجعلهم يصرخون الليلة».

ابتسم للحظة قبل أن يركع على كرسيه الذي يشبه العرش ليصلي؛ وتفكر مرة أخرى، كما فعل طوال إحدى عشرة ليلة؛ أن الآباء الأكبر منه كانوا في حالة من الاسترخاء والخفة في المكان المقدس، مما جعل روحه قلقة. بينما جلس منتظرًا، رأى أن ديبورا وجدت مقعدًا في صدارة صفوف المصلين، تحت المنبر تمامًا، وجلست والكتاب المقدس مغلق على حجرها.

وأخيرًا بعدما فرغوا من قراءة درس الكتاب المقدس، وألقوا شهاداتهم، وأنشدوا الأغنيات، وجمعوا التبرعات، قام الأب الذي وعظ في الليلة السابقة بتقديم جبريل، الذي وجد نفسه على قدميه يتحرك صوب المنبر حيث كان ينتظره الكتاب المقدس الضخم، وتحته من هذا الارتفاع جموع المصلين وهي تهمهم؛ شعر برعب أصابه بالدوار في وقفته على هذا الارتفاع، وفي نفس الآن شعر بفخر وفرح لا يوصفان أن الرب أنزله هذه المنزلة.

لم يفتتح بأغنية بها صيحة، أو بشهادة نارية الحماس؛ ولكن بصوت جاف محايد، مرتعش قليلاً، طلب منهم أن ينظروا على الآية الخامسة من الإصحاح السادس في سفر إشعيا، وطلب من ديبورا أن تقرأها بصوت مرتفع.

وقرأت بصوت قوي على غير المعتاد: «فقُلتُ، ويلٌ لي! هلَكتُ لأنّي رجلٌ دنِسُ الشَّفتينِ ومُقيمٌ بَينَ شعبٍ دنِسِ الشِّفاهِ. فالذي رأتْهُ عينايَ هوَ المَلِكُ الرّبُّ القديرُ».

ران الصمت على القاعة بعد أن قرأت هذه الجملة. للحظة دب الرعب في جبريل من الأعين المحدقة به، ومن الآباء الكبار الجالسين خلفه، ولم يعرف كيف يواصل خطبته. ثم نظر إلى ديبورا وبدأ.

هذه الكلمات قالها النبي إشعيا، الملقب بعين النسر لأنه نظر عبر القرون المظلمة وتنبأ بمولد المسيح. وهو أيضًا من تنبأ بأن الإنسان يجب أن يكون كالملاذ من الرياح والعواصف، إشعيا هو الذي وصف طريق القداسة، قائلاً إن الأرض الجرداء تصير بحيرة والأرض العطشى ينابيع ماء: والصحراء نفسها ستبتهج، وتزهر كالوردة. إشعيا هو من تنبأ، قائلاً: «لأنّهُ يولَدُ لَنا ولَدٌ ويُعطَى لَنا ابنٌ وتكونُ الرِّئاسةُ على كَتِفِهِ». لقد كان إشعيا رجلاً نشّأه الرب على الحق، واختاره ليؤدي كثيرًا من الأعمال الجليلة، ومع ذلك، فقد صرخ هذا الرجل، وهو يرى مجد الرب: «ويلٌ لي!»

«أجل!» صاحت امرأة. «أخبرنا!»

«ثمة درس لنا جميعًا في صرخة إشعيا تلك، ثمة معنى لنا جميعًا، وقول صعب. إن لم نكن صرخنا تلك الصرخة، فنحن

لم نعرف بعد الخلاص؛ إن فشلنا في العيش مع تلك الصرخة كل ساعة، وكل يوم، في منتصف الليل، وفي وضح الظهيرة، فقد هجَرَنا الخلاص وزلت قدمنا في الجحيم. أجل، ليتبارك الرب للأبد! عندما نكف عن خشيته نزيغ عن الطريق».

«آمين!» صرخ صوت من بعيد. «آمين! فلتعظنا، يا فتى!»

سكن لبرهة ومسح جبهته، وشعر بالقلب الذي بين جوانحه يترع بالرهبة والرعشة، وبالقوة.

«دعونا نتذكر أن عقاب الخطيئة هو الموت؛ فمكتوب أن الروح التي تخطئ سوف تموت، لا مندوحة عن ذلك. فلنتذكر أننا نولد في الخطيئة، وتحملنا أمهاتنا في الخطيئة – الخطيئة تسري في كل عضو من أعضائنا، الخطيئة هي السائل الطبيعي الذي يجري في القلب الفاسد، الخطيئة تنظر من العين، آمين، وتودي إلى الشهوة، الخطيئة في سمع الأذن، وتودي إلى الحماقة، الخطيئة تستقر على اللسان، وتودي إلى القتل. أجل! الخطيئة هي الميراث الأوحد للإنسان الطبيعي، الخطيئة هي ميراثنا الذي أورثنا إياه أبونا الطبيعي، آدم الذي سقط من الجنة، الذي أسقمت تفاحتُه وسوف تسقم كل الأجيال الحية، والأجيال التي لم تولد بعد! إنها الخطيئة التي دفعت ابن الصباح خارج الجنة، الخطيئة التي أخرجت آدم من جنة عدن، الخطيئة التي جعلت قابيل يذبح أخاه، الخطيئة التي شيدت

برج بابل، الخطيئة التي أنزلت بالنار على سادوم – إنها الخطيئة، منذ بدء الخليقة، حية تتنفس في قلب الإنسان، هي التي تحكم النساء فيلدن أطفالهن في عذاب وظلمة، هي التي تحني ظهور الرجال بالكد الفظيع، وتُبقي البطن الخاوية خاوية، وموائد الطعام خالية، وترسل بأطفالنا، في أسمال بالية، إلى بيوت الرذيلة والمراقص الموجودة في العالم!»

«آمين! آمين!»

«آه. ويل لي. ويل لي. أجل، يا أحبائي – لا خير في الإنسان. كل قلوب البشر ملؤها الشر، كل البشر كاذبون – الرب وحده هو الصادق. اسمعوا صرخة داود: «الرّبُّ صخرتي وحِصني ومُنقِذي إلهي صخرَتي وبهِ أحتمي، وتُرْسي وحِصْنُ خلاصي ومَلْجأي». فلتسمعوا أيوب، وهو يجلس في التراب والرماد، بعد أن مات أولاده، وذهبت ثروته، يحيط به المعزون الزائفون: «هو ذا يقتلني لا أنتظر شيئًا فقط أزكي طريقي قدامه». اسمعوا بولس، الذي كان يدعى سول من قبل، وكان من الذين يضطهدون المخلصين، ثم ضربته صاعقة الرب على الطريق إلى دمشق، فشرع في نشر الإنجيل: «فإذا كُنتُم لِلمَسيحِ فأنتُم، إذًا، نَسلُ إبراهيمَ ولكمُ الميراثُ حسَبَ الوَعدِ!»

«إيهِ»، صاح أحد الآباء «نعم فليتبارك الرب للأبد!»

«للرب خطة. فإنه لن يدعَ روح الإنسان تهلك، بل أعد العدة لخلاصه. ففي البدء، عندما وضع الرب أسس العالم، كانت له خطة، آمين! ليهدي جميع البشر إلى معرفة الحقيقة. فِي البَدْءِ كانَ الكَلِمَةُ، والكَلِمَةُ كانَ عِندَ الله – أجل، و فيهِ كانَتِ الحياةُ، هللوليا! وهذه الحياة كانت نور البشر. أحبائي الأعزاء، عندما رأى الرب كيف طمس الشر على قلوب البشر، وكيف انحرفوا، كل في طريقه، وكيف تزوجوا وكيف تخلوا عن زواجهم، وكيف أولموا على اللحم والشراب الدنسين، وكيف اشتهوا، وجدفوا، ورفعوا قلوبهم في غرور الخطيئة ضد الرب – آه، حينئذ، توجه ابن الرب، الحمل المبارك الذي يحمل عن العالم خطاياه، ابن الرب الذي كان الكلمة وقد تجسدت بشرًا وتحقيقًا للوعد – آه، حينئذ، توجه إلى أبيه، صائحًا: «أبي، أعدّ لي جسدًا وسوف أنزل لأفتدي الإنسان الخاطئ».

«فلتملأنا المسرة هذا المساء، مجدوا الرب!»

«أيها الآباء الحاضرون معنا الليلة، هل لديكم ولد انحرف عن الطريق؟ أيتها الأمهات، هل رأيتن بناتكن وقد هلكن في زهو الشباب وريعانه؟ هل سمع أي منكم الأمر الذي نزل على إبراهيم بأن يجعل ابنه فداءً حيًا على مذبح الرب؟ أيها الآباء، فلتنظروا إلى أبنائكم وكيف تخشون عليهم،

وحاولوا أن تهدوهم سواء السبيل، وأن تطعموهم حتى يكبروا أشداء؛ فكروا في حبكم لأبنائكم، وكيف يصدع قلوبكم أي أذىً يصيبهم، وفكروا بالألم الذي احتمله الرب، وهو يرسل ابنه الأوحد، ليقيم بين البشر على تلك الأرض الضالة، لكي يتعذب، ويتألم، ويحمل الصليب ويموت – ليس لخطاياه، كأبنائنا الطبيعيين، ولكن من أجل كل خطايا العالم، ولكي يمحو كل خطايا العالم، لذا فلتدق أجراس المسرة في أعماق قلوبنا الليلة!»

«مجدوا الرب!» صاحت ديبورا، وكان لم يسمع صوتها من قبل قط بهذا العلو.

«ويل لي، لأنه عندما ضرب الربُ الخاطئَ، كانت عينا الخاطئ مفتوحتين، ورأى نفسه في دنسه عاريًا أمام مجد الرب. ويل لي! لأن لحظة الخلاص نور مبهر، يصدع القلب من السماء – السماء في عليائها والخاطئ في حمأته. ويل لي! لأنه ما لم يرفع الربُ الخاطئَ، فلن تقوم له قائمة!»

«أجل، يا إلهي! لقد كنت هناك!»

كم من الحاضرين هنا الليلة خرّ حيثما خرّ إشعيا؟ وكم بكى مثلما بكى إشعيا؟ وكم شهد كما شهد إشعيا، «لأن عيني رأتا الملك رب الجنود»؟ آه، من فشل في أن ينطق بتلك الشهادة يجب ألا ينظر في وجه الرب، بل أن يُقال له يوم

الحساب: «ابتعدوا عني يا أشرار»، ولتهلكوا للأبد في بحيرة النار التي أُعدَّت لإبليس وزبانيته. آه، هل يقف الخاطئ الليلة، ويسير تلك المسافة الصغيرة لخلاصه، هنا نحو كرسي الرحمة؟

وراح ينتظر. كانت ديبورا ترقبه بابتسامة هادئة قوية. أدار بصره في وجوههم، وكانت كلها تتطلع إليه. رأى الفرح في تلك الوجوه، والنشوة المقدسة، والإيمان – كان الجميع يتطلعون إليه. حينئذ، في آخر القاعة، نهض صبيٌ فارع الطول أسود، قميصه الأبيض ممزق ومفتوح عند العنق، وسرواله رث مغبر، ترفعه ربطة عنق قديمة، نظر عبر المسافة الشاسعة المخيفة اللاهثة نحو جبريل، وشرع يقطع الممشى الطويل الساطع. صاح أحدهم: «آه، ليتبارك الرب!» واغرورقت عينا جبريل بالدموع. ركع الصبي، وهو ينشج، على كرسي الرحمة، وطفقت الكنيسة في الغناء.

ابتعد جبريل، وهو يعي أنه قد أبلى بلاء حسنًا هذه الليلة، وأن الرب استخدمه. كان الآباء يبتسمون، وأخذه أحدهم من يده وقال: «لقد كانت موعظة عظيمة، يا فتى. حقًا عظيمة».

ثم جاء يوم الأحد الذي أقيمت فيه مأدبة العشاء الفخيمة التي كانت ختامًا للاحتفال. وكانت ديبورا وكل النساء الأخريات قد قمن بأعمال الخبز والشواء والقلي والغلي على مدار أيام كثيرة لأجل هذا العشاء. وكان جبريل يمازحها، ردًا

على مجاملتها له بأنه كان أفضل واعظ في الاحتفالية كلها، بأنها أفضل طاهية بين النساء. قالت له على استحياء إنـه لـيس في وضع يتيح له المجاملة، لأنها سمعت كل الوعاظ، بينـما هـو لم يأكل من طبخ غيرها من النساء لفترة طويلة للغاية.

عندما حلّ يوم الأحد، ووجد جبريل نفـسه مـرة أخـرى بين الآبـاء الكبـار، في طـريقهم إلى المائـدة، شـعر بانخـساف سعادته، وتشوفه المزهو. لم يشعر بالارتياح في حـضرة هـؤلاء الرجال – هذا هو الأمر – كان عسيرًا عليه أن يتقبلهم كآبائـه الذين يفضلونه في الإيمان. بدوا له على قدر كبير من التـسيب، بل أقرب إلى أمور الدنيا؛ لا يشبهون في شيء أولئـك الأنبيـاء المقدسين القدماء الذين نحلوا وتجردوا عراة في خدمـة الـرب. أما هؤلاء، قساوسة الرب، فقد ترهلوا بدانة، وتنوعت ثيابهم المنعمة. ولم يعودوا يرتجفون في حضرة الرب من طول خبرتهم في ميدان الوعظ. تعاملوا مع قوة الرب كأنها تخصهم وحدهم، كأنها وسيلة لإضفاء مزيد من الإثارة على حضورهم الواثـق. بدا الأمر وكـأن بحـوزة كـل مـنهم حقيبـة مملـوءة بـالمواعظ يرددونها؛ ويعرفون مـن نظـرة عـين أي موعظـة تـصلح لأي جمهور من رواد الكنيـسة. ومـع أنهـم كـانوا يعظـون باقتـدار عظيم، ويدفعون بالأرواح راكعة أمام المذبح – كأنهـا سـنابل القمح وقد حصدتها يد العامل الأجير في عمل يومه – إلا أنهم

لم يوفوا الرب قدره من المجد، بل لم ينظروا إلى الأمر على أنه مجد الرب على الإطلاق؛ كان من الممكن بنفس القدر من السهولة أن يكونوا لاعبين في السيرك، كما فكر جبريل، كلٌ وموهبته المذهلة. اكتشف جبريل أنهم كانوا يتحدثون في مزاح حول عدد الأرواح التي ساعد كل منهم في خلاصها، وكأنهم يقارنون ما أحرزوه في قاعة لعب البلياردو. استاء جبريل من ذلك وشعر بالخوف. لم يكن يرغب البتة في أن يتعامل مع هبة الرب التي منحه إياها بهذا القدر من الاستخفاف.

كان الطعام يقدم للقساوسة الكبار وحدهم في غرفة الطابق الأعلى من القاعة – أما الأقل تخصصًا من العاملين في كرمة المسيح فكانوا يُطعَمون على مائدة في الطابق الأرضي – وظلت النساء تصعدن وتهبطن الدرج بأطباق مكدسة حتى تتأكدن أنهم أكلوا حتى الشبع. كانت ديبورا واحدة من النسوة القائمات على الخدمة، ورغم أنها لم تنبس بكلمة، ورغم عدم إحساسه بالارتياح، كاد أن يتفجر في كل مرة يراها تدلف إلى الغرفة من الإحساس بالفخر الذي كان يعرف أنها تشعر به لرؤيته جالسًا هناك، في سكينة وثقة بين كل هؤلاء المشاهير، في ردائه الصارم ذي اللونين الأسود والأبيض. وراوده الشعور لو أن أمه كانت هنا لتراه – لترى ابنها الحبيب جبريل، في هذه المنزلة الرفيعة!

ولكن قرب نهاية العشاء، عندما أحضرت النساء الفطائر والقهوة والكريمة، وعندما غدا الحديث حول المائدة أكثر مرحًا وانطلاقًا، لم يكد الباب يغلق خلف النساء حتى شرع أحد الآباء – وكان قسًا سمينًا مرحًا ذا شعر بني فاتح، يشي وجهه، المنمش ببقع تشبه الدم المتخثر، صراحة بالعنف الذي اكتنف شبابه – في الضحك قائلاً، وهو يشير إلى ديبورا، يا لها من امرأة مقدسة حقا! لقد اختنقت في باكر حياتها بحليب الرجال البيض، ومازال هذا اللبن فاسدًا حتى الآن في أحشائها، ولن تستطيع الآن أن تجد زنجيًا يذيقها حليبه الأكثر دسامة ولذاذة. انطلقت قهقهات الجالسين إلى المائدة، ولكن جبريل شعر بالبرودة تجري في دمه، فخدم الرب يجب أن يشعروا بالذنب إزاء ذلك الاستهتار المقيت، وانتهاكهم لتلك المرأة التي أرسلها الرب لتسكن من روعه، والتي كان ليسقط على قارعة الطريق دون سندها. كان يعرف أنهم يشعرون في قرارة أنفسهم أن قليلاً من الضحك الصفيق فيما بينهم لا ضرر فيه؛ فإيمانهم من العمق بمكان لا يعرضهم للسقوط من جراء طرقة خفيفة من مطرقة إبليس. ولكنه راح ينظر إلى وجوههم الصاخبة الضاحكة، وشعر أنهم سيُساءلون عن الكثير يوم الحساب، لأنهم حَجر عثرة في طريق المؤمن الحقيقي.

حينئذ، وقد صدمه وجه جبريل المندهش المليء بالمرارة، توقف الرجل ذو الشعر البني الفاتح عن الضحك فجأة وقال: «ما الأمر، يا بني؟ آمل ألا أكون قد قلت شيئًا أساءك؟»

«لقد كانت تقرأ لك الكتاب المقدس تلك الليلة التي كنت تعظ فيها، أليس كذلك؟» سأل قسٌّ آخر في نبرة تهدئة.

قال جبريل وهو يشعر هديرًا في رأسه: «تلك المرأة هي أختي في الرب».

قال آخر: «حسنًا، إن القس بيترز لم يكن يعلم ذلك، من المؤكد أنه لم يقصد أيّة إساءة».

«الآن، لا أظن إنك سوف تغضب؟» سأله القس بيترز متعطفًا – ومع ذلك ظل وجهه وصوته يحملان شيئًا من التهكم رغم انتباه جبريل الشديد. «لن تفسد عشاءنا الصغير هذا؟»

قال جبريل: «لا أعتقد أنه من الصواب اغتياب أي امرئ. فالإنجيل يعلمنا أنه من الشر أن نسخر من أي امرئ».

قال الأب بيترز بنفس التعطف السابق: «تذكر الآن أنك تتحدث إلى رؤسائك الكبار».

رد عليه جبريل وهو مندهش من جرأته: «يبدو لي أنه إذا كان يتوجب علي أن أتطلع إليك كمثل أعلى، فمن ثم يجب أن تكون هذا المثل».

قال قس آخر في خفة ومرح: «على ما أظن أنك لا تنوي أن تتخذ من تلك المرأة زوجة أو شيئًا من هذا القبيل – لذا لا

داعي لأن تأخذك الحمية وتفسد احتفالنا الصغير هذا. لم يقصد الأب بيترز أية إساءة. وإذا كنت أنت نفسك لم تتفوه أبدًا بما هو أسوأ من ذلك، فلتعتبر نفسك إذن في مملكة الرب بين المختارين».

اجتاحت المائدة عاصفة صغيرة من الضحك لسماع هذا؛ وعاد الجميع إلى ما كانوا فيه من طعام وشراب، وكأن الموضوع قد انتهى.

شعر جبريل رغم ذلك أنه باغتهم؛ لقد كشف أمرهم واعتراهم شيء من الخجل والاضطراب أمام طهارته. وفجأة تبصر بكلمات المسيح، في قوله: «لأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ، وقليلين يُنْتَخَبُونَ». أجل، نظر إلى الجالسين إلى المائدة مرة أخرى، وكانوا قد رجعوا إلى ما كانوا فيه من طرب، ولكنهم كانوا يرقبونه الآن أيضًا – وتساءل مَنْ، مِن كل هؤلاء، سوف يجلس في مجد على يمين الرب؟

وبينما هو جالس في مكانه يتذكر مرة أخرى ملاحظة الأب بيترز الماجنة التافهة، حركت هذه الملاحظة بداخله كل الشكوك الغامضة والمخاوف، ونوبات التردد والحنو، التي كانت تكتنفه في علاقته بديبورا، وأدرك أنها في مجملها تنم عن يقينه أن ثمة شيئًا في هذه العلاقة مقدرًا ومكتوبًا سلفًا. خطر له أنه كما منحه الرب ديبورا لتساعده وتدعمه، فإنه أرسله لها،

ليرفعها، ويحررها من ذاك العار الذي يجللها في عيون الرجال. واجتاحته تلك الفكرة، في لحظة واحدة، في سورة كأنها رؤيا: أي امرأة أفضل منها يمكن أن يجدها؟ فهي لم تكن كبنات صهيون المتخطرات في مشيهن! لم يرها أحد تتقافز في فحش في الشوارع، وعيناها ناعستان وفمها مفتوح في اشتهاء، ولم يجدها أحد تموء تحت الأسوار في منتصف الليل، وهي عارية، أو وهي تعري عورة فتى أسود! لا، لسوف يكون فراش زواجهما مقدسًا، ولسوف يواصل أطفالهما نسل المؤمنين، نسلاً ملكيًا. وبمجرد أن ألهبت هذه الفكرة خياله حتى اندلعت نار أحط في دخيلته أيضًا، موقظة خوفًا نائمًا، وتذكر (وقد اجتاحته المائدة، والقساوسة، والعشاء، والحديث مرة أخرى) أن القديس بولس كتب: «لأن التَّزَوُّجَ أَصْلَحُ مِنَ التَحَرُّقِ».

ومع ذلك، فكر أن من المستحسن أن يتريث قليلاً؛ فسوف يسعى إلى اجتلاء إرادة الرب في هذه المسألة. لأنه تذكر أنها تكبره بثمانية أعوام؛ وحاول أن يتخيل ذلك العار الذي تعرضت له ديبورا منذ سنوات بعيدة على يد الرجال البيض: تنورتها مرفوعة تغطي رأسها وسِرَها وقد تَعَرَّى – على يد الرجال البيض. كم كانوا؟ كيف تحملت الأمر؟ هل صرخت؟ ثم تفكر في الابتسامات، وكل الهواجس القذرة، التي تكاد تكون نائمة الآن، والتي ستنشق الأرض وتتفرع بين عشية وضحاها كأنها يقطينة يونان، التي سوف يثيرها زواجه

من ديبورا (ولكن الأمر لم يزعجه حقًا، لأنه إذا كان المسيح قد صُلب لكي يفتديه، فمن الممكن أن يتعرض هو للسخرية من أجل مجد المسيح الأعظم). هي، التي كانت دليلاً حيًا وشاهدًا على عارهم اليومي، والتي أضحت البلهاء المقدسة بينهم – وهو، من كان يفسد في بناتهم بلا وازعٍ، ويسرق نساءهم، ويسير بينهم أميرًا للظلام! ابتسم وهو يرقب وجوه القساوسة الممتلئة بالطعام ونواجذهم الطاحنة – كلهم رعاة غير مقدسين، وخدم غير مؤمنين؛ صلى داعيًا ألا يصير سمينًا مثلهم، أو شَرِهًا، وأن يجعله الرب أداةً للأعمال العظيمة: أن يكون كالناقوس، يجلجل عبر الأزمنة التي لم تولد بعد، دليلاً جميلاً، رزينًا، قويًا على محبة الرب ورحمته. أصابته رجفة من الحضور الذي اكتنفه الآن؛ كان يتقلقل في مقعده. شعر أن النور يشرق عليه من السماء، هو المختار: شعر بما يمكن أن يكون قد اعترى المسيح في المعبد وهو يواجه قساوسة الرب الذين اعتراهم اضطراب شديد؛ ورفع عينيه، غير آبه بنظراتهم أو نحنحاتهم، ولا بالصمت الذي ران فجأة على المائدة، مفكرًا: «أجل، الرب يعمل بطرق خفية كثيرة ليظهر معجزاته».

«يا أخت ديبورا»، قال في وقت متأخر في تلك الليلة بينما كان يصحبها إلى منزلها، «لقد ألقى الرب بشيء في قلبي وأريد منك أن تساعديني بالصلاة من أجل ذلك وتدعين أن يسددني الرب لما فيه الصواب».

تساءل إن كانت ستحدس ما كان يدور بخلده. لم يكن سوى الصبر على محياها، عندما التفتت له وقالت: «إنني أصلي طوال الوقت. ولكنني سأكثر من صلاتي هذا الأسبوع إذا كانت تلك رغبتك».

وفي أثناء تلك الفترة التي تركت للصلاة، راود جبريل حلم.

لم يستطع أن يتذكر فيما بعد كيف بدأ الحلم، وماذا حدث، ومع من كان في الحلم؛ أو أية تفاصيل أخرى. لأنه كان هناك حلمان في الحقيقة، الأول كأنه إرهاص غامض، مبهم، جهنمي بالحلم الثاني. ما يذكره من الحلم الأول، ذلك الحلم المفتتح، هو الأجواء فقط، وكانت ثقيلة تشبه أجواء يومه – الخطر يعم المكان، وإبليس على كتفه يحاول أن يصرعه أرضًا. في تلك الليلة وهو يحاول النوم، أرسل إبليس بزبانيته إلى جانب فراشه – أصدقاء قدامى كانوا له، ونساء عرفهن. كانت النساء من التجسد بمكان حتى أنه كاد أن يلمسهن؛ وسمع مرة أخرى ضحكاتهن وتنهداتهن، وشعر مرة أخرى بأفخاذهن وصدورهن تحت كفيه. رغم أنه أغمض عينيه ودعا يسوع مرارًا وتكرارًا، مرددًا اسمه، تصّلب جسده الوثني واشتعل وطفقت النساء يضحكن. وساءلنه لماذا يظل في هذا الفراش الضيق وحده بينما هن في انتظاره؛ ولماذا يغلل جسده في درع

العفة بينها يتنهدن ويتلوين في فراشهن من أجله. وتنهد وتلوى، كل حركة عذاب، كل لمسة من ملاءات الفراش مداعبة داعرة – وأكثر دنسًا في خياله حينئذ من أية لمسة أحسها في حياته. كور قبضتيه وشرع يتوسل لدم المسيح المقدس، ليدفع عنه جيوش الجحيم، ولكن هذه الحركة كانت معذبة كغيرها، وأخيرًا خر على ركبتيه ليصلي. ثم ما لبث أن سقط في نوم مضطرب – بدا له وكأنه على وشك أن يُرجَم، ثم وكأنه في حومة معركة، وعلى متن سفينة محطمة في الماء – واستيقظ فجأة، واعيًا أنه لابد وأنه كان يحلم، لأن عورته كانت مبللة بمنيه الأبيض.

حينئذ غادر فراشه مرة أخرى مرتعدًا واغتسل. كان هذا الحلم نذيرًا، عرف ذلك، وبدا كأنه يرى أمامه الهاوية التي حفرها له إبليس – عميقة ساكنة، تنتظره. تذكر الكلب الذي يعود إلى قيئه، والرجل الذي تطّهر، وسقط، وتلبسته الشياطين السبعة، فكانت عاقبته أشد سوءًا من سيرته الأولى. و أخيرًا، ركع بجوار فراشه البارد، وقد استبد بقلبه الذي بين جوانحه سقمٌ شديد حال بينه وبين الصلاة، ففكر في أونَان، الذي أهرق بذوره على الأرض بدلاً من أن يستثمرها في مواصلة نسل أخيه. خارج بيت داود، ابن إبراهيم. ثم نادى مرة أخرى باسم يسوع؛ وراح في النوم مرة أخرى.

ثم حلم كأنه في مكان بارد شاهق كأنه جبل. كان على ارتفاع شاهق جدًا حتى أنه كان يمشي بين الغيوم والسحب، ومن أمامه يمتد السفح العاري، وجانب الجبل المنحدر. ناداه صوت: «اصعد». وشرع في التسلق. بعد فترة، وهو متعلق بالصخور، وجد نفسه بين السحب من فوقه والغيوم من تحته: «إلهي، لا أستطيع أن أصعد أكثر من هذا». ولكن الصوت كرر بعد لحظة، في هدوء وقوة، وعلى نحو يستحيل رده: «اصعد، يا بني. اصعد إلى أعلى». عندئذ أدرك أنه إذا أراد ألا يسقط إلى حتفه عليه أن يطيع الصوت. شرع في التسلق مرة أخرى، وزلت قدماه مرة أخرى؛ وعندما ظن أنه سوف يسقط ظهرت أمامه أوراق خضراء بها أشواك؛ وتشبث بالأوراق، التي جرحت يديه، وناداه الصوت مرة أخرى: «اصعد إلى أعلى». وواصل جبريل التسلق، والريح تعصف خلال ملابسه، وبدأت قدماه تنزفان، وكانت يداه تنزفان؛ وظل يتسلق، وهو يشعر أن ظهره يتكسر؛ ودب الخدر في ساقيه اللتين طفقتا ترتعشان ولا يملك عليهما سيطرة؛ كان لا يرى أمامه سوى السحب، والغيوم تهدر من تحته. كم من الوقت مر وهو يتسلق في حلمه، لم يكن يدري. وفجأة انشقت السحب، وشعر بالشمس كأنها تاج من المجد، ورأى نفسه في حقل هادئ ملؤه السلام.

راح يسير. وكان يرتدي حينئذ ثوبًا أبيض طويلاً. وسمع غناءً: «تنزهتُ في الوادي، وكان بديعًا، وسألتُ ربي هل كل هذا ملك يدي». لكنه كان يعلم أن كل هذا له. قال صوتٌ: «اتبعني». وظل يسير، ووجد نفسه مرة أخرى على حافة جرف هارٍ، ولكن تغمره الشمس الساطعة وتباركه وتمجده، فوقف كإله مذهب، ونظر إلى السفح من تحته، على مضمار السبق الذي ركضه، وعلى جانب الجبل المنحدر الذي تسلقه. والآن وهو على قمة ذلك الجبل، في ثياب بيضاء، يغني، جاء المختارون. «لا تمسهم»، قال الصوت، «فخاتمي عليهم». استدار جبريل وخر على وجهه، وقال له الصوت مرة أخرى: «سيكون نسلك هكذا». ثم استيقظ. كان الصباح عند النافذة، فبارك الرب، وهو يرقد في فراشه والدموع تَسُحُ على وجهه، من الرؤيا التي رآها.

عندما ذهب إلى ديبورا ليخبرها أن الرب قد ساقه إلى أن يطلبها زوجة له، ورفيقة مقدسة، نظرت إليه لبرهة فيما بدا وكأنه رعب صامت. لم ير على وجهها من قبل تعبيرًا كهذا. وللمرة الأولى منذ عرفها لمسها، ووضع يديه على كتفيها، وهو يفكر أي لمسات غليظة عانى هذان الكتفان، وأنها ستعلو شرفًا. سألها: «هل أنت خائفة، يا أخت ديبورا؟ ليس هناك ما تخافينه»

حاولت أن تبتسم، ولكنها طفقت تبكي. وتركت رأسها يسقط على صدره في حركة عنيفة ومترددة في آن معًا.

راح يُمسّد رأسها الجعد المنحني. ثم قال لها مستسلمًا: «باركك الرب، أيتها الفتاة الصغيرة، باركك الرب».

تبدد الصمتُ الذي لف الكنيسة عندما صرخ الأخ إليشا، وهو راكع قرب البيانو، وسقط على ظهره تحت قوة الرب. ما لبث أن صرخ اثنان أو ثلاثة آخرون، واجتاحت الكنيسة ريح، تحمل البشارة بالغيث العظيم الذي كانوا في انتظاره. مع هذه الصرخة، والصرخات المتجاوبة، سار القداس الليلي من مرحلته الأولى بمهمتها الرتيبة، التي تقطعها التأوهات والصرخات من حين لآخر، إلى مرحلة الدموع والأنين، ورفع الصوت بالنداء والغناء، كأنه مخاض امرأة توشك أن تلد طفلها. على بيدر دِراس الحنطة هذا، كان الطفل هو الروح التي تنافح من أجل الوصول للنور، والكنيسة هي المرأة في مخاضها، لا تكف عن الدفع والجذب، وهي تنادي باسم يسوع. عندما انطلقت صرخة الأخ إليشا وسقط على ظهره، هبت الأخت ماكاندلس ووقفت فوقه لتساعده بالصلاة. لأن ولادة الروح دائمة؛ لا شيء يدفع يد إبليس إلا تجدد الميلاد كل ساعة.

شرعت الأخت برايس في الغناء:

«أريد أن أعبر، يا إلهي،

أريد أن أعبر.

فلتساعدني على العبور، يا إلهي،

فلتساعدني».

صوت وحيد، تبعته أصوات الآخرين، ومن بينهم صوت چون متهدجًا. تعرف جبريل على الصوت. فعندما صرخ إليشا، أعاد صوته جبريل في لحظة إلى زمانه ومكانه في الحاضر، كان يخشى أن الصوت الذي سمعه هو صوت چون، وأن چون هو من يرقد مذهولاً تحت قوة الرب. تطلع إلى أعلى قليلاً وتلفت حوله؛ ولكنه أدرك أنه إليشا، فتبددت مخاوفه.

«فلتكن إرادتك، يا إلهي،

فلتكن إرادتك».

لم يكن أي من ولديه هنا الليلة، لم يصرخ أي منهما على أرض بيدر الدِراس. مات أحدهما منذ ما يقرب من عشرين عامًا – مطعونًا بسكينٍ في عنقه في حانة بشيكاغو. أما الابن الباقي على قيد الحياة، روي، فكان متهورًا ومتحجر القلب: يرقد في البيت الآن، صامتًا، ويحمل مرارة ضد أبيه، وضمادة على جبهته. لم يكونا هنا، وحده ابن الجارية كان يقف حيثما ينبغي أن يقف الابن الشرعي.

«سوف أطيع، يا إلهي،

سوف أطيع».

شعر أنه ينبغي أن ينهض ويصلي فوق إليشا – فعندما يصرخ رجل، يكون من الواجب أن يتشفع له رجل آخر. وفكر كم كان سينهض بكل سرور، ويصلي بمنتهى القوة لو كان ابنه هو الذي يرقد صارخًا على الأرض الليلة. ولكنه ظل ساجدًا على ركبتيه. كانت كل صرخة تنبعث من إليشا تمزقه. لقد سمع صرخات ابنه الميت وابنه الحي؛ الابن الذي يصرخ في الهاوية للأبد، بلا أمل في الرحمة؛ والابن الذي سيصرخ ذات يوم عندما تكون الرحمة قد انتهت.

كان جبريل يحاول الآن، بكل ما كان يحوزه من شهادة، وكل آيات الرضا التي أراه الرب إياها، أن يضع نفسه بين الابن الحي والظلمة التي كانت تنتظر لتلتهمه. لقد لعنه الابن الحي – يا ابن الزنا – وكان قلبه بمنأى عن الرب؛ لا يمكن أن تكون اللعنة التي سمعها الليلة من شفتي روي هي تكرار لنفس اللعنة التي يتردد صداها طويلاً، حتى الآن، والتي أطلقتها أم ابنه الأول وهي تدفع الطفل خارج رحمها – ثم ماتت في الحال، وكأنها حملت معها تلك اللعنة على شفتيها إلى الأبدية. لقد أتت لعنتها على ابنه الأول رويال؛ كان قد ولد في الخطيئة، وهلك في الخطيئة؛ كان ذلك عقاب الرب، وكان

ذلك عدلاً. ولكن روي ولد في فراش الزوجية، الفراش الذي وصفه القديس بولس، الذي وُعِد بمملكة الرب، بأنه مقدس. لا يمكن أن يكون الابن الباقي على قيد الحياة ملعونًا من جراء خطايا أبيه؛ فالرب قد أعطى جبريل علامةً، بعد سنوات كثيرة من العذاب، ليعرف أنه قد غُفِر له. ومع ذلك، خطر له أن هذا الابن الحي، هذا العربيد رويال الحي، قد يكون محطًا للعنة من جراء خطيئة أمه، التي لم تتب أبدًا عن خطيئتها توبة خالصة؛ لأن الشاهد الحي على خطيئتها، هذا الذي يركع الليلة دخيلاً بين القديسين، يقف بين روحها وبين الرب.

أجل، كانت متحجرة القلب، غليظة الرقبة، لا تلين لها قناة، إليزابيث هذه التي تزوجها: لم تكن تبدو كذلك منذ سنوات، عندما حرك الرب قلبه لكي يرفعها، هي وابنها المجهول الاسم، الذي يحمل اسمه الآن. كان ابنها يشبهها تمامًا، صموتًا، رقيبًا، مملوءًا بالكبر الشرير - يومًا ما سوف يُقذفان في الظلمة الخارجية.

ذات مرة سأل إليزابيث - وكانا متزوجين منذ فترة طويلة، وكان روي طفلاً رضيعًا، وكانت هي حاملاً في سارة - إن كانت قد تابت عن خطيئتها توبة صادقة.

فنظرت إليه وقالت: «لقد سألتني هذا السؤال من قبل. وقد أجبتك بنعم».

لكنه لم يصدقها؛ وسألها: «هل تقصدين أنك لـن تقـترفي الخطيئة مرة أخرى؟ إذا عاد بك الزمان، حيثما كنـتِ، ومـثلما كنت آنذاك، هل ستفعلينها مرة أخرى؟»

أطرقت؛ ثم نظرت في عينيه مرة أخرى وقد نفد صـبرها: «حسنًا، لو عاد بي الزمان مرة أخرى، يـا جبريـل، وعـدت إلى نفس الفتاة التي كنتها!....»

ران صمت طويل، وهـي تنتظـر. فـسألها عـلى مـضض: «هل...كنتِ ستدعينه يولد مرة أخرى؟»

أجابته في ثبات: «أظن أنك لا تطلب مني أن أخبرك أنني نادمة لأنني أتيت بجوني إلى العالم. أم تراك تود ذلك؟» وعندما لم يجبها، قالت: «اسمع يا جبريل. لن أدعك تشعرني بالندم. لا أنت ولا أي شيء ولا أي شخص في هذا العالم. عندنا طفلان، يا جبريل، وقريبًا يأتينا ثالثهم؛ ولن أفرق بيـنهم ولـن أسـمح لكَ أن تفرق بينهم».

ولكن كيف يمكن ألا يكون هناك فـرق بـين ابـن امـرأة ضعيفة مغرورة وشاب مستهتر، وبين الابـن الـذي وعـده بـه الرب، والذي سيحمل نسله السعيد اسم أبيه، ويظـل يعمـل حتى اليوم الذي يعود فيه المسيح مرة أخـرى ليقـيم ملكـوت أبيه؟ لأن الرب وعده بذلك منذ سنوات عديدة خلت، وظـل

يعيش على هذا الأمل فقط – فهجر العالم وملذاته، وكل متع حياته، وانتظر طوال تلك السنوات المريرة ليرى وعد الرب متحققًا. لقد ترك أستير تموت، ومات رويال، وماتت ديبورا عقيمًا – ولكنه كان لا يزال متمسكًا بالوعد؛ لقد سار أمام الرب في توبة صادقة وكان ينتظر الوعد. ولا ريب أن وقت الوفاء بالوعد قريب. كل ما عليه أن يستمسك بروحه صبرًا وينتظر أمام الرب.

وفيما كان يتفكر بمرارة في إليزابيث، شرد ذهنه مرة أخرى إلى أستير، أم رويال الأول. وتراءت له، من خلال أطياف المتعة والرغبة، تلك الأطياف الخرساء الشاحبة المذهولة التي مازالت تحلق في داخله، فتاة نحيلة، متوقدة، سوداء العينين، تشي عظمتا وجنتيها وهيئتها وشعرها بشيء من سمات الهنود؛ تنظر إليه تلك النظرة التي تمتزج فيها السخرية بالعاطفة والرغبة والضجر والاحتقار؛ ترتدي ألوانًا نارية، نادرًا ما ارتدتها في الحقيقة، ولكنه كان يراها دائمًا في مخيلته في تلك الملابس. كانت صورتها في مخيلته مرتبطة دائمًا بالنيران؛ بأوراق الخريف النارية، والشمس النارية التي تغرب في المساء على التل البعيد، وبنيران الجحيم الأبدية.

كانت قد وصلت إلى المدينة بعد فترة قصيرة من زواجه بديبورا، والتحقت بالعمل كخادمة لدى الأسرة البيضاء التي

كان يعمل عندها. لذلك كان يراها طوال الوقت. كان الشباب ينتظرونها دائمًا عند الباب الخلفي حالما تنتهي من خدمتها: دأب جبريل على مراقبتها وهي ترحل كل مساء في ذراع أحد الشباب، وتطفو أصواتهم وضحكاتهم إليه كأنها سخرية من حاله. كان يعرف أنها تعيش مع أمها وزوج أبيها، أناس خطاة، لا همّ لهم سوى معاقرة الخمر ولعب القمار وموسيقى الراجتايم والبلوز، لا يظهرون البتة في الكنيسة إلا في أعياد الميلاد وعيد الفصح.

بدأ يشعر بالشفقة نحوها، وذات يوم دعاها إلى الكنيسة لأنه كان سيعظ في المساء. كانت هذه الدعوة هي المرة الأولى التي تنظر فيها إليه حقًا – أدرك ذلك حينذاك، وكان ليتذكر هذه النظرة لأيام وليالي عديدة من بعد.

«هل ستعظ حقا الليلة؟ رجل وسيم مثلك يعظ؟»

«بعون الرب»، أجابها، في رصانة بلغت شدتها درجة تقارب العداء. في نفس الآن، وإزاء نظرتها وصوتها اندلع بداخله شيء كان يظن أنه انطفأ بداخله للأبد.

«حسنًا، يسرني ذلك كثيرًا»، قالت بعد لحظة، وقد بدا أنها ندمت لبرهة على اندفاعها الذي جعلها تدعوه بالرجل «الوسيم».

«هل يمكن أن تفرغي نفسك لكي تتمكني من المجيء الليلة؟» لم يستطع أن يمنع نفسه من سؤالها.

ابتسمت، وهي تشعر بالابتهاج إزاء ما اعتبرته إطراءً غير مباشر. «حقًا لا أدري أيها المبجل. ولكني سوف أحاول».

عند انتهاء اليوم، اختفت بصحبة شاب آخر. لم يعتقد أنها سوف تأتي. وقد كدره هذا الأمر على نحو غريب حتى أنه لم يستطع أن يبادل ديبورا الحديث على العشاء، وسارا طوال الطريق إلى الكنيسة في صمت. كانت ديبورا ترقبه من زاوية عينها، كعادتها الصامتة المثيرة للحنق. كان هذا هو دأبها في التعبير عن احترامها لمهنته؛ ولو خطر له أن يدفعها للكلام، لقالت له إنها لا ترغب في أن تشتت ذهنه عما يضعه الرب في قلبه. والليلة، لأنه كان سيعظ، لا يمكن التشكك في أن الرب سوف يتحدث أكثر من المعتاد؛ ومن ثم فجدير بها، كرفيقة مسيح الرب وراعية المعبد المقدس، إذا جاز التعبير، أن تركن إلى الصمت. ومع ذلك كان يود في الحقيقة أن يتحدث. كان يود لو سألها عن أشياء كثيرة؛ وأن يستمع لصوتها، وينظر في وجهها بينما تخبره عن يومها وآمالها وشكوكها وحياتها وحبها. ولكن لم يكن بينهما حديث على الإطلاق. كان الصوت الذي ينصت إليه في مخيلته، والوجه الذي يراه في توله وشغف، لا يخصان ديبورا بل أستير. مرة أخرى شعر بتلك القشعريرة

الغريبة تجتاحه، مؤذنة بكارثة ومتعة: ولذلك تمنى لو أنها لا تأتي، لو أن شيئًا يحدث يحول بينه وبين رؤيتها للأبد.

بالرغم من ذلك أتت؛ جاءت متأخرة، والقس يوشك أن يقوم بتقديم خطيب الليلة للمصلين. لم تأت وحدها، بل اصطحبت أمها معها – واعدة بمشهد لم يكن جبريل ليتخيله، كما لم يكن بإمكانه أن يتخيل كيف ستتخلص من الشاب الذي كان سيصطحبها ذاك المساء. ولكنها فعلتها؛ ها هي هنا؛ فضلت إذن أن تستمع للإنجيل على أن تبقى مع الآخرين في الملذات الحسية. طفر قلبه لوجودها؛ تفجر شيء في قلبه عندما انفتح الباب كاشفًا عنها، تبتسم ابتسامة خافتة وعيناها خفيضتان، واتجهت مباشرة صوب مقعد في آخر صفوف المصلين. لم تنظر إليه البتة، ومع ذلك عرف في التو أنها رأته. وفي لحظة تخيلها ساجدة أمام المذبح، تأثرًا بالموعظة التي سوف يلقيها، وسوف تتبعها أمها ومن بعدها زوج أمها المقامر الذي يتحدث بصوت مرتفع، وقد اصطحبتهما أستير لقداس الرب. استدارت الرؤوس عندما دخلوا، واجتاحت الكنيسة همهمة، تكاد لا تسمع، تعبيرًا عن الدهشة والسرور. ها هم الخطاة جاءوا لسماع كلمة الرب.

كانت خطيئة حياتهم تتراءى في الحقيقة في ملابسهم: كانت أستير ترتدي قبعة زرقاء، تزينها شرائط كثيرة، وثوبًا

ثقيلاً أحمر بلون الخمر؛ أما أمها، التي كانت عظيمة البنيان وأدكن لونًا من أستير، فقد كانت ترتدي قرطين ذهبيين كبيرين في أذنيها المثقوبتين، وعليها سيماء النساء اللاتي عرفهن في بيوت اللهو، بسمعتهن السيئة على نحو غامض، وملابسهن التي ارتدينها على عجل. جلستا في مؤخرة الصفوف، في وضع متصلب غير مريح، كأنهما أختا الخطيئة، كأنهما تحدٍ حي لطهارة القديسين في ألوانهم الكابية. التفتت ديبورا لتنظر إليهما، وفي تلك اللحظة رأى جبريل، وكأنها المرة الأولى، كم كانت زوجته سوداء وعجفاء، وغير مثيرة على الإطلاق. رمقته ديبورا بنظرة ملؤها صمت حذر؛ فشعر كأن يده التي تمسك بالكتاب المقدس بدأت تعرق وترتعش؛ فكر في تأوهات فراش الزوجية العاطلة من المتعة؛ وشعر أنه يكرهها.

حينئذ نهض القس. وبينما كان يتكلم أغلق جبريل عينيه. شعر أن الكلمات التي كان على وشك أن ينطق بها تتطاير بعيدًا عنه؛ شعر أن قوة الرب تغادره. ثم توقف صوت القس، وفتح جبريل عينيه في الصمت ووجد جميع العيون منصبة عليه. ومن ثم نهض واقفًا وواجه جماعة المصلين.

بدأ موعظته: «أحبائي الأعزاء في الرب»؛ - ولكن عينيها كانتا عليه، ينبعث منهما ذلك الضوء الغريب الساخر - «فلنحنِ رؤوسنا للصلاة». وأغلق عينيه وأحنى رأسه.

فيما بعد كانت ذكراه عن هذه الموعظة كأنها ذكرى عاصفة. منذ اللحظة التي رفع فيها رأسه ونظر فوق رؤوس المصلين مرة أخرى، انطلق لسانه بالكلام ودبت فيه قوة الروح القدس. أجل، كانت قوة الرب تحوطه تلك الليلة، وألقى بموعظة ظل الجميع يتذكرها في التجمعات الدينية التي كانت تعقد في الخلاء وفي الأكواخ، وصارت معيارًا يقاس عليه كل المبشرين الزائرين على مدى جيل من بعد. بعد ذلك بسنوات، عندما ماتت أستير ورويال وديبورا، ورحل جبريل عن الجنوب، ظل الناس يتذكرون هذه الموعظة والشاب الشاحب الملهم الذي ألقاها.

استقى نص موعظته من الإصحاح الثامن عشر من سفر صموئيل الثاني، وهو قصة أَخِيمَعَصُ الشاب الذي سارع بحمل البشارة بالنصر في المعركة للملك داود. لأنه قبل أن يجري، سأله يُوآبُ: «لِمَاذَا تَجْرِي أَنْتَ يَا ابْنِي، وَلَيْسَ لَكَ بِشَارَةٌ تُجَازَى؟» وعندما بلغ أَخِيمَعَصُ الملك داود، الذي كان متلهفًا لمعرفة مصير ابنه المندفع أَبْشَالُوم، لم يستطع سوى أن يقول: «قَدْ رَأَيْتُ جُمْهُورًا عَظِيمًا ، وَلَمْ أَعْلَمْ مَاذَا».

وكانت هذه هي قصة كل هؤلاء الذين فشلوا في العمل بمشورة الرب؛ الذين ظنوا في خيلائهم أنهم ذوو حكمة فراحوا يجرون قبل أن تكون لديهم بشارة. كانت هذه قصة

الكثيرين من الرعاة الذين خابوا، من جراء غطرستهم، في أن يطعموا الشياه الجائعة؛ وقصة الكثيرين من الآباء والأمهات الذين أعطوا أبناءهم حجرًا عوضًا عن الخبز، وزخارف هذا العالم عوضًا عن حقيقة الرب. هذا ليس بإيمان بل كفر، ليس تواضعًا بل غرورًا: إن ما يعمل في قلب هؤلاء هو نفس الرغبة التي ألقت بابن الصباح من الجنة إلى أعماق الجحيم، ألا وهي الرغبة في قلب مواعيد الرب الموقوتة، وانتزاع قوة لا تليق بالبشر من الرب الذي يملك كل القوة. آه، نعم، لقد رأوا ذلك، كل أخ وكل أخت ممن وقعوا تحت صوته تلك الليلة، ورأوا الخراب الذي حاق من جراء التسرع الذي يبعث على الأسى! أطفال رضع، بلا أب، يعولون طلبًا للخبز، وفتيات في حمأة الرذيلة، وشباب ينزفون في الحقول التي يغطيها الصقيع. أجل، كان هناك من صاح - بعد أن سمعوا الموعظة، في بيوتهم، وعلى ناصية الشارع، ومن المنبر نفسه - بأنهم يجب ألا يظلوا في أسر الانتظار، والاحتقار والنبذ والمهانة كما هم، بل يجب أن يهبّوا اليوم ويطيحوا بالجبابرة، وأن يحققوا الانتقام الذي أمر به الرب. ولكن الدم يصرخ طلبًا للدم، كما صرخ دم هابيل من الأرض. لم يكتب الرب ذلك عبثًا: «مَنْ آمَنَ لاَ يَهْرُب». آه، ولكن الطريق كانت موعرة أحيانًا. هل ظنوا أن الرب ينسى أحيانًا؟ آه، فلتخروا ساجدين وتصلوا طلبًا للصبر؛ فلتخروا ساجدين وتصلوا طلبًا للإيمان؛ فلتخروا

ساجدين طلبًا للقوة القاهرة لكي تكونوا على أهبة الاستعداد يوم يبعث الرب ليتلقى تاج الحياة. إن الرب لم ينسَ، ولا تبطل كلمة تخرج من فيه. من الأفضل أن نصبر مثل أيوب طوال أيامنا المقدرة حتى تتغير الأحوال على أن نهبّ بلا استعداد قبل أن ينطق الرب كلمته. لأنه لو صبرنا أمامه في خشوع، سوف ينطق بالبشارة لأرواحنا؛ لو صبرنا ستتغير حالنا، ولسوف يحدث ذلك في لمح البصر – سيتغير حالنا يومًا ما من الفساد إلى الكرامة الأبدية، وسوف نحلق مع الرب فوق السحب. وهذه هي البشارة التي يجب أن نحملها لكل الأمم: لقد شُنِق ابن آخر من أبناء داود على شجرة، أما من لا يفهم معنى جلبة الجمهور العظيم فسوف يُلعن في الجحيم للأبد! إخواني وأخواتي، قد تجرون، ولكن سوف يأتي اليوم الذي يسألكم فيه الرب: «ما البشارة التي تحملونها؟» وما الذي ستقولونه في ذلك اليوم العظيم إن لم تعرفوا بموت ابن الرب؟

كانت الدموع تسيل على وجهه ويداه ممدودتان وهو واقف من فوقهم: «هل ثمة روح هنا الليلة لا تعلم معنى جلبة الجمهور العظيم؟ هل ثمة روح هنا الليلة ترغب في الحديث إلى يسوع؟ من يرغب في أن يصبر أمام الرب، آمين، حتى ينطق بكلمته؟ حتى تدوي في أرواحكم بشارته بالخلاص، آمين؟» ومع ذلك لم تنهض أستير من مكانها؛ بل ظلت ترقبه

عن بعد. «إخواني وأخواتي، إن الوقت يمضي سريعًا. وسوف يـأتي الـرب لـيحكم في الأمـم، ليأخـذ أطفالـه، هللوليـا، إلى راحتهم. لقد أخبرنا الرب تبارك، يَكُونُ اثْنَانِ فِي الْحَقْلِ، يُؤْخَذُ الْوَاحِدُ وَيُتْرَكُ الآخَر. يكون اثنان راقـدان في الفـراش، آمـين، يؤخذ واحد ويترك الآخر. أحبائي، إن يوم الرب سيأتي كلص في الليل، ولا أحدًا يعلم ساعة مجيئه. حينئذ، سيكون قد فـات أوان الـصراخ طلبًـا لرحمـة الـرب. الآن هـو الوقـت الـذي تستعدون فيه، الآن، آمين، الليلة، أمام مذبحه. أمـا مـن أحـد سيأتي الليلة؟ أما هناك من سـيقول لا لإبلـيس ويهـب حياتـه للرب؟»

لكنها لم تنهض من مكانها، ظلت تنظر إليه فقط وتتلفـت حولها في شغف وسرور، كأنها في مسرح تنتظر رؤية المزيد مـن المسرات العجيبة التي ستعرض أمام ناظريها بعد ذلـك. كـان يعرف على نحو ما أنها لن تنهض ولن تسير عبر المـمشى بـين المصلين لتصل إلى كرسي الرحمـة. مـلأه ذلـك للحظـة بحنـق مقدس – وهي تقف في تبجح بـين جمـوع الأتقيـاء رافـضة أن تحني رأسها.

قال آمين، وباركهم، وتنحى عن المنبر، وطفـق المـصلون يغنون في الحال. مرة أخرى حينئذ شعر بالإنهاك والمرض؛ كان يتفصد عرقًا وتشمم رائحة جسده. كانت ديبورا ترقبـه وهـي

تغني وتدق على دفها في مقدمة صفوف المصلين. شعر فجأة وكأنه طفل ضعيف. كان يرغب في أن يختبئ للأبد ولا يكف عن البكاء.

غادرت أستير وأمها أثناء الغناء - كانا قد جاءا إذًا لكي يسمعاه فقط وهو يعظ. لم يكن باستطاعته أن يتخيل فيما كانا يتحادثان أو يفكران الآن. وراح يفكر في الغد، عندما سيتحتم عليه أن يراها مرة أخرى.

«أليست تلك هي الفتاة الشابة التي تعمل معك في نفس المكان؟» سألته ديبورا وهما في طريقهما للمنزل.

أجابها: «بلى». الآن لم يراوده أي شعور بالرغبة في الحديث. كان يرغب في أن يعود إلى المنزل ليخلع ملابسه المبللة بالعرق ويخلد إلى النوم.

قالت ديبورا: «إنها باهرة الجمال، لم أرها مطلقًا في الكنيسة من قبل».

لم يفه بشيء.

سألته بعد فترة: «هل أنت من دعاها للمجيء الليلة؟»

أجاب: «نعم، لا أظن أن كلمة الرب يمكن أن تصيبها بمكروه».

ضحكت ديبورا. «لا يبدو أنها تأثرت، أليس كذلك؟ لقد خرجت في هدوئها وخطيئتها كما دخلت – هي وأمها تلك. وكانت موعظتك جد رائعة. يبدو أنها لا تتفكر في الرب».

قال: «ليس لدى الناس وقت للرب، ويومًا ما لن يكون لديه وقت لهم».

عندما بلغا المنزل عرضت عليه أن تعد له كوبًا من الشاي الساخن، ولكنه رفض. خلع ملابسه في صمت – احترمته مرة أخرى – ودخل الفراش. وفي النهاية، رقدت بجانبه كأنها حِمْل ينزل في المساء ويجب أن يُرفع مرة أخرى في الصباح.

في الصباح التالي قالت له أستير، وهي تدلف إلى باحة المنزل بينما كان يقطع الأخشاب: «صباح الخير، أيها المبجل، لم أتوقع أن أراك اليوم. كنت أظن أنك ستكون منهكًا بعد تلك الموعظة – هل تعظ دائمًا بمثل هذه القوة والحماسة؟»

سكن لفترة وجيزة والبلطة مرفوعة في الهواء؛ ثم استدار مرة أخرى وهبط بالبلطة. ثم أجابها: «إنني أعظ كيفما يوجهني الرب، يا أختاه».

تراجعت قليلاً أمام عدائه. وقالت بنبرة مختلفة: «حسنًا، لقد كانت موعظة بالغة الروعة. لقد سررت أنا وأمي كثيرًا لمجيئنا».

ترك البلطة مغروسة في الخشب، لأن شذرات منه كانت تتطاير وخشي أن تصيبها إحداها. «أنتِ وأمك – إنكما لا تأتيان إلى القداس كثيرًا؟»

هتفت معترضة: «يا إلهي، أيها المبجل، كل ما في الأمر أنه لا يتاح لنا الوقت. فأمي تكدح طوال الأسبوع وترغب في أن تركن إلى الراحة في الفراش يوم الأحد». ثم أضافت سريعًا، بعد برهة، «وهي تريدني أن أبقى بجانبها».

سدد نظره إليها مباشرة. «هل تقصدين حقا، يا أختاه، أن تقولي إنه لا وقت لديك للرب؟ لا وقت لديك على الإطلاق؟»

أجابته، وهي ترمقه بنظرة تحدٍ جريء كطفل مُهدَد: «أيها المبجل، إنني أفعل ما بوسعي حقًا. وليس على الجميع أن يتمتعوا بنفس الروح».

ضحك ضحكة مقتضبة. «ليس هناك إلا روح واحدة يجب أن تكون لديك – وهي روح الرب».

أجابته: «حسنًا، هذه الروح لا تعمل في كل البشر على نفس النحو، على ما يبدو لي».

ساد الصمت بينهما، وكل منهما يعي بوضوح أنهما وصلا إلى طريق مسدود. بعد لحظة استدار والتقط البلطة مرة أخرى. «حسنًا، فلتذهبي، يا أختاه، إنني أصلي من أجلك».

كان ثمة شيء يصطرع في وجهها، بينما وقفت للحظة أخرى ترقبه – مزيج من الحنق والتلذذ؛ ذكره ذلك بالتعبير الذي طالما رآه على وجه فلورنس. كما كانت نظرتها تشبه تلك التي اعتلت وجوه القساوسة الكبار في عشاء الأحد، ذلك العشاء الهام الذي حدث في ماضٍ بعيد. استبد به غضب شديد بينما كانت تحملق فيه حتى أنه لم يجد في نفسه الثقة لكي يتكلم. بعدئذ أشاحت بكتفها، في حركة هي أكثر ما رآه عذوبة ولا مبالاة، فابتسم. قالت له: «إنني جد ممتنة لك، أيها المبجل». ثم دلفت إلى المنزل.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يتبادلان الحديث فيها في باحة المنزل، ذات صباح صقيعي. لم يكن ثمة شيء في ذلك الصباح ليحذره مما هو آتٍ. لقد أثارت حفيظته لأنها كانت ممعنة في خطاياها، هذا كل ما في الأمر؛ وقد صلى لروحها التي ستلقى نفسها ذات يوم عارية خرساء أمام منصة قضاء المسيح. فيما بعد، أخبرته أنه كان يطاردها، أن عينيه لم تتركاها تنعم بلحظة سلام.

قالت له: «لم تكن نظراتك لي ذلك الصباح في باحة المنزل نظرات مبجلة، لقد كنت تنظر إلى كأي رجل، كرجل لم يسمع في حياته عن الروح القدس». ولكنه كان يعتقد أن الرب قد وضعها كحِمْلٍ على قلبه. فحملها في قلبه؛ وصلى لأجلها

وأسداها النصح، عندما كان ثمة وقت لكي يدفع بروحها للرب.

لكنها لم تكن تفكر بالرب؛ ورغم أنها اتهمته باشتهائها في قلبه، فهي التي أصرت على أن تراه، عندما نظرت إليه، ليس على أنه خادم الرب بل «رجل وسيم». ومن ثم صار لقبه الديني على لسانها علامة سخرية.

بدأ ما كان بينهما ذات مساء عندما كان في طريقه للوعظ، وكانا وحدهما في المنزل. كان أهل المنزل قد رحلوا لزيارة أقاربهم لمدة ثلاثة أيام. كان جبريل قد اصطحبهم في السيارة إلى محطة السكك الحديدية بعد العشاء، تاركًا أستير في المنزل لتنظف المطبخ. وعندما عاد لكي يقفل المنزل، وجد أستير في انتظاره على درجات الشرفة.

قالت له: «وجدت أنه من الأفضل ألا أترك المنزل حتى تعود، فليس معي مفاتيح لكي أقفل المنزل، والبيض مخادعون. ولا أريدهم أن يلقوا بالتبعة عليَّ إذا ما فُقِد شيء».

أدرك على الفور أنها كانت تحتسي الخمر، لم تكن سكرى، ولكن رائحة الويسكي كانت تفوح من أنفاسها.

«عين الصواب، يا أختاه»، قال وهو يحملق فيها بقوة ليحملها على إدراك أنه يعرف أنها كانت تحتسي الخمر.

واجهت حملقته بابتسامة هادئة، جريئة، ابتسامة تسخر من البراءة، حتى أن وجهها اكتسى بدهاء امرأة عجوز.

تجاوزها وهو يدخل المنزل؛ وبدون تفكير، وبدون أن ينظر إليها، اقترح عليها: «إن لم يكن هناك من ينتظرك بإمكاني أن اصطحبك قليلاً في طريقك إلى المنزل».

أجابته: «لا، أيها المبجل، ليس هناك من ينتظرني هذا المساء، شكرًا لعطفك».

ندم على اقتراحه ما أن تفوه به؛ كان متأكدًا أنها سوف تسارع إلى موعدٍ غرامي أو شيء من هذا القبيل، وتمنى فقط لو تحققت ظنونه. حينئذ، عندما دلفا إلى المنزل معًا، أحس على نحوٍ جارف بحضورها الغض المتألق بالحياة، بحالتها الضائعة؛ في نفس الآن كان خلو المنزل وصمته نذيرًا له بأنه وحده مع الخطر.

قال لها: «اجلسي في المطبخ وسوف أفرغ من قفل المنزل بأسرع ما أستطيع».

ولكنه شعر بوقع كلامه فظًا على مسمعه، ولم يستطع أن يواجه عينيها. جلست إلى المائدة في انتظاره وهي تبتسم. حاول أن ينهي كل شيء بأسرع ما يمكن، إغلاق النوافذ، وقفل الأبواب. ولكن أصابعه كانت متصلبة وزلقة؛ وقلبه مضطرم.

ودار بخاطره أنه يغلق كل مخارج المنزل، ما عدا باب المطبخ، حيث تجلس أستير.

عندما دخل المطبخ مرة أخرى كانت قد تحركت من مكانها، ووقفت بالمدخل، تتطلع إلى الخارج وفي يدها كأس. مرت لحظة قبل أن يدرك أنها تمادت في اختلاسها ويسكي سيد المنزل.

التفتت لسماع خطواته، فحملق بها، وبالكأس التي في يدها، في غضب وهلع.

قالت له دون أن يهتز لها جفن: «قلت لنفسي لم لا أتناول كأسًا صغيرة بينما أنتظرك، أيها المبجل. ولكن لم يخطر ببالي أنك ستضبطني متلبسة».

جرعت الرشفة الأخيرة من شرابها وسارت نحو حوض الغسيل لتشطف الكأس. سعلت سعلة خافتة كالسيدات الراقيات بينما كانت تبتلع ما رشفته – لم يكن واثقًا إن كانت تلك السعلة حقيقية أم من باب السخرية منه.

قال لها في غِلٍ: «أظن أنك عقدت العزم على أن تقضي عمرك في خدمة إبليس».

أجابته: «لقد عقدت العزم على أن أستمتع بحياتي بقدر المستطاع. إن كان ذلك خطيئة، فليكن، سوف أهبط إلى

الجحيم وأدفع ثمن ذلك. ولكن لا داعي لقلقك أيها المبجل – فهي ليست روحك».

تحرك ووقف بجانبها، مفعمًا بالغضب.

قال: «أيتها الفتاة، ألا تصدقين الرب؟ الرب لا يكذب – فهو يقول، بكل وضوح كما أكلمك الآن، إن الروح التي ترتكب الخطيئة سوف تهلك».

ندت عنها زفرة: «أيها المبجل، يبدو لي أنك ستنهك نفسك، فطوال الوقت لا هم لك إلا تقريع أستير الصغيرة الفقيرة، محاولاً أن تجعل من أستير شيئًا غير ما هي عليه. كل ما في الأمر أنني لا أشعر بالأمر هنا»، قالت ذلك وهي تضع إحدى يديها على صدرها. «والآن، ما الذي سوف تفعله؟ ألا تعلم أنني امرأة ناضجة ولا أنوي أن أتغير؟»

أراد أن يبكي. أراد أن يمد يده ويردها عن الهلاك الذي كانت تسعى إليه بكل حماس – أن يحتويها بداخله، أن يخبئها حتى يزول غضب الرب. في نفس الوقت فغمت خياشيمه رائحة أنفاسها المفعمة بالويسكي، وتحت ذلك رائحة جسدها الهفهافة الحميمة. ثم انتابه شعور رجل في كابوس، يقف في طريق الهلاك القادم، وعليه أن يتنحى سريعًا – ولكنه لا يملك حراكًا «يسوع يسوع يسوع»، رنت الكلمة في رأسه مرارًا

وتكرارًا، كأنها ناقوس – بينما كان يقترب منهـا، وقـد قـضت عليه أنفاسها، وعيناها النجلاوان الغاضبتان الساخرتان.

همس في أذنها وهو يرتعش غضبًا، «إنك تعلمـين جيـدًا، تعلمين جيدًا لماذا ألح عليك – لماذا ألح عليك كما أفعل».

«لا، لا أعرف»، أجابته، رافضة بهزة صغيرة من رأسها أن تصدق حماسه المتوتر. «يقينًا لا أعلم؛ لم لا تدع أستير ترشـف كأسها الصغيرة من الويسكي، وتسلك كـما يحلـو لهـا دون أن تحاول أن تشعرها بالبؤس».

زفر غضبًا، وهو يشعر أنه بدأ يرتعش. «كل مـا في الأمـر أنني لا أود أن أراك تنزلقين، يا فتاة، لا أود أن تـستيقظي ذات صباح جميل نادمة على كـل الخطايـا التـي اقترفتيهـا، لتجـدي نفسك عجوزًا ووحيدة تمامًا، لا أحد يحترمك».

ولكنه كان ينصت إلى نفسه وهو يتكلم، وشعر بالخجل. كان يرغب في أن ينهي الكـلام ويغـادر هـذا المنـزل – سـوف يغادران خلال لحظة، وسوف ينجاب هذا الكابوس.

قالت: «أيها المبجل»، إنني لم أفعل شيئًا أخجل منه، وآمل ألا أفعل شيئًا أخجل منه طوال حياتي.

ود لو يصفعها عند سـماع كلمـة «أيهـا المبجـل»؛ ولكنـه اقترب منها بدلاً من ذلك وأخذ يـديها في يديـه. حينئـذ، كانـا

ينظران مباشرة أحدهما في عيني الآخر. كانت ثمة دهشة في نظرتها، وانتصار حذر؛ كان يعي أن جسديهما متلاصقان تقريبًا وأن عليه أن يبتعد. ولكنه لم يتحرك - لم يستطع أن يتحرك.

قالت له، بعد لحظة، وهي تثيره في مكر: «ولكنني لا أستطيع أن أمنعك إذا فعلت أشياء ستخجل منها، أيها المبجل».

تشبث بيديها كأنه في لُجة البحر وكأن يديها طوق النجاة الذي سيقوده للشاطئ. «يسوع يسوع يسوع»، راح يصلي، «يسوع يسوع». ساعدني على الصمود». كان يظن أنه كان يسحب يديه من يديها - ولكنه كان يضمها إليه. ورأى في عينيها حينئذ نظرة لم يرها منذ أيام وليالٍ بعيدة، نظرة لم يرها على الإطلاق في عيني ديبورا.

قال: «بلى، إنك تعرفين لم أقلق عليك طوال الوقت - لماذا أشعر بالشقاء طوال الوقت كلما نظرت إليك».

قالت: «ولكنك لم تخبرني قط بشيء من هذا».

تحركت إحدى يديه نحو خصرها، ولبثت هناك. لامست حلمتا صدرها معطفه، كانتا تحرقانه كالحمض وتكتمان أنفاسه. سرعان ما يقع المحظور؛ وقد أراد له أن يقع. ارتفع نهر رغبته الجهنمية وفاض واجتاحه دافعًا إياه قدمًا كأنه جثة طال غرقها.

همس: «إنك تعرفين». ولامس صدرها ودفن رأسه في عنقها.

وهكذا سقط: للمرة الأولى منذ أن اهتدى، وللمرة الأخيرة في حياته. سقطا، هو وأستير في مطبخ السادة البيض، والضوء مشتعل، والباب موارب، يتشابكان ويحترقان بجوار حوض الغسيل. ساقطان حقًا: توقف الزمن، وانمحت الخطيئة والموت والجحيم والحساب. كانت أستير لا غير، هي من احتوت في جسدها الهضيم كل الأسرار وكل العشق، وأشبعت كل احتياجه. أنساه الوقت، الذي كان يعوي مسرعًا، الاضطراب والعرق والوسخ الذي أحاط بلقائهما الأول؛ وكيف جردتها يداه المرتعشتان من ملابسها، حيث كانا يقفان، وكيف سقط ثوبها أخيرًا كأحبولة حول ساقيها؛ وكيف مزقت يداه ملابسها التحتية حتى التقى اللحم العاري البض بيديه؛ وكيف اعترضت: «ليس هنا، ليس هنا»؛ وكيف ساوره القلق، في شق دفين من عقله، بشأن الباب الموارب، والموعظة التي كان من المفترض أن يلقيها، وحياته، وديبورا؛ وكيف اعترضت المائدة طريقهما، وكيف كادت ياقته أن تخنقه حتى حلها بأصابعه؛ وكيف وجدا نفسيهما على الأرض في نهاية المطاف، ينضحان عرقًا ويتأوهان وهما ملتحمان؛ منعزلان عن كل البشر، وعن كل العون السماوي أو الأرضي. وحدهما يملكان مساعدة أحدهما الآخر. كانا وحيدين في العالم.

هل حملت بابنه رويال في تلك الليلة؟.أم الليلة التالية؟ أم التالية؟ دام الأمر تسع ليالٍ فقط لا غير. ثم ثـاب إلى رشـده – بعد تسع ليالٍ أعطاه الرب القـدرة عـلى أن يقـول لهـا إن هـذا الذي بينهما لا يمكن أن يستمر.

قابلت قراره بنفس الاستخفاف، واللهو اللـذين قابلـت بهما سقوطه. خلال تلك الليالي التسع كان قـد فهـم شخـصية أستير: كانت قد اعتبرت خوفه وارتعاشـه متخـيلاً وطفوليّـا، وسيلة لتعقيد الحياة أكثر مما ينبغي. لم تكن تعتقد أن الحياة بهذا التعقيد؛ أرادت أن تكون الحياة سلسة. شعر أنها كانت تأسـى لحاله لأنه كان دائم القلق. عنـدما كانـا معًـا، كـان يحـاول في بعض الأحيان أن يخبرها بما يشعر به، كيف سـيعاقبهما الـرب على الخطيئة التي يرتكبانها. لم تكن تصغي له: «أنـت لا تعـتلي المنبر الآن. أنت هنا معي. حتى رجل الدين المبجل من حقه أن يخلع ملابسه أحيانًا ويتصرف كرجل طبيعي». عندما أخبرهـا أنه لن يراهـا مـرة أخـرى، كانـت غاضـبة ولكنهـا لم تجادلـه. أخبرته عيناها أنها تراه أحمق: ولكن حتـى ولـو كانـت أحبتـه حبًا يائسًا، لم تكن لتتنازل وتجادله في رأيه – كان جزء كبير من بساطتها يكمـن في تـصميمها عـلى ألا تريـد مـا لا يمكـن أن تحصل عليه بسهولة.

وهكذا انتهت علاقتهما. ورغم أنها تركته جريحًا ومروعًا، ورغم أنه فقد احـترام أسـتير للأبـد (فقـد دعـا ألا تـأتي أبـدًا

لتسمعه وهو يعظ) إلا أنه شكر الرب أن الأمور لم تكن أكثر سوءًا. صلى إلى الرب أن يغفر له، ولا يدعه يسقط مرة أخرى.

ومع ذلك كان ما يخيفه كل الخوف، ويدفعه للسجود على ركبتيه أكثر من المعتاد، هو معرفته أن من سقط مرة، ما أسهل عليه أن يسقط مرة أخرى. الآن وبعد تمكنه من أستير، استيقظ بداخله الرجل الشهواني، الذي يرى إمكانية الغزو في كل مكان. تذكر أنه رغم قداسته ما زال شابًا؛ والنساء اللاتي كن يشتهينه مازلن يشتهينه؛ ما عليه إلا أن يمد يده ويأخذ ما يريد – حتى من بين الأخوات في الكنيسة. جاهد من أجل أن يطفئ رغباته في فراش الزوجية، وأن يوقظ ديبورا، التي كان مقته لها يزداد يومًا بعد يوم.

مع بشائر الربيع تجدد الحديث بينه وبين أستير في باحة المنزل. كانت الأرض مازالت مبللة من أثر الثلوج والصقيع الذائبين؛ كانت الشمس تغمر المكان، وأغصان الشجر الجرداء بدت وكأنها تشرئب نحو الشمس الشاحبة، في عجلٍ لأن تنشر أوراقها وزهورها. كان يقف عند البئر في قميصه فقط، يغني برفق لنفسه – شاكرًا الرب على المخاطر التي تجاوزها. نزلت من على درجات الشرفة إلى الباحة، ورغم سماعه الخطوات الخافتة، ومعرفته أنها خطواتها، لم يستدر إلا بعد لحظة.

كان يتوقع أن تأتي إليه طلبًا لعونه في شيء ما تؤديه في المنزل. عندما لم تتكلم، استدار إليها. كانت ترتدي ثوبًا قطنيًا خفيفًا به مربعات بنية فاتحة وغامقة، وشعرها مضفور بإحكام حول رأسها. بدت كفتاة صغيرة، فكاد أن يبتسم. «ما الأمر؟» سألها؛ وشعر بانقباض في قلبه.

أجابته: «جبريل، إنني حامل».

راح يحملق فيها؛ فطفقت في البكاء. ثم وضع دلوي الماء بحرص على الأرض، فمدت يديها لتصل إليه، ولكنه ابتعد.

«كفي عن الصياح يا بنت. ما الذي تتكلمين عنه؟»

ولكنها ما أن أطلقت لدموعها العنان، لم تملك لها ردعًا في التو. واصلت البكاء، وهي تترنح قليلاً في مكانها، ويداها على وجهها. نظر في هلع في أرجاء الباحة وباتجاه المنزل. «توقفي عن ذلك، وأخبريني ما الأمر». صاح بها مرة أخرى، دون أن يجرؤ على أن يلمسها مرة أخرى هنا والآن.

أجابته وهي تئن: «لقد أخبرتك، وقلت لك. إنني حامل». نظرت إليه، بوجه كسير والدمع السخين يتساقط من عينيها. «تلك هي حقيقة الرب. أنا لا أخترع قصة، هذه هي حقيقة الرب».

لم يستطع أن يحول عينيه بعيدًا عنها، مع أنه كان يكره ما يراه. «ومتى اكتشفت هذا؟»

«من وقت غير طويل. ظننت أنني ربما أخطأت. ولكن ليس هناك خطأ. جبريل، ماذا سنفعل؟»

حينئذ، وبينما كان يرقب وجهها، بدأت دموعها تنساب مرة أخرى.

قال لها في هدوء أدهشه: «اصمتي، سنفعل شيئًا، ولكن كوني هادئة».

«ماذا سنفعل يا جبريل؟ قل لي – ما الذي تنوي في عقلك أن تفعله؟»

«ادخلي إلى المنزل. لا يمكن لنا أن نتحدث الآن».

«جبريل – »

«فلتدخلي المنزل، يا بنت. اذهبي!» وعندما لم تتحرك، وواصلت التحديق فيه: «سوف نناقش الأمر الليلة. سوف نصل إلى قرار في هذا الموضوع الليلة!»

استدارت بعيدًا عنه وشرعت تصعد درجات الشرفة. همس لها: «جففي وجهك». انحنت لترفع طرف ثوبها لتجفف عينيها، ووقفت للحظة على الدرجة السفلى بينما كان ينظر إليها. ثم وقفت معتدلة ومشت إلى داخل المنزل، دون أن تنظر خلفها.

كانت ستلد طفله – طفله؟ بينما أخفقت ديبورا، رغم كل الأنات وكل الخضوع الذي كانت تتحمل به جسده، في أن تضطرم بأي حياة قادمة. إن رحم أستير، التي لم تكن سوى عاهرة، هو الرحم الذي سيحتضن بذرة النبي.

ابتعد عن البئر، ورفع دلاء الماء كأنه نائم. ثم سار نحو المنزل الذي بدا – بسقفه العالي المتلألئ، ونافذته المذهبة – كأنه يراقبه وينصت إليه؛ الشمس نفسها من فوق رأسه والأرض تحت قدميه كفا عن الدوران؛ وترجرج الماء في الدلوين اللذين يحملهما كمليون صوت منذر؛ ومن تحت الأرض المذعورة التي كان يسير عليها رفعت أمه عينيها دونما توقف.

تحادثا في المطبخ بينما كانت تقوم بأعمال التنظيف.

«ما الذي يجعلك واثقة أن هذا الطفل مني؟» كان هذا هو سؤاله الأول.

لم تكن تبكي الآن. أجابته: «لا تبدأ في الكلام على هذا النحو، فأستير ليس من عادتها الكذب على أي شخص، ولم أعرف كثيرًا من الرجال حتى يختلط على الأمر».

كانت تتحدث في برود وترو، وتتحرك في المطبخ وهي تركز على أشغالها تركيزًا مشحونًا بالغضب، وقلما كانت تنظر إليه.

لم يدر ما الذي يمكن أن يقوله، أو كيف يتعامل معها.

سألها بعد برهة: «هل أخبرتِ أمك بعد؟ هل ذهبتِ إلى الطبيب؟ ما الذي يجعلك متيقنة على هذا النحو؟»

ندت عنها تنهيدة حادة. «لا، لم أخبر أمي، فلست مجنونة. ولم أخبر أحدًا غيرك».

كرر سؤاله: «ما الذي يجعلك متيقنة على هذا النحو إن كنتِ لم تستشيري طبيبًا؟»

«أي طبيب في هذه البلدة تريدني أن أذهب إليه؟ كأني بك تريدني أن أنهض وأعلنها مدوية من فوق أسطح المنازل أنني حامل. لا، لم أر طبيبًا وليس في نيتي أن أرى طبيبًا على وجه السرعة. فلستُ بحاجة لطبيب لكي يدلني على ما يحدث في بطني».

«منذ متى وأنت تعلمين بالأمر؟»

«أعلم ذلك منذ شهرٍ تقريبًا – أو ربما ستة أسابيع الآن».

«ستة أسابيع؟ ولِمَ لمْ تفتحي فمك من قبل؟»

«لأنني لم أكن متيقنة. قلت أنتظر لأتأكد. لم يكن هناك ما يدعو لأن أثير الموضوع قبل أن أتأكد. لم أود أن أقلقك وأخيفك وأدفعك للتصرف بشكل كريه، كما تفعل الآن، طالما

لم يكن هناك داعٍ». سكتت برهة، وهي تنظر إليه. ثم قالت: «لقد قلت هذا الصباح أننا سنفعل شيئًا حيال ذلك. ما الذي سنفعله؟ هذا ما يجب أن نفكر فيه الآن يا جبريل؟»

«ما الذي سنفعله؟» كرر نفس السؤال في النهاية؛ وشعر أن نسغ الحياة غادره. جلس إلى مائدة المطبخ وراح ينظر إلى الشكل الدائري على الأرض.

ولكن الحياة لم تغادرها؛ تقدمت نحوه حيث كان يجلس، وتحدثت إليه في رقة، بعينين مريرتين. قالت: «إنك تبدو لي غريبًا جدًا. لا تنظر إلي وكأنك لا تفكر في شيء إلا في كيف يمكنك أن تتخلص من هذا الموقف - ومني أيضًا - وبسرعة كما تعرف. لم يكن الأمر كذلك دائمًا، أليس كذلك، أيها المبجل؟ في وقت من الأوقات لم يكن بإمكانك أن تفكر في أي شيء أو أي شخص سواي. ما الذي تفكر فيه الليلة؟.فلتحل علي اللعنة إذا خطر ببالي أنك تفكر في».

أجابها في ضجر: «لا تتحدثي وكأنك بلا عقل يا بنت. تعرفين أن لدي زوجة ينبغي أن أفكر فيها - » وأراد أن يقول المزيد، ولكنه لم يجد الكلمات، فتوقف مستسلمًا.

«أعرف ذلك»، قالت بشكل أقل انفعالاً، ولكنها ظلت تنظر إليه بعينين لم تغادرهما تمامًا تلك السخرية القديمة

الضجرة، «ولكن ما أعنيه هو أنك طالما كنت قادرًا على نسيانها مرة فعليك أن تتمكن من نسيانها مرتين».

لم يفهم قصدها في الحال: ولكنه سرعان ما اعتدل في جلسته، واتسعت عيناه في غضب. «ما الذي تقصدينه يا بنت؟ ما الذي تحاولين قوله؟»

لم تتراجع – كان يدرك حتى في لحظات يأسه وغضبه أنها لم تكن تلك الطفلة التافهة كما كانت تبدو دائمًا له. أم تُرى تغيرت في تلك الفترة القصيرة من الوقت؟ ولكنه تحدث إليها من منطلق ضعفه هذا: فبينما لم يكن مهيئًا لأي تغير فيها، كان من الواضح أنها سبرت شخصيته منذ البداية ولم تكن لتدهشها أي تغيرات فيه.

قالت له: «تعرف ما أقصد، لن يكون لك أي شكل من أشكال الحياة مع تلك المرأة العجفاء السوداء – ولن تتمكن على الإطلاق من إسعادها – ولن تلد أطفالاً أبدًا. فلتحل عليّ البركة، على أية حال، إذا ظننتُ أنك كنت في كامل قواك العقلية عندما تزوجتها. فضلاً عن ذلك أنا من ستلد لك طفلاً!»

سألها أخيرًا: «هل تريدين مني أن أترك زوجتي – وآتي معك؟»

ردت عليه: «أظن أنك نفسك فكرت في هـذا مـن قبـل، مرات ومرات».

قال لها وهو يكظم غضبه: «تعرفين أنني لم أقل شـيئًا مـن هذا القبيل على الإطلاق. ولم أخبرك أبدًا أنني أريـد أن أتـرك زوجتي».

صاحت به، وقد نفد صـبرها: «لا أتحـدث عـن أي شيء قلته!»

التفت كلاهما في الحال صوب أبواب المطبخ المغلقة – فلم يكونا وحدهما في المنزل هذه المرة. تنهـدت، وسـوت شـعرها بيدها؛ فـرأى حينئـذ أن يـدها كانـت تـرتعش وأن مناقـشتها الهادئة لم تكن إلا موقفًا مسعورًا.

قال لها: «هل تظنين يا بنت أنني أنتوي الهروب والعـيش معك في الخطيئة في مكان ما، فقـط لمجـرد أنـك تقـولين لي إن طفلي يركل في بطنك؟ أي أحمق تظنينني؟ عندي عمـل الـرب لأقوم به – وحياتي لا تنتمي لك. ولا لهـذا الطفـل أيـضًا – إن كان حقًا طفلي».

ردت عليه في برود: «إنه طفلك، ولا يمكن بـأي وسـيلة في العالم أن تنكر هذه الحقيقة. ولم يكن ذلك منذ زمن بعيد، هنا في هذه الغرفة ذاتها، عندما كانت حيـاة الخطيئـة هـي كـل مـا كنت تسعى إليه».

أجابها وهو ينهض، ملتفتًا بعيداً: «بلى، لقد أغواني إبليس وسقطتُ. لست أول رجل يسقط من جراء امرأة شريرة».

ردت أستير عليه: «فلتحذر من الطريقة التي تتكلم بها معي. فأنا كذلك لست أول امرأة يحطمها رجل مقدس».

صرخ بها: «يحطمها؟». «أنتِ؟ كيف يمكن تحطيمك؟ لطالما كنت تجوبين هذه البلدة كأنك عاهرة، وترفعين ساقيك في كل أنحاء المرعى؟ كيف تجرئين على أن تقفي مكانك وتقولين لي إنك حُطمتِ؟ إن لم يكن أنا، سيكون شخص آخر من المؤكد».

أجابته: «ولكنه أنت، وما أريد أن أعرفه هو ماذا سنفعل بهذا الشأن».

نظر إليها. كان وجهها باردًا وجامدًا – قبيحًا؛ لم يحدث أن كانت قبيحة بهذا الشكل من قبل.

قال في تؤدة: «لا أعرف ما سوف نفعل. ولكن دعيني أخبرك ما يستحسن أن تفعليه: من الأفضل لك أن تذهبي وتأتي بأحد هؤلاء الأولاد الذين كنت تتسكعين معهم ليتزوجك. لأنني لا أستطيع الذهاب معك إلى أي مكان».

جلست إلى المائدة وراحت تحدق فيه في ازدراء ودهشة؛ كانت تجلس متثاقلة، كأنها ضربت. كان يعرف أنها تستجمع قواها؛ ثم تفوهت بما كان يرتعد من سماعه:

«افترض أنني خرجت عبر البلدة وأخبرت زوجتك، وأتباع الكنيسة، وكل الآخرين - افترض أنني فعلت ذلك، أيها المبجل؟»

شعر بنفسه محاطًا بصمت رهيب هبط عليه - وسألها: «ومن تظنين سوف يصدقك؟»

ضحكت. «سيصدقني من الناس ما يكفي لجعل حياتك تعيسة». وراحت ترقبه. أخذ يذرع المطبخ جيئة وذهابًا، محاولاً أن يتفادى عينيها. «فقط ارجع بذاكرتك إلى تلك الليلة الأولى، تمامًا هنا على هذه الأرضية اللعينة التي تخص السادة البيض، وسوف تدرك أن الأوان قد فات لكي تحدث أستير عن قداستك. لا أكترث إذا كنت ترغب أن تعيش أكذوبة، ولكني لا أرى سببًا لديك لتجعلني أتعذب من جراء تلك الأكذوبة».

قال لها في جرأة: «بإمكانك الخروج وإخبار الناس إذا أردت، ولكن الأمر لن يكون في صالحك أيضًا».

ضحكت مرة أخرى. «ولكنني لست القديسة هنا. أنت رجل متزوج، وواعظ - فمن تظن الناس سيلومون أكثر؟»

أخذ ينظر إليها في حقد ممزوج برغبته القديمة، وكان يعرف أنها انتصرت عليه مرة أخرى.

قال لها: «لا أستطيع أن أتزوجك، وأنت تعلمين هذا، والآن، ماذا تريدينني أن أفعل؟»

ردت عليه: «لم يخطر هذا ببالي، ولا أظن أنك كنت ستتزوجني حتى ولو كنت غير متزوج. فلا أظن أنك تريد عاهرة مثل أستير كزوجة. أستير لليل فقط، للظلمة، حيث لا يراك أحد توسخ ذاتك المقدسة مع أستير. أستير لا تصلح إلا لأن ترحل وتضع ابنك، ابن الزنا، في مكان ما في الغابات اللعينة. أليس الأمر كذلك، أيها المبجل؟»

لم يرد عليها. لم يجد الكلمات. لم يكن بداخله غير صمت كصمت القبور.

نهضت، وسارت صوب باب المطبخ المفتوح، ووقفت هناك، مولية ظهرها له، وهي تنظر إلى الباحة وإلى الشوارع الساكنة حيث كانت خيوط الشمس الأخيرة تحتضر.

قالت في بطء: «ولكنني لا أظن أنني أريد أن أبقى معك بعد الآن. لا أريد رجلاً جبانًا رعديدًا. فلن ينفعني رجل كهذا». استدارت وواجهته؛ كانت هذه هي آخر مرة تنظر إليه في الحقيقة، وسوف يحمل هذه النظرة معه إلى القبر. ثم قالت: «هناك شيء واحد فقط أريد منك أن تفعله، افعل ذلك، وسوف يكون كل شيء على ما يرام».

«ماذا تريدينني أن افعل؟» سألها وهو يشعر بالخجل.

قالت: «من الممكن أن أجوب هذه البلدة وأخبر الجميع عن مسيح الرب. والسبب الوحيد الذي يمنعني هو أنني لا أريد أن تعرف أمي وأبي أية حمقاء كنتُ. فأنا لا أشعر بالخجل مما حدث - ولكن بالخزي منك - لقد أشعرتني بالعار وهو ما لم أشعر به من قبل. أشعر بالخجل أمام ربي لأنني تركت شخصًا مثلك يجعلني رخيصة».

لم ينبس بحرف. فأدارت له ظهرها مرة أخرى.

قالت: «كل ما أريده هو أن أرحل إلى مكان ما، حيث يمكن لي أن أضع طفلي، وأنسى كل هذا. أريد أن أرحل إلى مكان ما لأتدبر أمري. هذا هو ما أريده منك - وأعتقد أن هذا ثمن بخس؛ هو كل ما يتحمله رجل مقدس لكي يحيل امرأة شابة إلى عاهرة حقيقية».

قال: «ليس لدي أي نقود يا بنت».

قالت له ببرود: «إذن، من الأفضل لك كثيرًا أن تحصل على بعضها».

ثم أخذت تبكي. اقترب منها ولكنها ابتعدت عنه.

قال لها في استسلام: «إذا خرجتُ في جولة للوعظ فبالإمكان أن أجمع المال الكافي لكي ترحلي».

«وكم من الوقت يستغرق ذلك؟»

«شهرًا تقريبًا».

هزت رأسها. «لن أبقى هنا كل هذه المدة».

وقفا في باب المطبخ المفتوح صامتين، هي تقاوم لكي تكبح دموعها، وهو يقاوم إحساسه بالخجل.

كل ما كان يدور بخلده هو: «يسوع يسوع يسوع. يسوع يسوع».

سألته في النهاية: «أليس لديك أية نقود تدخرها؟ كما أرى أنت متزوج منذ فترة طويلة وهو ما يتيح لك أن تدخر بعض المال!»

وحينئذ تذكر أن ديبورا كانت تدخر بعض المال منذ يوم زواجهما. كانت تحتفظ به في علبة من الصفيح فوق خزانة المطبخ. فكر كيف تؤدي الخطيئة إلى الخطيئة.

قال: «نعم، قليلاً، لا أعرف مقداره».

قالت له: «فلتحضره غدًا».

قال: «نعم».

راح ينظر إليها وهي تنتقل من الباب إلى خزانة الملابس لكي تأخذ قبعتها ومعطفها. ثم عادت وهي ترتدي ملابس

الخروج للشارع، ودون أن تتفوه بكلمة اجتازته ونزلت درجات السلم القصيرة إلى باحة المنزل. فتحت بوابة الشارع المنخفضة وانطلقت في الشارع الطويل الصامت المتوهج.

سارت في تمهل، ورأسها منحنٍ، وكأنها تشعر بالبرد. ظل يراقبها، وهو يفكر في المرات الكثيرة التي كان يراقبها فيها من قبل، عندما كانت مشيتها مختلفة ورنين ضحكتها يصل إليه ساخرًا منه.

سرق النقود بينما كانت ديبورا نائمة. وأعطاها لأستير في الصباح. أخبرت مخدوميها في نفس اليوم بأنها سوف تترك العمل، ورحلت بعد أسبوع إلى شيكاغو، لتجد وظيفة أفضل وحياة أفضل، كما قال والداها.

في الأسابيع التالية أصبحت ديبورا أكثر صمتًا مما كانت. أحيانًا كان لا يراوده شك في أنها اكتشفت اختفاء النقود وعرفت أنه أخذها - وأحيانًا كان يصير متأكدًا أنها لا تعلم شيئًا. وأحيانًا يبات متيقنًا أنها تعلم كل شيء: السرقة، ودافع السرقة. ولكنها لم تتكلم. في منتصف الربيع خرج في جولة للوعظ امتدت ثلاثة أشهر. وعندما عاد أحضر النقود معه ووضعها في العلبة مرة أخرى. لم توضع أية نقود في العلبة في تلك الأثناء، وهكذا لم يتيقن إن كانت ديبورا قد عرفت بالأمر أم لا.

قرر أن يترك الأمر كله للنسيان، وأن يبدأ حياته من جديد.

ولكن الصيف أتى له بخطاب، بلا اسم ولا عنوان للمرسل، ولكنه مختوم بخاتم شيكاغو. سلمته ديبورا إياه على الإفطار، مع رزمة من الكتيبات التي كانت تصدرها إحدى دور النشر الإنجيلية وكانا يوزعانها كل أسبوع في كل أنحاء البلدة؛ ولم يبدُ عليها أنها لاحظت الخط أو الخاتم البريدي. جاءها هي أيضًا خطاب من فلورنس، وربما كان هذا الحدث الجديد هو ما صرف انتباهها.

كانت نهاية خطاب أستير:

ما أعتقده هو أنني ارتكبت خطأً، هذا حقيقي، وأنا أدفع ثمن خطئي الآن. ولكن هل تظن أنك لن تدفع ثمنًا لهذا الخطأ؟ – لا أعرف متى وكيف، ولكنني على ثقة أنك سوف تسقط ذليلاً في يوم من الأيام. لست مقدسة مثلك، ولكنني أعرف الصواب من الخطأ.

سوف أضع طفلي وسوف أربيه لكي يصبح رجلاً. ولن أقرأ له من أي كتاب مقدس ولن أصحبه ليستمع لأية مواعظ. ولو قدر له ألا يشرب شيئًا سوى الخمر طوال حياته سيغدو مع ذلك رجلاً أفضل من والده.

«ماذا تقول فلورنس في خطابها؟» سأل في فتور، وهو يغضن هذا الخطاب في قبضة يده.

تطلعت ديبورا إليه بابتسامة فاترة: «لا تقول الكثير، يا حبيبي. ولكن يبدو أنها على وشك الزواج».

قرب نهاية الصيف خرج مرة أخرى في جولة للوعظ. لم يكن يطيق منزله، ولا عمله، ولا البلدة نفسها - يومًا بعد يوم لم يعد يحتمل مواجهة نفس المشاهد والناس الذين عرفهم طوال حياته. فجأة بدوا وكأنهم يسخرون منه، يصدرون حكمًا عليه؛ رأى إثمه في عيون الجميع. كان يشعر عندما يعتلي المنبر ليعظ أنهم ينظرون إليه وكأنه ليس له الحق في أن يكون في هذا المكان، وكأنهم يدينونه كما أدان هو الثلاثة وعشرين قسًا الكبار. صار نادرًا ما يبتهج عندما تتقدم الأرواح باكية إلى المذبح، ويتذكر تلك الروح التي لم تنحنِ، والتي سيُسأل عن دمها يوم الحساب على الأرجح.

ومن ثم فر من هؤلاء الناس، ومن تلك الشواهد الصامتة، لكي يعظ ويقيم القداسات في أماكن أخرى - لكي يعاود سيرته الأولى سرًا، بحثًا عن النار المقدسة التي غيَّرته فيما مضى. ولكنه اكتشف، كما الأنبياء من قبله، أن الأرض كلها صارت سجنًا أمام من يفر من الرب. لا سلام، ولا شفاء، ولا نسيان في أي بقعة من بقاع الأرض. في كل كنيسة يدخلها

كانت خطيئته تسبقه. كانت على كل الوجوه الغريبة التي كانت تلقاه بالترحاب، كانت تصرخ فيه من على المذبح، وتجلس في انتظاره على مقعده وهو يرتقي درجات المنبر. كانت تحدق فيه من الكتاب المقدس الذي يقرأ منه: لم يكن ثمة كلمة في ذلك الكتاب المقدس لا تصيبه بالرَجفة. عندما كان يتحدث عن يوحنا على جزيرة بَطْمُس، وقد رفعته الروح في يوم الرب، لينظر ما كان وما سيكون وما هو كائن، قائلاً: «وَمَنْ هُوَ نَجِسٌ فَلْيَتَنَجَّسْ بَعْدُ»، كان هو من يحل به الاضطراب، وهو يرفع عقيرته بهذه الكلمات؛ وعندما كان يتحدث عن داود، الفتى الراعي، الذي رفعته قوة الرب ليكون ملكًا لبني إسرائيل، كان هو من يكافح مرة أخرى في أغلاله، بينما يصيح المصلون: «آمين!» و «هلليوليا!»؛ و عندما كان يتحدث عن أحد العنصرة يوم نزلت الروح القدس على الحواريين الذين كانوا مقيمين في العلية، وصاروا يتحدثون بألسنة من نار، تفكر في عماده وكيف أساء إلى الروح القدس. لا: لم يكن ثمة كلمة في الكتاب المقدس له، رغم أن اسمه كان يكتب على لوحات الإعلانات بخط كبير، ورغم الثناء الذي كان يكال له للعمل العظيم الذي يعمله الرب من خلاله، ورغم أن المصلين كانوا يأتون أمامه ليل نهار إلى المذبح.

رأى في تجواله كيف ابتعد شعبه عن الرب. لقد حادوا جميعًا عن طريق الرب وضاعوا في البرية، ليسقطوا أمام أوثان

الذهب والفضة والخشب والحجر، آلهة زائفة لا تملك لهم شفاءً. لم تكن الموسيقى التي تملأ أية بلدة أو مدينة يدخلها موسيقى القديسين بل موسيقى أخرى، جهنمية، تمجد الشهوة وتزدري الحق. النساء، اللاتي كان على بعضهن أن يكن في المنزل لتعليم أحفادهن الصلاة، يقفن ليلة بعد أخرى، يهززن أجسادهن في ترنيمات داعرة في مراقص تعبق بالدخان ورائحة الجن الثقيلة، يغنين للعاشق. والعاشق هو أي رجل يتاح لهن، في الصباح، أو الظهيرة أو الليل – وعندما يرحل أحدهم عن البلدة يحصلن على غيره – يغرق الرجال، كما يبدو، في لحمهن الساخن ولكنهن لا يبدين أي تمييز بين رجل وآخر. «ها هو جسدي لكَ فإذا لم تأخذه فليس هذا خطئي». كن يضحكن منه عندما يرونه – «رجل وسيم مثلك؟» – ويخبرنه أنهن يعرفن فتاة سمراء هيفاء بإمكانها أن تغريه حتى ينحي إنجيله جانبًا. كان يهرب منهن؛ كن يروعنه، شرع يصلي لأستير. تخيل أنها ستقف ذات يوم حيث تقف هؤلاء النسوة اليوم.

كان الدم يجري في كل المدن التي كان يمر بها. بدا له أنه لا يوجد باب، في أي مكان، لا يصرخ الدم من ورائه طلبًا للدم دونما توقف؛ لا توجد امرأة، سواء أكانت تغني أمام الأبواق المتبجحة أم تبتهج في حضرة الرب، لم تر أباها، أو أخاها، أو حبيبها، أو ابنها مذبوحًا بلا رحمة؛ أو أختها وقد صارت جزءًا

من بيت الدعارة الكبير الذي يملكه الرجل الأبيض، والذي لم تفلت هي منه إلا بشق الأنفس؛ لا يوجد رجل، سواء كان يعظ، أو يسب، أو يعزف على جيتاره في المساء الوحيد الأزرق، أو ينفخ في بوقه الذهبي في غضب ونشوة في الليل، لم يجبر على أن يحني رأسه ويشرب ماء البيض الملوث بالطين؛ لا يوجد رجل لم تستأصل رجولته من جذورها، أو لم تنتهك عورته، أو لم تبدد بذرته في النسيان وما هو أسوأ من النسيان، في العار الحي وفي الغضب، وفي المعارك التي لا تنتهي. أجل، كانوا يغتصبون وتجتز أعضاؤهم، لم تكن أسماؤهم أكثر من غبار يتناثر في مهانة عبر حقول الزمن – أين يحط، وأين يزهر، وأين يؤتي ثماره بعد ذلك، أين؟ – لم تكن أسماؤهم ملكًا لهم. مِن خلفهم ظلمة، لا شيء سوى الظلمة، ومن حولهم خراب، ومن أمامهم لا شيء سوى النار – شعب من أبناء الزنا، بعيد عن الرب، يغني ويصرخ في البرية.

ومع ذلك، وعلى نحو شديد الغرابة، انبعث إيمانه من أعماق لم يسبرها من قبل؛ فأمام الشرور التي كان يراها، والتي فر منها، رأى قوة الخلاص تلوح له في قلب الأفق كالراية المشتعلة وعليه أن يشهد عليها حتى الموت؛ لا يستطيع لها إنكارًا رغم أنها كانت تسحقه سحقًا؛ ورغم أنه لم يكن لبشر من الأحياء أن يبصرها، فقد أبصرها هو، ويجب أن يستمسك

بإيمانه. لن يعود إلى أرض مصر من أجل صديق أو حبيب، أو ابن زنى: لن يشيح بوجه عن الرب، مهما عظمت دُكْنة الظلمة التي يحجب الرب وجهه فيها بعيدًا عنه. ذات يوم سوف يعطيه الرب علامة، وسوف تنقشع الظلمة - ذات يوم سيرفعه الرب، الذي تركه ليسقط في الحضيض.

في أعقاب عودته ذاك الشتاء، عادت أستير إلى البلدة أيضًا. كانت أمها وزوج أمها قد سافرا إلى الشمال ليستعيدا جثمانها وابنها الذي بقي على قيد الحياة. دفنت في مدافن الكنيسة في أعقاب عيد الميلاد المجيد مباشرة، في الأيام الخيرة الميتة من العام. كانت البرودة قارسة والصقيع يغطي الأرض، كما في تلك الأيام الأولى التي عرفها فيها. وقف بجوار ديبورا، التي كان ذراعها يرتجف من البرد دونما توقف، وظل ينظر إلى التابوت الطويل الخالي من الزخارف وهو يُنزَل في الأرض. وقفت أم أستير صامتة بجانب الحفرة العميقة، تتكئ على زوجها، الذي كان يحمل حفيدهما على ذراعيه. «الرحمة يا إلهي، الرحمة، الرحمة»، شرع أحدهم يرتل؛ وتجمعت العجائز من المعزيات فجأة حول أم أستير لسندها. بدأ التراب ينهال على الكفن؛ واستيقظ الطفل وبدأ في الصراخ.

صلى جبريل على رجاء الخلاص من إثم الدم. صلى للرب لكي يعطيه علامة في يوم من الأيام أنه قد غفر له. ولكن

الطفل الذي صرخ في تلك اللحظة في مدافن الكنيسة عاش ليسب ويلعن ويغني، ثم أسكته الرب للأبد قبل أن يعطي جبريل أية علامة.

ظل جبريل يرقب هذا الابن وهو يكبر، غريبًا على والده وعلى الرب. كانت ديبورا، التي وطدت صداقتها بأسرة أستير بعد موتها، تنقل له منذ البداية كيف يدلل الجدان رويال إلى حد الإفساد المخزي. كان قرة عين جديه لا ريب، وهذا ما كان يستثير استياء ديبورا أحيانًا لتدليلهما إياه، وأحيانًا تبتسم غصبًا عنها؛ وكما كانا يقولان، لو كان يحمل أي دم أبيض، لظهر عليه – ولكنه صورة طبق الأصل من أمه.

لم تشرق الشمس يومًا أو تغرب إلا وكان جبريل يرى ابنه الضال المحروم أو يسمع عنه؛ ومع كل يوم يمر بدا وكأن الابن يحمل في غرور متزايد القدر الذي كتب على جبينه. كان جبريل يرقبه وهو يندفع في تهور، مثل الابن الأهوج للنبي داود، نحو الكارثة التي تنتظره منذ لحظة ميلاده. بدا الابن وكأنه لم يكد يتعلم المشي حتى كان يسير مختالاً؛ ولم يكد يتعلم الكلام حتى بدأ يسب ويلعن. كثيرًا ما رآه جبريل في الشوارع، يلعب مع أترابه على الأرصفة. ذات مرة، بينما كان يعبر الطريق، قال أحد الأولاد: «ها هو القس جرايمز»، وأومأ إيماءة قصيرة في احترام صامت. ولكن رويال تطلع في بجاحة

في وجه الواعظ وقال: «كيف حالك، أيها المبجل؟» ثم انفجر في الضحك فجأة، غير قادر على أن يكبته. ود جبريل لو ابتسم في وجه الفتى، أو لو وقف ولمس جبهته، ولكنه لم يفعل شيئًا من ذلك ومضى في طريقه. ومن خلف ظهره، سمع همسة رويال المندفعة: «أراهن أن لديه أيرًا ضخمًا!» – وتضاحك الأولاد جميعهم إثر ذلك. حينئذ خطر لجبريل كيف كانت أمه ستعاني وهي تراه في تلك البراءة الضالة التي ستقوده حتمًا إلى الموت والجحيم.

ذات مرة قالت ديبورا بلا اكتراث: «أتعجب لم أسمته رويال؟ هل تظن أن هذا اسم أبيه؟»

لم يعجب جبريل لذلك. كان قد قال لأستير ذات مرة إنه إذا رزقه الرب بولد سوف يسميه رويال، لأن نسل المؤمنين نسل ملكي – وسوف يكون ابنه طفلاً ملكيًا. وقد تذكرت أستير هذا وهي تلده؛ وربما أرادت بذلك الاسم أن تسخر منه ومن أبيه وهي تلفظ آخر أنفاسها. لقد ماتت إذن وهي تكرهه؛ لقد حملت معها إلى عالم الأبدية لعنة عليه وعلى نسله.

أخيرًا رد قائلاً: «هذا ولا بد اسم أبيه على ما أظن – إلا إذا كانوا قد أسموه بهذا الاسم في المستشفى في الشمال بعد... موت أمه».

قالت ديبورا، بينما كانت تكتب خطابًا دون أن تلتفت إليه وهي تتكلم: «تعتقد جدته، الأخت ماكدونالد، أن أحد الشباب الذين يمرون من البلدة طوال الوقت في طريقهم للشمال، بحثًا عن عمل – وأنت تعلم؟ أنهم من الزنوج الكسالى – إنها تظن أن أحدهم ورط أستير في المشاكل. وتقول إن أستير ما كانت لترحل إلى الشمال إلا إذا كانت تحاول أن تجد أبًا الطفل. لأنها كانت في حالة من المعاناة عندما رحلت عن هنا» – ثم رفعت نظرها عن الخطاب للحظة – «هذا أكيد».

«أظن ذلك». عاود الكلام، وكانت ثرثرتها غير المعتادة قد أقلقته، ولكنه لم يجرؤ على أن يسكتها بغلظة. كان يفكر في أستير، وهي ترقد باردة لا حراك فيها تحت الأرض، هي التي كانت تتفجر حيوية وفُجرًا بين ذراعيه.

واصلت الحديث: «تقول الأخت ماكدونالد إنها رحلت من هنا وكان معها قليل من المال؛ وكان عليهما أن يرسلا لها نقودًا طوال الفترة التي قضتها هناك تقريبًا، وخاصة في آخر أيامها. كنا نتكلم في هذا الموضوع بالأمس – وكانت تقول، يبدو أن أستير قررت فجأة أن ترحل، ولم يكن هناك ما يثنيها عن قرارها. وتقول إنها لم تشأ أن تقف في طريق البنت – ولكنها لو كانت تعرف حقيقة الأمر ما كانت لتدعها ترحل بعيدًا عنها».

غمغم، وهو يكاد لا يعي ما يقوله: «يبدو الأمر مضحكًا أن الشك لم يساورها البتة».

«لم يساورها الشك البتة لأن أستير كانت دائمًا تخبر أمها بكل شيء – لم يكن هناك ما يدعو للخجل بينهما – كأنهما صديقتان. تقول إنها ما دار حتى بأحلامها أن أستير ستهرب منها إذا ما تورطت في مشكلة». قالت ديبورا وهي تسرح ببصرها للخارج، إلى ما وراءه، وعيناها مترعتان بشفقة غريبة مريرة. «تلك المسكينة، لا بد أنها عانت كثيرًا».

حينئذ قال لها: «لا أرى داعيًا لجلوسك أنت والأخت ماكدونالد تلوكان هذا الموضوع طوال الوقت. لقد مضى على كل هذا زمن طويل؛ وقد كبر الفتى».

قالت وهي تخفض رأسها مرة أخرى: «هذا صحيح، ولكن يبدو أن بعض الأشياء لا يمكن أن تنسى بسهولة».

«لمن تكتبين؟» سألها، وقد ضاق صدره بصمتها فجأة كما ضاق بحديثها.

تطلعت إليه: «إنني أكتب لأختك فلورنس. هل ترغب في أن أقول لها شيئًا على لسانك؟»

أجابها: «لا، فقط قولي لها إنني أصلي من أجلها».

عندما بلغ رويال السادسة عشرة كانت الحرب قد اندلعت، وتشتت كل الشباب في الأراضي الأجنبية ، في البداية أبناء الأسياد ومن بعدهم أبناء شعبه. كان جبريل يسجد كل ليلة ليصلي كيلا يذهب رويال إلى الحرب. قالت ديبورا: «ولكنني سمعت أنه يريد أن يذهب. أخبرتني جدته أنها تعاني معه لأنها ترفض أن تسمح له بالذهاب للمشاركة في الحرب».

قال متجهمًا: «يبدو أن كل هؤلاء الشباب لن يستريحوا حتى يذهبوا للحرب فيصابون أو يموتون».

قالت ديبورا بروح من المرح: «حسنًا، أنت تعرف أن هذا طبع الشباب. لا تستطيع أن تقنعهم بشيء أبدًا – وعندما يقتنعون يكون قد سبق السيف العذل».

اكتشف أنه عندما تتكلم ديبوزا عن رويال، يشب خوف عميق بداخله منصتًا ومتأهبًا. مرات كثيرة جال بخاطره أن يفضفض لها عما ينوء به قلبه. ولكنها لم تعطه الفرصة لذلك، لم تفه قط بما يتيح له مذلة الاعتراف الشافية – أو يُمكِّنه أخيرًا في هذا الصدد من أن يقول لها كم يكرهها لأنها عقيم. لم تكن تطلب منه إلا بمقدار ما تعطي، في كل الأحوال لم تكن تطلب شيئًا تلام عليه. كانت تحافظ على بيته وتشاركه فراشه؛ تعود المرضى، كما كانت تفعل دائمًا، وتهدئ من روع المحتضرين، كما كانت تفعل دائمًا. كان زواجها، الذي ظن في وقت ما أن

العالم سيسخر منه بسببه، في محله تمامًا – في نظر العالم – فلم يكن لأحد أن يتخيل لأي منهما وضعًا أفضل أو زوجًا أصلح. وحتى مرض ديبورا، الذي تفاقم بمضي السنين وأقعدها الفراش، وعقمها، فضلاً عن عارها السابق، بدوا كدلائل خفية على أنها أسلمت نفسها تمامًا للرب.

قال: «آمين»، بحذر، بعد ملاحظتها الأخيرة، وتنحنح.

قالت بنفس روح الابتهاج: «أحيانًا يذكرني بك عندما كنت شابًا».

لم يلتفت إليها، رغم أنه أحس بعينيها تنصب عليه؛ مد يده إلى إنجيله وفتحه. ثم قال: «الشباب كلهم على هذه الشاكلة، فلندعُ يسوع أن يغير ما بقلوبهم».

لم يذهب رويال إلى الحرب، ولكنه رحل بعيدًا في ذلك الصيف ليعمل في أحد الموانئ في بلدة أخرى. لم يره جبريل مرة أخرى حتى وضعت الحرب أوزارها.

في ذلك اليوم، الذي لن ينساه، خرج جبريل بعد الانتهاء من العمل لشراء بعض الدواء لديبورا، التي كانت تلازم فراشها لألم في ظهرها. لم يكن الليل قد أسدل أستاره بعد وكانت الشوارع رمادية خالية – إلا من بعض الرجال البيض المتأنقين هنا وهناك يقفون في جماعات صغيرة تحت الأضواء

المنبعثة من إحدى صالات البلياردو ومن الحانـات. كلـما مـر بجماعة، كان الصمت يسود بينهم، وينظرون إليـه في وقاحـة، متنمرين لقتله؛ ولكنه لم يكن ينطق بـشيء، بـل يحنـي رأسـه، وكانوا يعرفون أنه واعظ. خلت الـشوارع مـن الـسود تمامًـا، ماعداه. في ذلك الصباح، خارج البلدة، وُجِدت جثة جنـدي، تمزق زيه العسكري إربًا من جراء ضربه بالسياط، وبرز لحمـه الأحمر المسلوخ من البشرة السوداء. كان مستلقيًا على بطنه عند أسفل شجرة، تحفر أظافره في التراب المجروف. عنـدما قلـب على ظهره، كانت مقلتاه تحدقان إلى أعلى في دهشة وهلع، كـان فمه مفتوحًا عن آخـره؛ وسرواله، المبلـل بالـدماء، مـشقوقًا يكشف لهواء الـصباح البـارد الأبـيض شـعر عانتـه الكثيـف متلبدًا، يمتزج فيـه اللـون الأسـود بـالأحمر القـاني، ويكـشف الجرحَ الذي بدا وكأنه مازال ينبض. حُمِل إلى منزله في صـمت ورقد خلف الأبواب المغلقة، مع أهله الأحياء، الذين جلـسوا يبكون ويصلون ويحلمون بالانتقام، منتظـرين الـبلاء القـادم. حينئذ بصق أحدهـم على الرصيف عند قدمي جبريـل، ولكنـه واصل السير، دون أن يتغير وجهه، وسمع الهمس لاذعًـا مـن خلفه أنه زنجي طيب، ولا يتورط في المشاكل. أمل ألا يتوجـه إليه أحدهم بالحديث، وألا يتحتم عليـه أن يبتـسم في أي مـن هذه الوجوه البيضاء المعروفة جيدًا. أثناء سيره، وجسده أكثـر تصلبًا من رمح من فرط حذره، كان يصلي، كما علمته أمـه أن

يصلي، طلبًا للعطف والمحبة؛ ولكنه كان يحلم بملمس جبهة رجل أبيض تحت حذائه، مرة تلو أخرى، حتى يتمايل الرأس فوق العنق المدقوق ولا تشعر قدمه سوى بالدم المتدفق. كان يفكر أن يد الرب وحدها هي التي أبعدت رويال، لأنه لو بقي لقتلوه حتمًا؛ كان يفكر في ذلك عندما صادف رويال في وجهه عند زاوية الشارع.

بدا رويال حينذاك في قامة جبريل، عريض المنكبين، نحيلاً. كان يرتدي حلة جديدة، زرقاء ذات خطوط عريضة، ويحمل تحت إبطه لفافة في ورق بني مربوطة بخيط. حملق كل منهما في وجه الآخر دون أن يتعارفا. حملق رويال فيه بعداء واضح، قبل أن ينزع سيجارة مشتعلة من بين شفتيه، وقد بدا أنه تذكر وجه جبريل، وقال في أدب متألم: «كيف حالك يا سيدي». كان صوته غليظًا، وتفوح من أنفاسه رائحة ويسكي خفيفة.

لم يستطع جبريل أن ينطق في الحال؛ جاهد لكي يجد أنفاسه. ثم قال له: «كيف حالك». ووقفا عند ناصية الشارع المهجور كلاهما ينتظر أن يقول الآخر شيئًا على قدر عظيم من الأهمية. آنذاك، ورويال على وشك التحرك، تذكر جبريل الرجال البيض المنتشرين في أنحاء البلدة.

صاح به: «أليس لديك عقل يا فتى؟ ألا تعلم أنه ليس هناك ما يدعوك للخروج هنا لتتمشى على هذا النحو؟»

حدق رويال فيه، مترددًا أيضحك أم يشعر بالاستياء، فقال جبريل له في لهجة أكثر رقة: «أقصد أنه من الأفضل أن تأخذ حذرك. فلا يوجد أحد في هذه البلدة إلا البيض اليوم. وقد قتلوا... الليلة الماضية...»

حينئذ لم يستطع أن يواصل كلامه. رأى، فيما يشبه الرؤيا، جثة رويال، ممددة ثقيلة بلا حراك للأبد على الأرض، وأعمت الدموع عينيه.

راح رويال ينظر إليه، وعلى وجهه حنو بارد غاضب.

ثم قال باقتضاب: «أعرف، ولكنهم لن يضايقوني. لقد حصلوا على زنجيهم لهذا الأسبوع. ولن أذهب بعيدًا في أي طريق».

فجأة بدت ناصية الشارع التي وقفا عندها في تلك اللحظة وكأنها تهتز تحت ثقل خطر مميت. للحظة بدا الأمر، وهما واقفان هناك، وكأن الموت والدمار يندفعان نحوهما: رجلان أسودان وحدهما في البلدة المظلمة الساكنة حيث يجوس الرجال البيض كالسباع – أي رحمة يأملان فيها، إذا ما وُجِدا هنا، وهما يتحادثان؟ من المؤكد سوف يُظن أنهما

يخططان للانتقام. وسارع جبريل مبتعـدًا، وهـو يفكـر كيـف ينقذ ابنه.

قال جبريل: «باركك الرب يا فتى. فلتسرع الآن».

قال رويال: «نعم، شكرًا». وابتعد، منحرفًـا عنـد ناصـية الشارع. استدار إلى جبريل وقال مبتسمًا: «فلتنتبه أنت أيضًا».

انعطف رويال عند زاوية الـشارع وراح جبريـل ينـصت لوقع خطواته وهي تبتعد. ابتلعها الصمت؛ لم يـسمع جبريـل أية أصوات ترتفـع لتـدعو لقتـل رويـال وهـو يـشق طريقـه؛ وسرعان ما ساد الصمت أرجاء المكان.

لم تمضِ سنتان وأخبرته ديبورا أن ابنه قد مات.

الآن كان جون يحاول أن يصلي. من حوله كان ثمة ضجة كبيرة للصلاة، ضجة البكاء والغناء. كانت الأخت ماكندلس هي التي تقود الغناء، كانت تغني وحدها تقريبًا، لأن الآخرين لم يكفوا عن النحيب والبكاء. ولطالما سمع هذه الأغنية طوال حياته:

«إلهي، إني مسافر، يا إلهي،

لقد انتعلت حذاء السفر».

دون أن يرفع عينيه، كان بإمكانه أن يراها واقفة في مكانها المقدس، تتشفع بدم المسيح لمن كانوا يسعون للخلاص هناك،

رأسها مطوح للخلف، وعيناها مغلقتان، وقدمها تدق الأرض. لم تكن تشبه، وقتذاك، الأخت ماكاندلس التي كانت تأتي أحيانًا لزيارتهم، ولا المرأة التي كانت تخرج كل يوم للعمل لدى البيض في وسط المدينة، وترجع في المساء، ترتقي، وهي في منتهي الإنهاك، درجات السلم الطويل المظلم. لا: كان وجهها قد تحول الآن، صار كيانها كله جديدًا بقوة خلاصها.

سمع صوتًا يقول: «الخلاص حقيقي، الرب حقيقي. الموت يأتي الآن أو لاحقًا، لِمَ تتردد؟ الآن هو وقت البحث عن الرب وخدمته». كان الخلاص حقيقيًا لكل هؤلاء الآخرين، وربما يكون حقيقيًا بالنسبة له. عليه فقط أن يمد يده وسوف يمسه الرب؛ عليه فقط أن يصيح وسوف يسمعه الرب. الآن، كل هؤلاء الآخرين الذين يصرخون بعيدًا كل البعد عنه بكل هذا السرور، كانوا في وقت مضى غارقين في خطاياهم، كما هو الآن – وصرخوا وسمعهم الرب، وخلصهم من كل آلامهم. وما فعله الرب للآخرين، من الممكن أن يفعله له أيضًا.

ولكن، هل خلصهم من كل آلامهم؟ إذن لِمَ تبكي أمه؟ ولِمَ يقنط أبوه؟ إذا كانت قوة الرب عظيمة حقًا، فلم حياتهم على هذا القدر من الشقاء؟

لَمْ يحاول من قبل أن يفكر في شقائهم؛ بل لم يواجهه من قبل في مثل هذا المكان الضيق. لقد كان هذا الشقاء دائمًا هناك، ربما خلف ظهره، كل هذه السنوات، ولكنه لم يلتفت ليواجهه قط. الآن هاهو الشقاء يواجهه، ويحدق فيه، ولا فرار منه بعد الآن، يفغر فمه بلا نهاية. يتأهب لابتلاعه. فقط يد الرب هي التي بإمكانها أن تخلصه. ولكنه، في لحظة، عرف على نحو ما من صوت العاصفة التي كانت تجتاحه في ألم شديد، والتي دمرت في عقله – للأبد؟ – هذا الأفق الغريب، المريح رغم ذلك، أن يد الرب ستدفعه يقينًا إلى تلك الهوة المفغورة التي تنتظره، إلى هذين الشدقين المفتوحين، إلى تلك الأنفاس الساخنة وكأنها من نيران. سوف يُساق إلى الظلمة وفي الظلمة سيبقى؛ حتى يأتي وقت غير معلوم عندما يمد الرب يده ويرفعه؛ هو، چون، الذي كان يرقد في الظلام لن يكون نفسه بعد ذلك الوقت ولكن رجلاً آخر. سوف يتغير إلى الأبد، كما يقولون؛ بُذرت نطفته في العار، ولكنه سوف يُرفع في الطهر: سوف يُولد من جديد.

حينئذ لن يكون ابن أبيه، ولكن ابن أبيه السماوي، الملك. حينئذ لن يضطر إلى الشعور بالخوف من أبيه، لأنه سيكون باستطاعته، إذا جاز التعبير، أن يلجأ في خلافه مع أبيه إلى السماء – إلى الأب الذي يحبه، الذي نزل إلى الأرض متجسدًا

ليموت من أجله. حينئذ سوف يتساوى هو وأبوه تحت بصر الرب وسمعه ومحبته. ولن يستطيع أبوه أن يضربه بعد ذلك، أو يحتقره، أو يسخر منه – هو چون، مسيح الرب. سيستطيع حينئذ أن يتحدث إلى أبيه كما يتحدث الرجال إلى بعضهم – كما يتحدث الأبناء إلى آبائهم، ليس في خشية بل في ثقة عذبة، ليس في كراهية بل في حب. لن يستطيع أبوه أن ينبذه لأن الرب ضمه.

ومع ذلك عرف، وهو يرتجف، أن هذا ما لم يكن يريده. لا يريد أن يحب أباه؛ يريد أن يكرهه، وأن يغذي تلك الكراهية، وأن يعبر عنها بالكلمات يومًا ما. لم يعد يريد قُبلة أبيه – هو الذي تلقى الكثير من الضربات. لم يكن بوسعه أن يتخيل، في أي من أيامه المقبلة ومهما كان التحول الذي قد يطرأ عليه عظيمًا، أنه سيرغب في أن يأخذ يد أبيه. العاصفة التي تهب بداخله الليلة لا يمكن أن تقتلع تلك الكراهية، لا يمكنها أن تقتلع أقوى شجرة في غابة چون، وهي كل ما تبقى الليلة، في هذا الطوفان الذي اجتاحه.

ومع ذلك أمعن في خفض رأسه أمام المذبح في تعب واضطراب. آه، لو يموت أبوه! – سينفتح الطريق أمام چون، كما لابد سينفتح أمام آخرين. ورغم ذلك سوف يظل يكرهه وهو في القبر نفسه؛ سوف يتغير حال أبيه، ولكنه سيظل أباه،

أبا چون. القبر لا يكفي كعقاب، لا يكفي لتحقيق العدالة والانتقام. الجحيم الأبدي، القائم، الدائم، المشتعل أبدًا، يجب أن يكون مصير أبيه؛ وأن يكون چون هناك يشاهده ويبقى ويبتسم ويضحك بصوت عالٍ، وهو يستمع في النهاية إلى صرخات أبيه وهو يتعذب.

وحتى حينئذ، لن يكون الأمر قد انتهى. الأب الأبدي.

آه، كانت أفكاره شريرة – ولكنه لن يكترث الليلة. في مكان ما، في هذه الدوامة العنيفة، في ظلمة قلبه، في العاصفة – ثمة شيء – شيء يجب أن يعثر عليه. لم يكن باستطاعته أن يصلي. كان عقله كالبحر ذاته: مضطربًا، وعميقًا عمقًا يستعصي على أشجع الرجال أن يخوضوا فيه، يرمي بين الحين والآخر، للعين المجردة لكي تنظر وتتعجب، بالكنوز والمخلفات المنسية في القاع منذ زمن طويل – عظام، ومجوهرات، وأصداف رائعة، رخويات كانت فيما مضى لحمًا، لآلئ كانت فيما مضى مُقَلاً. وكان هو تحت رحمة هذا البحر، معلقًا هناك تحوطه الظلمة من كل صوب.

عندما استيقظ جبريل في صباح ذلك اليوم وتأهب للخروج للعمل، كانت السماء منخفضة، سوداء تقريبًا، والهواء كثيفًا كثافة تخنق الأنفاس. في فترة متأخرة من العصر، هبت الريح وانفتحت السماء وهطلت الأمطار. هطلت

الأمطار كأن الرب في عليائه اقتنع مرة أخرى بمنافع الطوفان. كان المطر يدفع في طريقه بالمتشرد الأحدب، ويصفع الأطفال إلى داخل المنازل، ويضرب في غضب مخيف الجدران العالية القوية، وحوائط الأكواخ، ولحاء الأشجار وأوراقها، يسحق العشب العريض، ويدق أعناق الزهور. استحال العالم إلى ظلمة أبدية في كل مكان، وسال الماء على النوافذ كأن زجاجها يحمل كل دموع الأبدية، مهددًا في كل لحظة بالسقوط مهشمًا تحت ضغط هذه القوة القاهرة، التي حلت فجأة بالأرض. سار جبريل نحو المنزل عبر هذا التيه المائي (الذي أخفق بالرغم من ذلك في أن يجعل الجو صافيًا) إلى حيث كانت ديبورا تنتظره في الفراش، الذي كانت نادرًا ما تحاول أن تبرحه في تلك الأيام.

لم يلبث خمس دقائق في المنزل حتى شعر أن تغيرًا اعترى طبيعة صمتها: كان ثمة شيء متربص في الصمت على أهبة الانقضاض.

تطلع إليها من المائدة حيث جلس يتناول الوجبة التي أعدتها له بعد عناء وألم. سألها: «كيف تشعرين اليوم، يا سيدتي؟»

قالت وهي تبتسم: «أشعر كما أشعر دائمًا، لا أحسن ولا أسوأ».

قال: «سوف نهيئ الكنيسة كلها لتصلي من أجلك، حتى تنهضي على قدميك مرة أخرى».

لم تتفوه بكلمة. حول انتباهه إلى صحنه مرة أخرى. كانت تراقبه؛ فرفع رأسه عن طعامه.

قالت في بطء: « سمعتُ أخبارًا شديدة السوء اليوم».

«ماذا سمعتِ؟»

«كانت الأخت ماكدونالد هنا عصر اليوم، ويعلم الرب كم كانت حالتها مؤسية». جلس جبريل ساكنًا، يحملق فيها. «لقد تلقت خطابًا اليوم يقول إن حفيدها - رويال أنت تعرفه - قُتِل في شيكاغو. يبدو أن الرب أنزل بهذه الأسرة لعنة. الأم في الأول، والآن الابن».

للحظة لم يملك سوى أن يحملق فيها في غباء، بينما كان الطعام في فمه يصير ثقيلاً ويابسًا. في الخارج كانت جيوش المطر تتدافع، والبرق يومض في النافذة. كان يحاول أن يبتلع ما بفمه آنذاك ولكن حلقه اختنق. انتابته رعشة. «أجل»، قالت، وهي لا تنظر إليه في تلك اللحظة، «لقد كان يعيش في شيكاغو منذ عام، يشرب ويلهو، وأخبرتني جدته أنه ربما كان يقامر ذات ليلة مع بعض الزنوج في الشمال، وغضب أحدهم لأنه ظن أن الفتى يحاول أن يغشه، فأخرج مطواته وطعنه. طعنه في

حلقه، وأنه مات في لحظتها على أرضية البار، ولم يتسنَ الوقت لنقله إلى المستشفى». تقلبت في فراشها ونظرت إليه. «إن الرب يُلقي بصليب ثقيل على كاهل هذه المرأة لتحمله».

حاول أن يتكلم حينذاك؛ وتذكر مدافن الكنيسة حيث دفنت أستير، وصرخة رويال الواهنة الأولى. «هل سنأتي بجثته إلى هنا؟»

حملقت فيه: «هنا؟ لا يا عزيزي، لقد دفنوه في الشمال في مقابر المجهولين والفقراء. ولن يرى أحد هذا الفتى المسكين بعد الآن».

في الحال راح يبكي بصوت مكتوم، وهو يجلس إلى المائدة، وجسده كله يرتجف. ظلت تنظر إليه لفترة طويلة، وأخيرًا وضع رأسه على المائدة، ساكبًا فنجان القهوة، وراح يبكي بصوت مرتفع. بدا الأمر وكأن البكاء كان يعم المكان كله، مياه الألم تجوب العالم؛ جبريل يبكي، والمطر يضرب الأسطح، والنوافذ، والقهوة تنقط من حافة المائدة. سألته أخيرًا:

«جبريل....لقد كان رويال....لحمك ودمك، أليس كذلك؟»

«أجل، كان ابني» أجابها، وهو يشعر بالفرح لسماعه الكلمات تسقط من بين شفتيه حتى وهو في شدة الألم.

ران الصمت مرة أخرى. ثم قالت له: «وأنت أرسلت هذه الفتاة بعيدًا، أليس كذلك؟ بالنقود التي أخذتها من العلبة؟»

أجابها: «أجل، أجل».

سألته: «جبريل لِمَ فعلت ذلك؟ لِمَ تركتها ترحل وتموت، وحيدة؟ لِمَ لَمْ تقل أي شيء؟»

عندئذ لم يحر جوابًا. لَمْ يستطع أن يرفع رأسه.

قالت في إلحاح: «لِمَ؟ لَمْ أسألك قط عن ذلك يا عزيزي. ولكن من حقي أن أعرف - طالما كنت تتوق إلى أن يكون لك ولدٌ؟»

نهض من المائدة وهو يرتجف وسار نحو النافذة وأخذ يتطلع للخارج.

ثم قال: «لقد دعوت الرب أن يغفر لي، ولكنني لم أرغب أن يكون لي ولدٌ من عاهرة».

ردت في هدوء: «ولكن أستير لم تكن عاهرة».

«لم تكن زوجتي. ولم يكن باستطاعتي أن أتخذها زوجة. فأنا متزوج منكِ» - قال الكلمات الأخيرة في غلٍ - «لم تكن أستير ممن يفكرن في الرب - كانت لتجرني معها إلى هوة الجحيم».

قالت ديبورا: «على الأرجح».

«لقد أنقذني الرب»، قال وهو يستمع إلى الرعد وينظر إلى البرق. «مدّ الرب يده وأنقذني». بعد لحظة، استدار نحو الغرفة: «لم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا آخر»، صرخ، «ما الذي كان بوسعي فعله؟ إلى أين كان يمكن أن أذهب مع أستير، وأنا واعظ؟ وماذا كنت سأفعل بكِ؟» نظر إليها، عجوز، سوداء، صبور، تفوح منها رائحة المرض والشيخوخة والموت. «آه»، قال ودموعه مازالت تتساقط، «أراهن أنكِ في غاية السعادة اليوم، يا عزيزتي، أليس كذلك؟ عندما أخبرَتْكِ أن رويال، ابني، قد مات. فأنتِ لم ترزقي أبدًا بولد». واستدار مرة أخرى نحو النافذة. ثم قال: «منذ متى وأنتِ تعرفين بهذا الأمر؟»

أجابته: «أعرف منذ تلك الليلة، من زمن، عندما أتت أستير إلى الكنيسة»

قال: «إن عقلك شرير. لم أكن قد لمستها أبدًا وقتذاك».

قالت في تؤدة: «لا، ولكنك كنت قد لمستني أنا».

تحرك قليلاً بعيدًا عن النافذة ووقف ينظر إليها من طرف الفراش.

قالت: «جبريل، طوال هذه السنوات كنت أصلي أن يمس الرب جسدي، ويجعلني مثل أولئك النسوة اللاتي كنت

تخرج معهن طوال الوقت». كانت هادئة تمامًا؛ وجهها مترع بالمرارة والصبر. «ولكن يبدو أن هذه هي إرادة الرب. ويبدو أنني لم أستطع أن أنسى...ما فعلوا بي في الماضي عندما كنت مجرد طفلة». صمتتْ وأشاحت بعيدًا. «ولكنك لو قلت أي شيء يا جبريل حتى عندما دُفِنت تلك الفتاة المسكينة، لو أردت أن تحتفظ بالولد المسكين، لم أكن لأهتم بما سيقوله الناس، أو إلى أين يمكن أن نرحل، أو بأي شيء. كنت سأربيه كأنه ابني، أقسم بربي كنت سأفعل ذلك – وربما كان يمكن أن يكون حيًا الآن».

سألها: «ديبورا، ما الذي كنتِ تفكرين فيه طوال هذا الوقت؟»

ابتسمت وقالت: «كنت أفكر كيف ينبغي على المرء أن يرتجف عندما يعطيه الرب ما يرغبه قلبه». صمتت لبرهة: «لقد كنت أريدك منذ أن وعيت بالرغبة في أي شيء. وبعد ذلك حصلتُ عليك».

عاد مرة أخرى إلى النافذة ودموعه تسيل على وجهه.

قالت له بصوت مختلف أكثر قوة: «يا عزيزي، من الأفضل لك أن تصلي للرب لكي يغفر لك. من الأفضل ألا تكف عن الصلاة حتى يحيطك علمًا بأنه غفر لك».

تنهد قائلاً: «أجل، إنني أنتظر الرب».

حينئذ ران الصمت، إلا من صوت المطر.الذي كان يهطل مدرارًا؛ كانت السماء تمطر مذاري وأطفالاً زنوجًا، كما يذهب القول السائر. وومض البرق مرة أخرى عبر السماء وقصف الرعد.

قال جبريل: «أنصتي، إن الرب يتكلم».

قام جبريل من ركوعه على مهل، لأن نصف الكنيسة كان واقفًا الآن: الأخت برايس، والأخت ماكندليس والأم المصلية واشنطون؛ كانت الفتاة إيلا ماي تجلس في مقعدها تنظر إلى إليشا حيث كان يرقد. كانت فلورنس وإليزابيث مازالتا راكعتين؛ وكان چون أيضًا راكعًا.

بعد أن نهض جبريل، تذكر كيف قاده الرب إلى هذه الكنيسة منذ زمن طويل جدًا، وكيف حدث ذات ليلة، بعد أن فرغ من موعظته، أن قطعت إليزابيث هذا الممشى الطويل حتى المذبح، لكي تتوب أمام الرب عن خطيئتها. ثم تزوجا بعد ذلك، لأنه صدقها عندما قالت إنها تغيرت – وكانت هي، هي وابنها من الزنا، العلامة التي كان يصلي في انتظارها لسنوات طويلة مظلمة أمام الرب. كأنه عندما رآهما، أعاد له الرب مرة أخرى ما فقده من قبل.

وفيما هو واقف مع الآخرين فوق رأس إليشا الواقع على الأرض، نهض چون من ركوعه. وصوب نظرة زائغة ناعسة عابسة إلى إليشا والآخرين، وهو يرتجف قليلاً كأنه مقرور؛ ثم شعر بعيني أبيه فتطلع إليه.

في نفس اللحظة، شرع إليشا، من مرقده على الأرض، يتكلم بلسان من نار، تحت قوة الروح القدس. وراح چون وجبريل يحملقان أحدهما في الآخر، وقد كفا عن الكلام والحركة ودبت الحياة في شيء ما بينهما - بينما كانت الروح القدس تتكلم. لم ير جبريل مثل تلك النظرة على وجه چون من قبل؛ في تلك اللحظة، كان إبليس يحدق من عيني چون بينما كانت الروح تتكلم؛ كانت عينا چون المحدقتان تذكران جبريل بعيون أخرى: بعيني أمه عندما كانت تضربه، وعيني فلورنس عندما كانت تسخر منه، وعيني ديبورا عندما كانت تصلي لأجله، وعيني أستير وعيني رويال، وعيني إليزابيث الليلة قبل أن يسبه روي، وعيني روي وهو يقول له: «يا أسود يا ابن الزنا» لم يخفض چون عينيه، لكنه بدا وكأنه يرغب في التحديق للأبد في هوة روح جبريل. أما جبريل، وهو يكاد ألا يصدق أن چون بلغ به التبجح هذا الحد، فقد راح يحدق في غضب وهلع في عيني ابن إليزابيث، ابن الزنا المتواقح، الذي شب عن الطوق فجأة وأصبح شريرًا عتيًا. كاد أن يرفع يده

لكي يصفعه، ولكنه لم يفعل لأن إليشا كان يرقد بينهما. فقال له بحركة من شفتيه، دون أن يخرج منه صوت: «اركع». استدار چون فجأة، فبدت حركته كما لو كانت سبابًا، وركع أمام المذبح.

صلاة

إليزابيث

3

إلهي، يا ليتني متُّ

في أرض مصر!

بينما كان إليشا يتكلم، شعرت إليزابيث أن الرب يبعث برسالة إلى قلبها، وأنها هي المقصودة بتلك الرؤيا؛ وإذا تواضعت وأنصتت، فسوف يعطيها الرب تفسيرًا لتلك الرؤيا. هذا اليقين لم يبعث فيها شعورًا بالابتهاج، بل بالخوف. كانت خائفة مما قد يقوله الرب – مما قد يخرج من فمه من غضب، وتأثيم، ونبوءات بالمحن التي ستنزل بها.

حينذاك توقف إليشا عن الكلام، وقام من مرقده، ثم جلس إلى البيانو. كان ثمة غناء مكتوم من حولها؛ ولكنها انتظرت. وفي وهج ضوء كأنه منبعث من النيران، تأرجح أمام مخيلتها وجه چون الذي أنجبته على غير إرادتها إلى هذا العالم. كانت تبكي الليلة من أجل ولدها هذا: داعيةً أن ينجيه الرب من الغضب الرهيب، ويهبه النعمة الإلهية.

كانوا يغنون:

«هل يتحتم على يسوع أن يحمل الصليب وحده

لكي يتحرر العالم كله؟»

راح إليشا يعزف الأغنية على البيانو، بدت أصابعه مترددة، تكاد لا ترغب في العزف. وجاهدت هي أيضًا ضد نفورها الشديد، ولكنها أجبرت قلبها على أن يقول آمين، عندما التقط صوت الأم المصلية واشنطن الجواب:

«لا، لكل واحد صليب،

وثمة صليب لي».

سمعتْ بكاءً بالقرب منها – هل كانت إيلا ماي؟ أم فلورنس؟ أم صدى دموعها هي وقد صار مضخمًا؟ تلاشى البكاء خلف صوت الأغنية. لطالما سمعت هذه الأغنية طوال حياتها، شبت وترعرعت وهذه الأغنية معها، ولكنها لم تفهمها أبدًا كما تفهمها الآن. احتشدت الكنيسة بالأغنية، وكأنها صارت فضاء أو خواء تتردد في جنباته أصداء الأصوات التي دفعتها إلى هذا المكان المظلم. دأبت خالتها على غنائها، بصوت خفيض أجش، وفي كبرياء مرير:

«سوف أحمل الصليب المقدس

حتى يحررني الموت،

ثم أرجع إلى البيت، لأرتدي تاجًا،
فهناك تاج لي».

على الأرجح صارت خالتها الآن عجوزًا طاعنة في السن، ومازالت تغني هذه الأغنية بنفس غلظة الروح، في منزلها الصغير في الجنوب الذي تقاسمته هي وإليزابيث لزمن طويل. لم تعلم بعار إليزابيث – لأن إليزابيث لم تكتب لها عن جون إلا بعد زواجها من جبريل بفترة طويلة؛ ولم يتح الرب لخالتها أن تأتي أبدًا إلى مدينة نيويورك. كانت الخالة تتنبأ دائمًا بأن نهاية إليزابيث لن تكون طيبة، لأنها متكبرة ومغرورة وحمقاء، لم يُكبَح جماحها طوال أيام طفولتها.

كانت الخالة هي المصيبة الثانية في سلسلة المصائب التي قضت على طفولة إليزابيث. في البداية، عندما كانت في الثامنة من عمرها، ماتت أمها، لم تدرك إليزابيث في حينها أن تلك مصيبة، لأنها لم تكن تعرف أمها حق المعرفة وعلى وجه اليقين لم تكن تحبها. كانت أمها تتمتع بجمال فائق وبشرة فاتحة اللون، وكانت صحتها عليلة فكانت تلزم الفراش غالبية الوقت، تقرأ كتيبات روحانية عن فوائد المرض وتشكو لوالد إليزابيث مما تقاسيه. كل ما تتذكره إليزابيث عنها أنها كانت سريعة البكاء ولها رائحة كاللبن الفاسد – ربما كان لون أمها المزعج هو ما حدا بإليزابيث إلى أن تتخيل اللبن وهي تحملها بين

ذراعيها. ولكن أمها قلما كانت تحملها بين ذراعيها. وسرعان ما ساورت إليزابيث الهواجس بأن أمها لا تحملها لأنها أقتم لونًا وأقل جمالاً بالطبع منها. كانت تشعر بالخجل والكآبة في مواجهتها. ولم تكن تدري كيف تجيب على أسئلتها الحادة الملغزة، التي كانت تطرحها في غضب مفتعل كأنها أم حريصة؛ لم تستطع إليزابيث أن تتظاهر عندما كانت تُقبِّل أمها، أو تخضع لقبلة أمها، أن ثمة ما يحرك مشاعرها سوى الإحساس بواجب ثقيل. ولّد هذا بالطبع في أمها نوعًا من الغضب المرتبك فلم تكن تمل من أن تقول لإليزابيث إنها طفلة «غير طبيعية».

أما مع أبيها فكان الأمر مختلفًا؛ فقد كان – ولا يزال في مخيلتها – شابًا، وسيمًا، حنونًا، كريمًا؛ محبًا لابنته. كان يقول لها إنها قرة عينه، وإنها تسكن سويداء قلبه، وإنها أجمل امرأة صغيرة على وجه الأرض. وعندما تكون بصحبته كانت تتمايل وتتبختر في مشيتها كملكة: لم تكن تخاف شيئًا إلا اللحظة التي يقول لها فيها لقد حان موعد نومها، أو أن عليه أن ينطلق إلى أموره. كان دائمًا يشتري لها ملابس ولعبًا، ويصطحبها في أيام الآحاد للتنزه في الريف، أو للسيرك عندما يأتي السيرك للبلدة، أو إلى عروض العرائس المتحركة. كان داكن البشرة، مثل إليزابيث، ورقيقًا عزيز النفس؛ لم يغضب منها أبدًا، ولكنها

رأته مرات قليلة وهو غاضب مع الآخرين - أمها على سبيل المثال، وبالطبع خالتها فيما بعد. كانت أمها دائمة الغضب ولكن إليزابيث لم تكن تكترث؛ وفيما بعد كانت خالتها دائمة الغضب وتعلمت إليزابيث أن تتحمل ذلك: ولكن لو حدث - في تلك الأيام - وغضب أبوها منها فلا شك أنها كانت سترغب في الموت.

لم يعرف هو أيضًا بالعار الذي جللها؛ فعندما حدث، لم تفكر على الإطلاق في أن تخبره، كيف يمكن لها أن تؤلمه وقد كان لديه ما يكفيه من الألم. فيما بعد، عندما فكرت في أن تخبره، لم يكن ليكترث لأنه كان يثوي في صمت قبره.

كانت تتذكره الآن، بينما يحوطها الغناء والبكاء - وفكرتْ كم كان سيحب حفيده، الذي كان يشبهه في كثير من السمات. ربما حلمت بذلك، ولكنها لم تكن تصدق أنها حلمت بذلك في اللحظات التي كانت تسمع فيها من جون أصداءً، بعيدة ومحورة بشكل غريب، من رقة أبيها ونبرة ضحكته - وتتذكر كيف كان يلقي برأسه إلى الوراء، ووجهه الذي تركت السنون الهاربة أثرها عليه، وعينيه الناعمتين وفمه العالي عند الجانبين كفم طفل صغير - وذلك الكبرياء القاتل الذي كان أبوها يحتمي وراءه عندما يواجه بغض الآخرين. كان هو من علمها أن تبكي، إذا لزم الأمر، وحدها دون أن

يراها العالم؛ وألا تطلب الرحمة أبدًا؛ وإذا لم يكن من الموت بُدٌ، فليُقدم المرء على الموت، دون أن يستسلم للهزيمة. قال لها ذلك ذات مرة من المرات الأخيرة التي رأته فيها، عندما حُمِلَتْ على الانتقال أميالاً بعيدة، إلى ميريلاند، لكي تعيش مع خالتها. في السنوات التي تلت، كان لديها ما يبرر تذكرها لمقولته تلك؛ كان لديها من الوقت، أخيرًا، ما يتيح لها أن تكتشف في أبيها أعماق المرارة التي خرجت منها هذه الكلمات.

عندما ماتت أمها، تهاوى العالم؛ أتت خالتها، الأخت الكبرى لأمها، ووقفت محبطة أمام غرورها وتدليلها؛ فقررت في الحال أن أباها لا يصلح لتربية طفلة، ولاسيما طفلة صغيرة بريئة، كما قالت على نحو غامض. وكان هذا القرار الذي اتخذته خالتها، والذي لم تسامحها إليزابيث عليه لسنوات كثيرة، هو الذي عجل بالمصيبة الثالثة، ألا وهي افتراقها عن أبيها – عن كل ما كانت تحبه على وجه الأرض.

كان أبوها يدير ما أسمته خالتها بـ «منزل» – ليس المنزل الذي يعيشان فيه، ولكن منزلاً آخر، يرتاده الأشرار غالبًا، كما استنتجت إليزابيث. وكان لديه أيضًا «إسطبل»، وهذا ما أصاب إليزابيث بارتباك مروع، يأتي إليه الرعاع من الزنوج، وحثالة الحثالة، من كل حدب وصوب (وأحيانًا ما يصحبون نساءهم وأحيانًا يجدونهن هناك) ليأكلوا ويشربوا خمرًا

رخيصة، ويعزفوا الموسيقى طوال الليل - وليفعلوا أشياءً أكثر سوءًا، كما أوحى بذلك صمت خالتها الرهيب، أشياءً من الأفضل السكوت عنها. لذا أقسمت أنها ستقلب السماوات والأرض قبل أن تدع بنت أختها تنشأ مع رجلٍ على هذه الشاكلة. ومع ذلك، لم يتطلب الأمر منها سوى أن تتطلع إلى السماوات، وأن تزعج من الأرض تلك البقعة التي تقوم عليها دار القضاء، لكي تكسب المعركة: كقصف الرعد، أو كرقية سحرية، كانتشار الضوء لحظة وحلول الظلام في اللحظة التالية، تغيرت حياة إليزابيث. ماتت أمها، وأُستبعد أبوها، وعاشت في ظل خالتها.

بصورة أدق، كان الظل الذي عاشت فيه، كما كانت ترى الآن، هو ظل الخوف - الخوف الذي ازداد ثقله بفعل الكراهية. فلَمْ تكن لتُدين أباها ولو للحظة؛ وما كان حبها له ليتأثر لو أخبروها، بل لو قدموا لها دليلاً دامغًا، أنه ابن عم الشيطان المقرب. لم يكن هذا الدليل ليوجد بالنسبة لها، بل حتى لو وُجد، لما كانت لتندم على كونها ابنته، وما كانت لتطلب سوى أن تتعذب بجواره في الجحيم. وعندما أُخذت بعيدًا عنه، ما كان خيالها ليصّدق تلك الشرور التي اتهم بها - فلم تساورها أية شكوك تجاهه. فعندما ابتعد عنها واستدار ليرحل، صرخت صراخًا أليمًا، وكان عليهم أن يحملوها إلى

القطار. وفيما بعد، عندما تأتى لها أن تفهم كل ما حدث على أكمل وجه، لم تضمر له في قلبها أي اتهام. ربما كانت حياته شريرة، ولكنه كان شديد الحنو عليها. يقينًا كلفته حياته ما يكفي من الألم بحيث لم يعد يكترث بحكم العالم عليه. لم يعرفه أحد كما كانت تعرفه هي؛ لم يكترث أحد كما كانت تكترث! ما أحزنها فقط هو أنه لم يعد قط لكي يأخذها، وبينما كانت تكبر لم تره إلا نادرًا. وعندما أصبحت في ريعان الشباب لم تره على الإطلاق؛ ولكن هذا كان خطأها.

لا، لم تتهمه أبدًا؛ ولكنها اتهمت خالتها، منذ اللحظة التي أدركت فيها أن خالتها كانت تحب أمها، ولا تحبه هو. والمعنى الوحيد لذلك أنها لم تكن تحب إليزابيث أيضًا، وهذا ما أثبتته حياتها معها. حقًا كانت خالتها دائمًا تعبر عما تكنه من حب لابنة أختها، وعن التضحيات التي بذلتها في سبيلها، وعن الرعاية التي تبذلها لكي ترى إليزابيث تكبر وتصبح فتاة مسيحية طيبة. ولكن كل هذا الكلام لم ينطلِ على إليزابيث ولو للحظة واحدة، وطوال السنوات التي قضتها مع خالتها كانت تكن لها الاحتقار دائمًا. كانت تشعر أن ما تتحدث عنه خالتها باعتباره حبًا لم يكن سوى نوع من الرشوة، أو التهديد، رغبة كريهة في السيطرة. عرفت إليزابيث أن ذلك النوع من السجن الذي قد يفرضه الحب يمثل أيضًا، وبصورة غامضة، نوعًا من

حرية الروح والنفس، ماء في الصحراء الجرداء، ولا صلة له بالسجون والكنائس والقوانين والثواب والعقاب التي كانت تعشش في آفاق مخيلة خالتها.

ومع ذلك، في خضم الاضطراب العظيم الذي ألم بها الليلة، تساءلت إن كان قد جانبها الصواب؛ إن كانت قد أغفلت شيئًا، يعذبها الرب بسببه. كانت خالتها تخاطبها في تلك الأيام قائلة: «أيتها الآنسة المتكبرة، من الأفضل لك أن تنتبهي لسلوكك، هل تسمعينني؟ فأنت تمشين وأنفك شامخ في السماء، وسوف يجعلك الرب تسقطين إلى قاع الأرض. هل تفهمين كلماتي. سوف تدركين».

لم ترد إليزابيث أبدًا على تلك الاتهامات الدائمة؛ كانت تكتفي بتصويب نظرة محدقة وقحة إلى خالتها، نظرة كانت ترسم بها ازدراءها وتردع أي ذريعة لعقابها في الآن نفسه. ونادرًا ما فشلت تلك الحيلة التي تعلمتها، بشكل غير واعٍ، من أبيها في إتيان ثمارها. بمرور السنين، بدا أن خالتها قد تعلمت أن تقيس في كل نظرة المسافات الجليدية التي وضعتها إليزابيث بينهما، والتي لا يمكن يقينًا تجاوزها الآن. كانت الخالة تردف كلامها، وهي تخفض عينيها، وبصوت مكتوم، بعبارة: «لأن الرب لا يحب ذلك».

كان قلب إليزابيث يرد عليها قائلاً: «في الحقيقة لا أكترث بما يكرهه الرب أو تكرهينه أنت. سوف أرحل من هنا. فسوف يأتي ويأخذني، سوف أرحل من هنا». كانت تشير إلى أبيها الذي لم يأتِ أبدًا. وبمرور السنين، اقتصرت إجابتها على: «سوف أرحل من هنا». كان تصميمها هذا يتدلى على صدرها كجوهرة ثقيلة؛ كان مكتوبًا بحروف من نار على سماء عقلها القاتمة.

أجل، كان ثمة شيء أغفلته. قَبْلَ الْكَسْرِ الكِبْرِيَاءُ، وَقَبْلَ السُّقُوطِ تَشَامُخُ الرُّوحِ. لم تكن تعرف ذلك: لم تكن تتخيل أنه من الممكن أن تسقط. الليلة سألت نفسها كيف يمكن أن توصل هذه المعرفة لابنها؛ إن كان يمكنها أن تساعده على احتمال ما لم يعد بالإمكان تغييره الآن؛ إن كان سيسامحها مع مُضي الحياة على كبريائها، وحماقتها، ومساومتها الرب! الليلة، تجلت أمامها، كاملةً غامرةً، كل تلك السنين التي سبقت سقوطها والتي قضتها في منزل خالتها المعتم – ذلك المنزل الذي كانت تفوح منه دائمًا رائحة الملابس المخزونة، ويعبق برائحة العجائز ونميمتهن، تلفه رائحة الليمون الذي كانت تضعه خالتها في شايها، ورائحة السمك المقلي، ورائحة ماكينة تقطير كحول كان أحدهم يخزنها في القبو؛ وتذكرت حالتها، وهي تدخل أية حجرة قد تكون خالتها جالسة بها، أو وهي

تجيب على أي شيء قالته خالتها، وهي تقف أمامها متصلبة كالمعدن يأكلها سرطان الكراهية والخوف، تخوض، كل ساعة وكل يوم، معركة تشنها دون توقف في أحلامها. كانت تعرف الآن ما الذي دفعها لإدانة خالتها في صمت منذ البداية: انتزاعها طفلة مذعورة من بين ذراعي أبيها الذي كانت تحبه. كانت تعرف الآن لماذا كانت تشعر أحيانًا، على نحو مبهم للغاية وضد إرادتها، أن أباها قد خانها: لأنه لم يقلب الأرض رأسًا على عقب لكي يسترد ابنته من امرأة لا تحبها، ولا تكّن لها ابنته الحب. ولكنها عرفت الليلة كم هو صعب على المرء أن يقلب الأرض رأسًا على عقب، لأنها قد حاولت مرة، وباءت بالفشل. وعرفت أيضًا – وهذا ما جعل الدموع التي كانت تمس فمها أكثر مرارة من الحنظل – أنه لولا الكبرياء والمرارة اللتان كانت تحملهما في قلبها ضد خالتها ما كان يمكن أن تحتمل الحياة معها.

وتذكرت ريتشارد. كان ريتشارد هو من أخذها من هذا المنزل، ومن الجنوب، إلى مدينة الهلاك. كان قد ظهر في حياتها فجأة – ومن لحظة وصوله حتى لحظة موته كان يملأ حياتها. حتى في هذه الليلة أيضًا، في سويداء القلب الحصينة، حيث تختبئ الحقيقة ولا يوجد عدا الحقيقة، لم تندم على أنها عرفته؛ أو تنكر أن طوال وجوده في حياتها لم يكن نعيم الجنة يعني لها شيئًا

– وأنها لو اضطرت للاختيار بين ريتشارد والرب، كانت ستولي ظهرها للرب، حتى وإن أبكاها ذلك.

ولهذا أخذه الرب منها. ولكل هذا كانت تدفع الثمن الآن، لكل هذه الكبرياء، والكراهية، والمرارة، والشهوة – هذا الطيش، والفساد – كل المشاعر التي أصبح ابنها وريثًا لها.

لم يولد ريتشارد في ميريلاند، بل كان يعمل هناك في الصيف الذي قابلته فيه في أحد محلات البقالة. كان عمره وقتها اثنين وعشرين عامًا، وهو ما بدا لها سنًا كبيرة في تلك الأيام. انتبهت إليه على الفور لأنه كان شديد التجهم وبالكاد يراعي اللياقة. كان يخدم الزبائن في غضب، كما قالت خالتها، وكأنه يتمنى أن يسمم لهم الطعام الذي يشترونه. كانت إليزابيث تحب رؤيته وهو يتحرك؛ كان جسده نحيلاً للغاية، وجميلاً وعصبيًا – مشدودًا كالوتر، على حد رؤية إليزابيث الثاقبة. كان يتحرك مثل قط تمامًا، دائمًا على أطراف قدميه، فيه من القط ذلك الكبرياء المثير اللامبالي، ووجهه مغلق، لا يشع من عينيه أي نور. كان يدخن طيلة الوقت، السيجارة بين شفتيه وهو يجمع الأرقام، وأحيانًا تبقى لتحترق على طاولة المحل بينما يذهب لإحضار البضاعة. وعندما كان يقول صباح الخير أو مع السلامة لشخص دخل أو خرج، كان يقولها دون أن يرفع ناظريه، وبلا مبالاة تكاد تقارب الوقاحة. وعندما كان

أحد الزبائن ينتهي من شراء ما يحتاجه ويعد المتبقي له من نقود على طاولة المحل، ويستدير ليغادر ويقول ريتشارد: «شكرًا لك»، كان وقعها يبدو كأنها شتيمة حتى أن الزبائن كانوا يتلفتون في دهشة محملقين.

علقت إليزابيث ذات مرة لخالتها: «من المؤكد أنه لا يحب العمل في هذا المتجر».

قالت خالتها في سخرية: «إنه لا يحب العمل، بل يحبك أنت فقط».

ذات يوم صيفي ساطع، وسيبقى ساطعًا في ذاكرتها للأبد، دخلت إلى المتجر وحدها، وكانت ترتدي أجمل ثوب صيفي أبيض لديها، وكانت قد فردت شعرها حديثًا وتركته مموجًا عند الأطراف، وربطته بشريط قرمزي. كانت ذاهبة في رحلة خلوية تنظمها كنيسة كبيرة بصحبة خالتها، وجاءت إلى المتجر لتشتري بعض الليمون. مرت على صاحب المتجر، الذي كان بدينًا للغاية، وهو يجلس على الرصيف، يهوّي على نفسه بمروحة؛ سألها وهي تعبر عما إذا كان الجو حارًا بما فيه الكفاية بالنسبة لها، قالت شيئًا ما ودلفت إلى المتجر المعتم الذي تفوح منه روائح قوية، حيث كان الذباب يطن، ويجلس ريتشارد إلى طاولة المحل وفي يده كتاب يقرأه.

انتابها في الحال شعور بالذنب أنها أزعجته، وتمتمت معتذرة بأنها تريد شراء بضع ليمونات فقط. توقعت أن يجلب لها الليمون بطريقته المتجهمة وأن يعود إلى كتابه، ولكنه ابتسم، وقال: «أهذا كل ما تريدينه؟ من الأفضل أن تتذكري. هل أنت متأكدة أنك لم تنسِ شيئًا؟»

لم تره مطلقًا يبتسم من قبل، بل ولم تسمع صوته قط. طفر قلبها وجلاً، ثم بدا أنه توقف للأبد من الاضطراب. لم يكن باستطاعتها سوى أن تقف هناك محملقة فيه. ولو طلب منها أن تكرر طلب ما كانت تريده ربما لم تكن لتسعفها الذاكرة. وجدت نفسها تنظر في عينيه. وحيث كانت تظن أنه لا يوجد نور على الإطلاق، وجدت نورًا لم تره من قبل – كان لا يزال يبتسم، ولكن كان ثمة شيء متعجل في ابتسامته بصورة غريبة. ثم قال: «كم ليمونة، يا فتاتي الصغيرة؟»

«ست»، قالت أخيرًا، وقد شعرت بارتياح شديد لاكتشافها أنه لم يحدث شيء: كانت الشمس مازالت مشرقة، والرجل البدين مازال يجلس عند الباب، وقلبها يدق وكأنه لم يتوقف البتة.

لم تكن تخدع نفسها مع ذلك؛ كانت تتذكر اللحظة التي توقف فيها قلبها عن الدق، وعرفت أنه يدق الآن بصورة مختلفة.

وضع الليمون في كيس، فاقتربت في ارتباك غريب من الطاولة لتعطيه النقود. كانت حالتها مزرية، لأنها وجدت نفسها عاجزة عن أن ترفع عينيها من عليه أو تنظر إليه.

سألها: «هل هذه أمك التي تأتين معها كل مرة؟»

أجابته: «لا، إنها خالتي». لم تعرف ما الذي دفعها لأن تقول: «أمي ميتة»، ولكنها قالتها.

قال: «أوه». ثم أضاف: «وأمي أيضًا». نظر كلاهما مليًا إلى النقود على الطاولة. التقط النقود ولكنه لم يبرح مكانه. ثم قال أخيرًا: «لم أظن أنها أمك».

«لماذا؟»

«لا أعرف. ولكنها لا تشبهك».

شرع يشعل سيجارة، ثم نظر إليها ووضع علبة السجائر مرة أخرى في جيبه.

قالت على عجل: «معذرة، يجب أن أذهب على أية حال. إنها تنتظر – فسوف نخرج».

استدار ودق على آلة النقدية. أخذت الليمون وأعطاها باقي النقود. شعرت أن عليها أن تقول شيئًا آخر – بشكل ما لم يبدُ لائقًا أن تذهب في صمت – ولكنها لم تستطع أن تفكر في أي شيء. ولكنه بادرها:

«لذلك إذن تبدين في أبهى حلة اليوم. أين ستذهبان؟»

«نحن ذاهبان في رحلة خلوية - رحلة مع إحدى الكنائس». أجابته، وفجأة ودونما سبب ابتسمت لأول مرة.

وابتسم بدوره، وأشعل سيجارته، وراح ينفث الدخان بحذر بعيدًا عنها. «هل تحبين الرحلات الخلوية؟»

أجابته: «أحيانًا». لم تكن على راحتها معه بعد، ومع ذلك كانت قد بدأت تشعر بالرغبة في الوقوف والحديث إليه طول اليوم. كانت تود أن تسأله عما يقرأه، ولكنها لم تجرؤ. ومع ذلك سألته فجأة: «ما اسمك؟»

قال: «ريتشارد».

«أوه»، قالت في تأمل. ثم أردفت: «اسمي إليزابيث».

قال: «أعرف، لقد سمعتها تناديك ذات مرة».

بعد برهة طويلة، قالت مستسلمة: «حسنًا، وداعًا».

«وداعًا؟ أنتِ لست راحلة، أليس كذلك؟»

«أوه، بلى»، قالت في ارتباك.

قال: «حسنًا، طاب يومك».

قالت: «أجل، طاب يومك».

واستدارت خارجة إلى الشوارع؛ ليست نفس الشوارع التي دلفت منها منذ لحظة. تلك الشوارع، والسماء من فوقها، والشمس، والبشر العابرون، كلهم تغيروا في لحظة، ولن يعودوا إلى ما كانوا عليه مرة أخرى.

فيما بعد كان يسألها: «هل تذكرين ذلك اليوم، عندما جئت إلى المتجر؟»

«أجل؟»

«حسنًا، لقد كنت في غاية الجمال في ذلك اليوم».

«لم أكن أظن أنك نظرت إليّ من قبل قط».

«حسنًا، وأنا أيضًا لم أظن أنكِ نظرت إليّ من قبل قط».

«كنت تقرأ كتابًا».

«أجل».

«أي كتاب كان يا ريتشارد؟»

«أوه، لا أتذكر. مجرد كتاب».

«لقد ابتسمتَ يومها».

«وأنتِ أيضًا».

«لا، لم أفعل. أنا أتذكر».

«نعم، فعلتِ».

«لا، لم أفعل. إلا عندما ابتسمت أنت».

«حسنًا، كنتِ في غاية الجمال في ذلك اليوم على أية حال».

لم ترغب أن تفكر في جمود القلب، والبكاء المتعمد، والخداع، والقسوة التي خاضت بها معركتها مع خالتها من أجل حريتها. وكسبت المعركة، ولكن بشروط لا يمكن نسيانها. كان الشرط الأساسي هو أن تضع نفسها تحت حماية امرأة شديدة الاحترام من قريبات خالتها البعيدات، تعيش في نيويورك – فمع نهاية الصيف، قال ريتشارد إنه راحل إلى هناك وإنه يريدها أن تصحبه لكي يتزوجا هناك. قال ريتشارد إنه يكره الجنوب، وربما كان هذا هو السبب الذي جعلهما لا يفكران في أن يبدآ حياتهما بعد الزواج هناك. وكانت إليزابيث متخوفة من أن خالتها قد تكتشف كيف تسير الأمور بينها وبين ريتشارد، وفي هذه الحالة لن تعدم وسيلة لتفريقهما عن بعضهما، كما فعلت منذ سنوات بعيدة في حالة أبيها. كان هذا، كما اعتبرته إليزابيث فيما بعد، أول خطأ في سلسلة الأخطاء المنحطة التي أدت إلى سقوطها إلى أسفل سافلين.

ولكن النظر من أسفل السفح الصخري إلى الطريق الذي قاد المرء إلى هذا المكان ليس كالسير على الطريق بالفعل؛ فالرؤية، في أضعف الأحوال، لا تتغير إلا خلال الرحلة.

فالإنسان لا يستطيع أن يرى ما لم يكن يراه من أي مكان آخر إلا عندما ينحرف به الطريق أو يسقط أو يصعد، بشكل مفاجئ وخؤون، وبصورة مطلقة لا مجال للمجادلة فيها. في تلك الأيام، لو تنزل الرب ذاته من عليائه وضرب الأبواق ليخبرها أن ارجعي، لما استطاعت أن تسمعه، و من المؤكد ما كانت لتكترث حتى لو سمعت. كانت تعيش في تلك الأيام في عاصفة نارية في القلب منها ريتشارد. وكانت تحارب فقط من أجل الوصول إليه – من أجل هذا فقط؛ كانت خائفة مما قد يحدث لو افترقا.

كان مبررها في الرحيل إلى نيويورك هو الاستفادة من الفرص العظيمة التي يتيحها الشمال للملونين؛ مثل الدراسة في مدارس الشمال، والحصول على وظيفة أفضل مما هو متاح لها في الجنوب. لم تستطع خالتها، التي كانت تستمع لكل هذا دون أن تخفف من سخريتها المعتادة، أن تنكر أنه من جيل إلى جيل، كما قالت على مضض، لا مفر من تغير الأمور – فضلاً عن ذلك لم يكن بوسعها أن تتخذ موقفًا يبدو وكأنه ضد مصلحة إليزابيث. في شتاء عام 1920، مع مطلع العام، وجدت إليزابيث نفسها في غرفة خلفية قبيحة في حي هارلم في منزل قريبة خالتها، وهي المرأة التي اتضحت مكانتها المحترمة مباشرة من رائحة البخور التي كانت تحترق في غرفها والجلسات الروحانية التي كانت تعقدها كل ليلة سبت.

مازال المنزل قائمًا، غير بعيد؛ كثيرًا ما كانت تضطر للمرور من أمامه. وبدون أن تتطلع إلى أعلى كان بوسعها أن ترى نوافذ الشقة التي أقامت بها ولافتة المرأة التي لا تزال معلقة على النافذة: مدام ويليام، روحانية.

وجدت وظيفة خادمة في نفس الفندق الذي كان فيه ريتشارد عاملاً على المصعد. قال ريتشارد إنهما سيتزوجان بمجرد أن يدخر بعض النقود. ولكن بما أنه كان يذهب إلى المدرسة في الليل ولا يكسب إلا القليل من النقود، أصبح زواجهما، الذي ظنت أنه سيحدث بمجرد وصولهما إلى نيويورك، من خطط المستقبل الذي صار بعيدًا جدًا. وقد واجهها هذا الوضع بمشكلة كانت قد رفضت أن تفكر بها عندما كانت بموطنها في ميريلاند، ولكنها لا تستطيع الفرار منها الآن: وهي مشكلة عيشهما معًا. اجتاح الواقع، إذا جاز التعبير، أحلامها العظيمة لأول مرة، ووجدت المناسبة لتسأل نفسها، في حزن، عما جعلها تتخيل أنها ما أن تكون مع ريتشارد فسوف تصمد أمامه. خلال علاقتها بريتشارد في الجنوب كانت قد تمكنت، بصعوبة بالغة، أن تحافظ على ما كانت خالتها تشير إليه باعتباره لؤلؤتها التي لا تقدر بثمن. كان ما تخيلت أنه شاهد على قوتها الأخلاقية الأنثوية، كما اتضح لها الآن، لا يُعزَى إلا إلى خوفها الكبير من خالتها،

وعدم توافر الفرصة في تلك البلدة الصغيرة. أما هنا في هذه المدينة الكبيرة حيث لا يكترث البشر، فقد يعيشون في نفس البناية لسنوات دون أن يتكلموا مع بعضهم البعض على الإطلاق، وجدت نفسها، عندما أخذها ريتشارد بين ذراعيه، على شفير هاوية: واندفعت هابطة المنحدر دونما انتباه إلى لجة البحر الرهيب.

وهكذا بدأ السقوط. هل كان يترصدها منذ اليوم الذي أُنتزعَت فيه من ذراعي أبيها؟ لم يكن العالم الذي وجدت نفسها فيه يختلف عن العالم الذي أُستنقذَت منه، منذ زمن طويل. ها هنا نفس النساء اللاتي كن سبب إدانة خالتها الغاضبة لأبيها - يسرفن في السكر، ويَفجُرن في الكلام، تفوح من أنفاسهن رائحة الويسكي والسجائر، ويسرن بتلك السطوة الغامضة التي تتمتع بها النساء اللاتي تعرفن أي ضرب من ضروب العنف اللذيذ يمارسن تحت ضوء القمر والنجوم، أو تحت أضواء المدينة المتنمرة، على القش الخشن أو على المخادع الوثيرة. هل أصبحت إليزابيث بسقوطها العذب، وقيدها المحكم، واحدة من أولئك النسوة الآن؟ وها هنا الرجال الذين كانوا يرتادون ليل نهار «إسطبل» أبيها - بحديثهم المعسول وموسيقاهم، وعنفهم وشهوتهم - سود وسمر وخمريون، ينظرون إليها بعيون فاجرة نهمة ضاحكة. هؤلاء هم أصدقاء ريتشارد. لم يكن أي منهم يتردد على

الكنيسة - بل قد يستعصي على المرء أن يتخيل أنهم يعلمون بوجود الكنائس أصلاً - كانوا كلهم يجدفون على الرب، كل ساعة وكل يوم، في أحاديثهم، وفي حيواتهم، وفي قلوبهم. بل وقد لا يتورعون عن ترديد ما قاله ريتشارد ذات مرة عندما ذكرت على استحياء محبة يسوع: «بإمكانك أن تخبري ابن الزنا هذا أن يقبل مؤخرتي الكبيرة السوداء».

بكت من شدة رعبها لسماع هذا الكلام؛ ومع ذلك لم تنكر أن ذلك الفيض من المرارة يقابله ينبوع عميق من الحزن. في نهاية المطاف، لم يكن ثمة فارق ضخم بين عالم الشمال والجنوب الذي فرت منه؛ كان هناك فارق واحد فقط: أن الشمال كان أكثر في وعوده. ووجه شبه واحد: أن ما يعد به الشمال لا يعطيه، وما يعطيه بيدٍ، بعد لأي وعسر، يأخذه بالأخرى. في تلك المدينة المتوترة، الجوفاء، الصاخبة، فهمت أخيرًا عصبية ريتشارد التي أسرتها بشدة - توتره الشديد، بلا أمل أو إمكانية في التخفف، أو الحل، حتى أنها كانت تشعر به في عضلاته، وتسمعه في صوت تنفسه، بل حتى وهو ينام على صدرها.

ربما لهذا السبب لم تفكر في هجره على الإطلاق، بالرغم من خوفها الشديد طوال ذلك الوقت، ووجودها في عالم لم تكن لتجد فيه موطئًا لقدميها لولاه، لم تهجره لأنها كانت

خائفة مما قد يحدث له بدونها. لم تقاومه لأنه كان بحاجة إليها. ولم تلح في طلب الزواج لأنها لم تشأ أن ينزعج منها، وهو على حاله المنزعجة من كل ما حوله. كانت ترى نفسها سنده؛ في عالم من الظلال، كانت هي الحقيقة التي لا تقبل الشك التي يلجأ دائمًا إليها. مرة أخرى، وبالرغم من كل ما حدث، لم تندم على علاقتها به. لقد حاولت أن تندم على ذلك، ولكنها لم تفعل ولا حتى الليلة. أين إذن توبتها؟ وكيف يمكن أن يسمع الرب صرختها؟

في البداية، عاشا في سعادة غامرة؛ وحتى النهاية كان شديد الطيبة معها، ولم يكف عن حبه لها، وكان يحاول دائمًا أن يعرفها أنه يحبها. وكما لم تستطع أن تدين أباها، لم تدنه. كانت تتفهم ضعفه، وهلعه، بل ونهايته الدامية. فما أكرهت الحياة حبيبها على احتماله، حبيبها، هذا الفتى الجامح التعس، ما كان ليحتمله رجل أقوى وأكثر فضيلة منه.

كان السبت أحلى أيامهما، لأنهما كانا يعملان فقط حتى الساعة الواحدة. ويتبقى لهما فترة العصر وكل الليل تقريبًا، لأن مدام وليامز كانت تقيم جلساتها الروحانية ليلة السبت وكانت تفضل ألا تكون إليزابيث في المنزل، لأن أرواح الموتى قد تتراجع عن الكلام أمام تشككها الصامت. كانا يلتقيان عند مدخل العاملين بالفندق. تجد ريتشارد هناك قبلها، يبدو

على نحو غريب أصغر سنًا وأكثر تميزًا بدون زي الفندق القبيح المحبوك. عادة ما تجده يتكلم أو يضحك مع بعض الشباب الآخرين، أو يلعبان النرد، وعندما يسمع وقع خطواتها على طول البهو الحجري كان يتطلع إليها ضاحكًا؛ ويلكز أحد الشباب الآخرين في مكر، قائلاً بصوت بين الصياح والغناء: «هيـــــه! انظروا، أليست جميلة؟»

كانت دائمًا تتورد خجلاً بين الابتسام والعبوس، وتلمس ياقة ثوبها بعصبية.

«جورجيا براون الجميلة!»(*) قد يقول أحدهم.

«أقدم لكم الآنسة براون»، كان ريتشارد يقول حينئذ ويأخذها من ذراعها.

يقول آخر: «نعم، هذا صحيح، من الأفضل لكَ أن تتشبث بالآنسة صاحبة العينين البراقتين، وإلا سيخطفها أحدهم منك».

قال صوت آخر: «نعم، وقد يكون أنا».

كان ريتشارد يقول وهما يتجهان صوب الشارع: «أوه، لا، لن يأخذ أحد حبيبتي الصغيرة مني».

(*) إحدى أغنيات الجاز الشهيرة في عشرينيات القرن العشرين، تحكي عن امرأة بهذا الاسم.

«حبيبتي الصغيرة» كان هذا ما يدللها به. وأحيانًا كان يدعوها ذات الفم الكبير، أو الوجه المضحك، أو عين الضفدع. بالطبع لم تكن لتحتمل تلك الأسماء من شخص آخر غيره، ما لم تجد نفسها تتعايش معها في فرح واستسلام (ورعب كامن)، وما كانت لتترك نفسها تبدو علنًا تابعة لواحد من الرجال – «خليلة»، كما كانت خالتها ستصفها، وفي الليل، وحيدة، كانت تمضغ الكلمة، لاذعةً كقشر الليمون، على لسانها.

كانت تهبط إلى البحر مع ريتشارد. وكان عليها أن تتسلق صاعدة وحدها، ولكنها لم تكن تعرف هذا وقتذاك. كانا يتركان الشبان في بهو الفندق، ويتجهان صوب الشوارع الواقعة في وسط نيويورك.

«ماذا سنفعل اليوم، يا حبيبتي الصغيرة؟» كان يقول لها بابتسامته المعهودة، وعينيه العميقتين، تحت ناطحات المدينة البيضاء، والناس ذوو البشرة البيضاء يتدافعون من حولهما.

«لا أعرف يا حبيبي. ماذا تريد أن تفعل؟»

«حسنًا، ممكن أن نذهب إلى أحد المتاحف».

عندما اقترح ذلك لأول مرة، سألته، في هلع، إن كانوا سيسمحون لهما بالدخول.

أجابها ريتشارد: «أكيد، يسمحون للزنوج بالدخول. أليس لنا الحق في أن نتعلم أيضًا - لكي نتعايش مع أولاد القحبة؟»

لم يكن يراعي ألفاظه وهو يتكلم معها، وهو ما اعتبرته في البداية دليلاً على احتقاره لها لأنها سقطت بمنتهى السهولة، ولكنها فيما بعد تعاملت مع الأمر على أنه من دلالات الحب.

عندما كان يصطحبها إلى متحف التاريخ الطبيعي، أو متحف المتروبوليتان للفنون، حيث يعرفان يقينًا أنهما الأسودان الوحيدان في المكان، كان يقودها عبر القاعات، التي كانت تبدو في مخيلتها دائمًا باردة كشواهد القبور، كانت ترى آنذاك جانبًا آخر من الحياة فيه. وكان يخيفها هذا الولع الشديد الذي يوليه لأحد المعروضات التي لا تفهمها.

لم تفهم مطلقًا - ولو بأية درجة من درجات الفهم العقلي - ما كان يحاول أن يقوله لها بكل ذلك الحماس المتوقد في عصر أيام السبت تلك. لم يكن بوسعها أن تجد أية صلة بينها وبين التمثال الأفريقي، أو عمود الطوطم الذي كان يحدق فيه بدهشة حزينة. كانت سعيدة لأنها لم تكن تفكر على هذا النحو. كانت تفضل مشاهدة اللوحات في المتحف الآخر؛ ولكنها لم تكن تفهم أي شيء مما يقوله بشأن الآثار الأفريقية. لم تعرف سبب تعلقه الشديد بأشياء ماتت منذ زمن طويل؛ أي

دعمٍ كانت تقدمه له، أي أسرار يأمل أن ينتزعها منها. ولكنها فهمت، على الأقل، أنها تمده بنوع من القوت المر، والأسرار التي تنطوي عليها كانت مسألة حياة وموت بالنسبة له. كان ذلك يخيفها لأنها كانت تشعر أنه يسعى وراء المستحيل، وأنه سيتحطم على صخرة الواقع من جراء ذلك؛ ولكنها لم تقل له شيئًا مما يدور بخلدها. كانت تنصت له فقط، وفي قلبها كانت تصلي من أجله.

في أيام السبت الأخرى كانا يذهبان إلى السينما؛ أو لمشاهدة مسرحية، أو لزيارة بعض الأصدقاء؛ أو التنزه في حديقة «سنترال بارك». كانت تحب الحديقة لأنها كانت تجسد لها شيئًا من المناظر الطبيعية التي كانت تعرفها، ولو بصورة زائفة. كم من العصاري تنزها هناك! منذ ذلك الحين صارت تتجنب الحديقة. كانا يشتريان الفول السوداني ويطعمان الحيوانات في حديقة الحيوان؛ ويشتريان المياه الغازية ليشرباها وهما جالسان على الحشائش؛ ويتمشيان على طول البحيرة الصناعية وريتشارد يشرح لها كيف تجد مدينة كنيويورك مياهًا للشرب. كان خوفها عليه يمتزج بإعجابها الشديد به: لأنه تعلم الكثير برغم صغر سنه. كان المارة يحملقون بهما ولكنها لم تكن تكترث؛ كان يلاحظ ذلك، ويتظاهر بأنه لا يراه. كان يسألها أحيانًا، في منتصف جملة قد تكون متعلقة بروما القديمة:

«جميلتي الصغيرة – هل تحبينني؟»

وتتعجب كيف يمكن أن يتشكك في ذلك. كانت تفكر في عجزها عن أن تفهمه كم تحبه؛ فكانت ترفع عينيها إلى عينيه، وتقول له الشيء الوحيد الذي كانت تستطيع قوله:

«ليميتني الرب إن لم أكن أحبك. ولتسقط السماء من فوقنا إن لم أكن أحبك».

حينذاك كان يتطلع إلى السماء في سخرية، ويأخذها من ذراعها بضغطة قوية، ويواصلان السير.

ذات مرة سألته:

«ريتشارد، هل كنت تذهب إلى المدرسة كثيرًا عندما كنت صغيرًا؟»

كان ينظر إليها لبرهة طويلة ثم يقول:

«حبيبتي، لقد أخبرتك من قبل، لقد ماتت أمي وهي تلدني. ولم يُعثَر على أبي في أي مكان. لم يكن هناك من يعتني بي. كنت أنتقل من مكان إلى آخر. عندما يملُّ مني بعض الأقارب يرسلونني لغيرهم. لم أذهب إلى المدرسة مطلقًا».

«كيف أصبحت نابهًا هكذا؟ وعلى معرفة كبيرة؟»

كان يبتسم مسرورًا ويقول: «حبيبتي الصغيرة، أنا لا أعرف الكثير». ثم يقول، وقد اعترى وجهه وصوته تغيرٌ كانت قد ألفته: «كل ما في الأمر أنني قررت ذات يوم أن أعرف كل ما يعرفه أولاد الزنا البيض، بل وأن أعرفه أفضل منهم، حتى لا يحتقرني أي ابن لبؤة أبيض في أي مكان، ولا يشعرني كأنني قذارة، عندما أستطيع أن أقرأ له الأبجدية من آخرها إلى أولها وبالورب. اللعنة – لن أدعه يضربني على مؤخرتي حينها. وإن حاول قتلي، أقسم بأمي سوف يلقى حتفه معي.«ثم ينظر إليها مرة أخرى، ويبتسم ويقبلها قائلاً: «هكذا تعلمت الكثير يا حبيبتي».

كانت تسأله: «وماذا ستفعل يا ريتشارد؟ ماذا تريد أن تكون؟»

وكان وجهه يكفهر: «لا أعرف. علي أن أكتشف هذا. يبدو أنني لا أستطيع أن أقرر الآن».

لم تعرف لِمَ لا يستطيع أن يقرر – أو ربما كانت تعرف على نحو مبهم – ولكنها كانت تعرف أنه يقول الحقيقة.

لقد ارتكبت خطأها الأكبر مع ريتشارد عندما لم تخبره أنها حامل. كانت تفكر الآن، أنها لو أخبرته فربما كان كل شيء تغير، ولبقي على قيد الحياة. ولكن الظروف التي أحاطت باكتشافها للحمل جعلتها تقرر أن تلزم الصمت فترة لأجله.

لم تجرؤ وقد استبد بها الخوف أن تضيف عبئًا إلى الذعر الذي اجتاحه في الصيف الأخير من حياته.

ربما كان خطؤها، في نهاية المطاف، هو أنها لم تطلب من قوة احتماله ما كان بالإمكان أن يطيقه بمعجزة؛ ما كان يمكن أن يزيده صلابة – ولكن أنى لها أن تعرف في الواقع؟ وهذا ما كانت تصلي الليلة طلبًا لغفرانه. إذ ربما فقدت حبها لأنها في النهاية لم تؤمن به إيمانًا كافيًا.

كانت تسكن على مسافة بعيدة من ريتشارد – على بعد أربع محطات بقطار الأنفاق؛ وعندما كان يحين موعد عودتها للمنزل كان يركب القطار معها باتجاه شمال المدينة ويوصلها حتى الباب. في أحد أيام السبت، لم ينتبها للوقت ومكثا معًا حتى وقت متأخر عن المعتاد، فغادرها عند باب منزلها في الساعة الثانية صباحًا. تبادلا تحية المساء على عجل، فقد كانت خائفة من حدوث مشكلة عندما تصعد – رغم أن مدام ويليامز، في الحقيقة، لم تكن تأبه بمواعيد إليزابيث – وكان هو يريد أن يعود سريعًا إلى سكنه ليخلد إلى الفراش. عندما انطلق في الشارع المظلم الذي تتصاعد منه همهمات، أخذتها رغبة مفاجئة في أن تنادي عليه، لكي تطلب منه أن يأخذها معه وألا يتركها تذهب مرة أخرى. شرعت تصعد الدرج مسرعة، وهي تبتسم قليلاً لهذه الرغبة التي انتابتها: إذ بدا لها صغيرًا جدًا وضعيفًا وهو يغادرها، ومع ذلك كان رشيقًا وقويًا.

كان من المنتظر أن يأتي مساء اليوم التالي على العشاء، لكي يتعرف أخيرًا على مدام ويليامز، بإلحاح من إليزابيث. ولكنه لم يأتِ. أثارت إليزابيث جنون مدام ويليامز بحساسيتها المفاجئة لوقع الأقدام على درج السلم. وكانت قد أخبرت مدام ويليامز أن رجلاً محترمًا سوف يزورها، فلم تجرؤ،في هذه الظروف، أن تغادر المنزل بحثًا عنه، حتى لا يبدو الأمر وكأنها تجلب الرجال من الشارع للمنزل. جاءت الساعة العاشرة، ولم تكن قد تناولت عشاءها، وهذه تفصيلة صغيرة لم تلاحظها صاحبة الضيافة، فذهبت إلى فراشها، رأسها يؤلمها وقلبها عليل من الخوف مما قد يكون قد أصاب ريتشارد، الذي لم يتركها تنتظر من قبل أبدًا؛ ومن الخوف مما بدأ يحدث في جسدها.

في صباح يوم الاثنين لم يأتِ إلى العمل. فانصرفت في ساعة الغذاء لتتفقده في حجرته. لم يكن هناك. قالت صاحبة المنزل أنه لم يظهر طوال عطلة نهاية الأسبوع. وبينما كانت إليزابيث تقف مرتجفة ومترددة في البهو، دخل اثنان من رجال الشرطة البيض.

عرفت في اللحظة التي رأتهما فيها، بل وقبل أن ينطقا باسمه، أن شيئًا فظيعًا قد أصابه. وكما حدث في ذلك اليوم الصيفي المشرق عندما كلمها لأول مرة، دق قلبها دقة مريعة

ثم توقف في صمتٍ ثقيل جريح. مدت إحدى يديها لكي تلمس الحائط وتحافظ على توازنها واقفةً.

«هذه الآنسة كانت لتوها تبحث عنه»، سمعت صاحبة المنزل تقول.

نظر كلاهما إليها.

«هل أنتِ فتاته؟» سألها أحد الشرطيين.

تطلعت إلى وجهه الناضح بالعرق، الذي ارتسمت عليه في الحال نظرة شهوانية، وتماسكت في محاولة منها أن تسيطر على ارتجافها.

أجابته: «نعم، أين هو؟»

قال الشرطي الآخر: «في السجن يا عزيزتي».

«لماذا؟»

«لأنه سرق متجر رجل أبيض، أيتها السوداء. هذا هو السبب».

انتابتها نوبة صخرية باردة من الغضب، فشكرت الرب عليها. وإلا كانت من المؤكد ستقع، أو تشرع في البكاء. ثم نظرت إلى الشرطي المبتسم وقالت: «ريتشارد لم يسرق أي متجر، أخبرني أين هو».

أجابها دون أن يبتسم: «قلت لكِ أن رفيقك سرق متجـرًا ودخل السجن لذلك. وسوف يظل هناك، أيضًا – والآن ما قولك في هذا؟»

قال الشرطي الآخر: «ومن الأرجح أنه فعل ذلك من أجلك، أيضًا. فأنت تبدين فتاة تستحق أن يسرق الرجل متجرًا من أجلها».

لم تقل شيئًا؛ كانت تفكر كيف ستراه، وكيف ستخرجه من السجن.

التفت الشرطي المبتسم إلى صاحبة المنزل وقال: «أعطينا مفتاح حجرته. منذ متى يسكن هنا؟»

«حوالي سنة»، قالت صاحبة المنزل وهي تنظر إلى إليزابيث في أسىً. «كان يبدو فتى طيبًا للغاية».

«آه، أجل»، قال وهو يرتقي درجات السلم، «كلهم يبدون طيبين عندما يدفعون الإيجار».

سألت إليزابيث الشرطي المتبقي: «هل ستأخذني لأراه؟» ثم ألفت نفسها مفتونة بالمسدس الموضوع في جرابه، والهراوة المعلقة على خاصرته. كانت ترغب في انتزاع المسدس وتفريغه في وجهه المدور الأحمر؛ وأن تأخذ الهراوة وتهوى بها بكل قوتها

على مؤخرة رأسه عند نهاية قبعته، حتى يتلبد شعر الشرطي الأبيض الحريري القبيح بالدماء وفتات المخ.

أجابها: «أجل يا فتاة، سوف تأتين معنا. فالرجل في مركز الشرطة يريد أن يسألك بعض الأسئلة».

هبط الشرطي المبتسم وقال: «لا يوجد شيء فوق. دعنا نذهب».

سارت بينهما، وخرجوا في الشمس. أدركت أنها لن تستفيد شيئًا بمواصلة الحديث معهما. كانت تحت سلطتهما تمامًا؛ وكان عليها أن تفكر أسرع منهما؛ وأن تحتوي خوفها وكراهيتها، وأن تكتشف ما ينبغي عمله. ما كانت لتبكي أمامهما أو تطلب منهما معروفًا إلا من أجل حياة ريتشارد لا أقل، بل من الجائز أنها لم تكن لتفعل حتى من أجل ذلك.

كان حشد صغير من الأطفال والمارة الفضوليين يتبعهم وهم يسيرون على طول الشارع المترب المغمور بضوء الشمس. كان كل ما تأمل فيه ألا يراها أحدٌ ممن تعرفهم؛ أبقت رأسها مرفوعًا عاليًا، وظلت تنظر أمامها في خط مستقيم، كانت تشعر أن الجلد يستقر على عظامها كأنها ترتدي قناعًا.

في مركز الشرطة استطاعت أن تتجاوز بصورة ما ضحكاتهم المتوحشة. (ماذا كان يفعل معك، يا بنت، حتى

الساعة الثانية صباحًا؟ - المرة القادمة عندما يجتاحك نفس الشعور تعالِ إلى هنا وكلميني) شعرت أنها على وشك أن تنفجر، أو تتقيأ، أو تموت. كان العرق يقف في قسوة على جبهتها كالإبر، وشعرت أنها محاطة، من كل ناحية، بالقاذورات والنتن، ورغم ذلك اكتشفت، أثناء لهو رجال الشرطة، ما كانت تريد أن تعرفه: كان ريتشارد محبوسًا في سجن يسمي «المقابر» (انتفض قلبها للاسم)، وكان بإمكانها أن تراه في الغد. كانت الولاية، أو السجن أو شخص ما قد عين له محاميًا؛ وسوف يمثل للمحاكمة في الأسبوع المقبل.

ولكن عندما رأته في اليوم التالي، بكت. فقد تعرض للضرب، كما همس لها، ولم يكن يقوى على المشي. لم يكن بجسده، كما اكتشفت لاحقًا، أية كدمات، ولكنه كان مصابًا بتورمات غريبة مؤلمة، وكان ثمة جرح فوق إحدى عينيه.

لم يسرق المتجر، بالطبع، ولكنه عندما غادرها ليلة السبت تلك، نزل إلى محطة قطار الأنفاق لانتظار قطاره. كان الوقت متأخرًا، وكانت القطارات قليلة؛ كان وحده على الرصيف، نصف مستيقظ، يفكر فيها، كما قال.

حينذاك، سمع صوت أقدام تعدو من طرف الرصيف البعيد؛ وعندما تطلع رأي شابين أسودين ينزلان الدرج عدوًا. كانا مذعورين وملابسهما ممزقة؛ بلغا الرصيف ووقفا بالقرب

منه يلهثان. كان على وشك أن يسألهما ما المشكلة عندما رأى شابًا أسود آخر يعدو عبر القضبان نحوهم ورجلاً أبيض في أعقابه؛ في نفس اللحظة اندفع رجل أبيض آخر هابطًا درجات قطار الأنفاق.

حينذاك، استيقظ ريتشارد تمامًا وهو في حالة من الهلع؛ أدرك أنه أيًا كانت المشكلة، فقد أصبح متورطًا فيها أيضًا؛ لأن هؤلاء الرجال البيض لن يميزوا بينه وبين الشبان الثلاثة الذين كانوا يتعقبونهم: فكلهم سود، وفي نفس السن تقريبًا، وها هم معًا يقفون على رصيف المحطة. ودون أن توجه إليهم أية أسئلة، سيقوا معًا ليصعدوا الدرج إلى سيارة الشرطة ثم إلى المركز.

في مركز الشرطة أدلى ريتشارد باسمه ومحل إقامته وسنه ومهنته. آنذاك قال لأول مرة إنه ليس متورطًا معهم، وطلب من أحد الشبان الآخرين أن يؤكد شهادته؛ وهو ما فعله الشباب في يأس. فكرت إليزابيث أنه ربما كان حريًا بهم أن يدلوا بشهادتهم قبل ذلك، ولكنهم ربما شعروا أنه لا جدوى من الكلام، فلن يصدقهم أحد؛ كان صاحب المتجر قد تم استدعائه للتعرف عليهم. حاول ريتشارد أن يسترخي: فالرجل لا يمكن أن يدعي أنه كان معهم إذا كان لم يره من قبل.

ولكن عندما جاء صاحب المتجر، وكان رجلاً قصيرًا يرتدي قميصًا ملطخًا بالدماء - لأنهم طعنوه بسكين - وبصحبته شرطي آخر، نظر للشباب الأربعة وقال: «أجل، إنهم هم، صحيح».

صرخ ريتشارد: «ولكني لم أكن معهم! انظر إلي، اللعنة - لم أكن هناك!»

قال الرجل، وهو ينظر إليه: «أنتم السود أولاد الزنا، كلكم نفس الشكل».

حينها ساد الصمتُ مركزَ الشرطة، كانت عيون البيض كلهم ترقب. قال ريتشارد بصوت خفيض، وهو يشعر أنه ضاع: «ومع ذلك أيها السيد لم أكن هناك». نظر إلى قميص الرجل الأبيض الملطخ بالدماء وقال في قرارة قلبه، كما أخبر إليزابيث، «يا ليتهم قتلوك وحق الرب».

ثم بدأ الاستجواب. وقّع الشباب الثلاثة على اعترافاتهم في الحال، ولكن ريتشارد رفض. قال إنه يفضل الموت قبل أن يوقع اعترافًا على جريمة لم يقترفها. قال أحد رجال الشرطة وهو يصفعه على رأسه: «حسنًا، إذن من الأفضل أن تموت، يا أسود يا ابن اللبؤة». وشرعوا في ضربه. لم يشأ أن يحدث إليزابيث عما تعرض له من الضرب؛ فأمام الخوف والكراهية

اللذين استحوذا على ذهنها، شعرت أن خيالها يتلعثم ويلزم الصمت.

سألته أخيرًا: «ماذا سنفعل؟»

ابتسم ابتسامة كريهة – لم تر مثلها على وجهه من قبل. «ربما يجب أن تصلي ليسوعك هذا لينزل ويخبر هؤلاء البيض شيئًا». نظر إليها لدقيقة طالت وامتدت كأنها تحتضر. »لأنني لا أعرف شيئًا آخر يمكن عمله».

اقترحت عليه: «ريتشارد، ما رأيك بمحامٍ آخر؟»

ابتسم مرة أخرى وقال: «أظن أن حبيبتي الصغيرة كانت تخفي عني أن لديها ثروة كبيرة تصرها في فردة جورب، ولم تخبرني عنها قط».

كانت تحاول أن تدخر بعض النقود طوال عام، ولكنها لم تحرز غير ثلاثين دولارًا فقط. جلست أمامه، تراجع في ذهنها كل الأمور التي يمكن أن تقوم بها من أجل الحصول على النقود، حتى لو اضطرت إلى أن تخرج للشوارع. حينئذ استبد بها شعور حاد بالضعف، وراحت ترتجف وهي تنشج بالبكاء. إزاء ذلك عاد وجه ريتشارد إلى طبيعته. قال لها بصوت مرتعش: «حبيبتي الصغيرة، انظري إلي، لا تبكِ هكذا. سوف نحاول أن نجد الحل المناسب». ولكنها لم تكف عن النشيج.

همس لها: «إليزابيث، إليزابيث، إليزابيث». في تلك اللحظة، جاء الحارس وقال إن وقت انصرافها قد حان فنهضت. كانت قد أحضرت له علبتي سجائر، لكنهما لا زالا في حقيبة يدها. كانت تجهل لوائح السجن جهلاً تامًا، فلم تجرؤ أن تعطيهما له تحت بصر الحارس. أمعنت في البكاء لأنها نسيت أن تعطيه السجائر، وهي تعلم كم يدخن كثيرًا. وبينما كان الحارس يقودها ببطء للباب حاولت أن تبتسم له، ولكنها عجزت عن ذلك. كادت الشمس أن تغشي بصرها، وسمعته يهمس من خلفها: «إلى اللقاء يا حبيبتي. كوني بخير».

عندما بلغت الشارع لم تدرِ ماذا تفعل. وقفت فترة أمام البوابات الرهيبة، وظلت تمشي وتمشي حتى وصلت إلى مقهى يرتاده سائقو السيارات الأجرة والعاملين في المكاتب القريبة طوال اليوم. كانت عادة تخشى ارتياد الأماكن الواقعة في وسط البلد، حيث لا يوجد إلا البيض فقط، ولكنها لم تأبه اليوم. شعرت أنه إذا قال لها أي شخص شيئًا اليوم فسوف تستدير وتشتمه بأقذع الشتائم، كأحّط امرأة في الشارع. وإذا لمسها أحدهم، فسوف تبذل قصارى جهدها لترسل روحه للجحيم.

ولكن لم يمسها أحد؛ ولم يكلمها أحد. احتست قهوتها، وهي تجلس في الشمس القائظة التي كانت تغمرها عبر

النافذة. حينذاك خطر لها كم هي وحيدة وخائفة؛ وما اعتراها مثل هذا الخوف من قبل طوال حياتها. كانت تعرف أنها حامل - تشعر بذلك، كما يقول العجائز، في عظامها؛ ماذا ستفعل بحق السماء لو أرسلوا ريتشارد بعيدًا؟ سنتين، ثلاث سنوات - لم يكن لديها أية فكرة كم سنة سيسجن - ماذا ستفعل؟ وكيف ستحول دون وصول النبأ إلى خالتها؟ وإذا اكتشفت خالتها، فسيعرف أبوها هو الآخر. فاض الدمع في مقلتيها، وراحت تشرب قهوتها الباردة التي لا مذاق لها. وماذا سيفعلون بريتشارد؟ وإذا أرسلوه للسجن، فكيف سيبدو عندما يعود؟ تطلعت للشوارع الهادئة المشمسة في الخارج، ولأول مرة في حياتها، كرهت كل شيء - المدينة البيضاء، والعالم الأبيض. في ذلك اليوم، لم تستطع أن تفكر في شخص واحد أبيض محترم في هذا العالم. جلست في مكانها وهي تتمنى أن يطحنهم الرب ذات يوم بصنوف من العذاب لا مثيل لها حتى يذلهم أشد مذلة، ليعلموا أن السود من الأولاد والبنات، الذين يعاملونهم بتكبر، وازدراء، وسخرية، لهم قلوب مثل سائر البشر، بل قلوب أكثر إنسانية من قلوبهم.

لكن ريتشارد لم يرسل للسجن. لم يكن ثمة دليل قاطع لاتهامه أمام شهادة اللصوص الثلاثة، وشهادتها، وتردد صاحب المتجر بعد حلف القسم. بدا أن المحكمة شعرت،

بقدر من الرضا عن النفس وقدر من الإحباط، إنه من حسن طالع ريتشارد أن يفرج عنه بهذه السهولة. توجها في الحال إلى غرفته. وهناك، ألقى بنفسه على وجهه فوق السرير وراح يبكي – وهو ما لن تنساه طوال حياتها.

لم تر من قبل رجلاً يبكي سوى أبيها – ولم يكن بكاؤه على هذا النحو. ربتت عليه ولكنه لم يكف عن البكاء. تساقطت دموعها على شعره المتسخ الأشعث. حاولت أن تضمه ولكنه ظل مستعصيًا فترة طويلة. كان جسده كالحديد؛ لم تحس فيه بأية ليونة. جلست عند حافة السرير منكمشة على نفسها كطفل خائف، يدها على ظهره، في انتظار مرور العاصفة. قررت حينها ألا تخبره بشأن الطفل.

بعد فترة نادى اسمها. ثم استدار فضمته إلى صدرها، وهو يتنهد ويرتعش. وأخيرًا راح في النوم، متعلقًا بها كأنه سينزل في الماء للمرة الأخيرة.

وكانت آخر مرة. تلك الليلة قطع معصميه بشفرة موسى ووجدته صاحبة المنزل في الصباح ميتًا بين الشراشف القرمزية، وعيناه تحدقان إلى أعلى بلا نور.

كانوا يتغنون الآن:

«شخص ما بحاجة إليك، يا إلهي

فلتقترب».

من خلفها سمعت صوت جبريل فوق رأسها. كان قد وقف يتشفع للآخرين بالصلاة. تساءلت إن كان چون لا يزال ساجدًا، أم نهض، بنفاد صبر طفولي، وراح يحملق مِن حوله في الكنيسة. إذ كان به تصلب من الصعب كسره، ولكن من المؤكد أنه سينكسر ذات يوم. كما حدث لها ولريتشارد – لا مهرب لأحد. كان الرب، الإله الحي، في كل مكان، رهيبًا، عاليًا جدًا، قالت الأغنية، لا تستطيع أن تستعلي عليه؛ ومنخفضًا جدًا لا تستطيع أن تأتي تحته؛ وشاسعًا جدًا لا تستطيع أن تحيط به؛ بل عليك أن تقف بالباب.

واليوم عرفتْ هي ذلك الباب: بوابة حية غاضبة. عرفتْ النار التي يتحتم على الروح أن تزحف عبرها، والدموع التي سيذرفها المرء وهو يعبر. دأب الناس على الحديث عن كيف يتصدّع القلب، ولكنهم لم يذكروا كيف تقف الروح خرساء في السكون، والخواء، والرعب بين الموت والحياة؛ كيف تتمزق كل الأردية وتُنْضي وتعبر الروح عارية من فوهة الجحيم. وما أن تصل هناك، لا عود لها؛ ما أن تصل هناك، تشرع الروح في التذكر، مع أن القلب ينسى أحيانًا. لأن العالم نادى على القلب الذي تردد في الإجابة؛ الحياة، والحب، واللهو، والأمل الكاذب نادوا على قلب الإنسان كثير النسيان. وحدها الروح، مشغولةً بالرحلة التي قطعتها، والتي سوف

تقطعها، تتابع غايتها الخفية الرهيبة؛ وتحمل القلب معها مثقلاً بالبكاء والمرارة.

لذا كان ثمة حرب في السماء، وبكاء أمام العرش: القلب مغلول إلى الروح، والروح سجينة الجسد – وعمّ الأرض بكاء، وفوضى، وثقل لا يحتمل. وحدها محبة الرب تستطيع أن تحل النظام بهذه الفوضى؛ له وحده يجب أن تلجأ الروح من أجل خلاصها.

ولكن يا له من تحول! كيف تعجز عن أن تصلي لكي يرحم الرب ابنها، ويقيه عذاب أبيه وأمه الناجم عن الخطيئة. ولكي يعرف قلبه قليلاً من البهجة قبل أن تحل المرارة الطويلة.

رغم ذلك كانت تعرف أن بكاءها وصلواتها لا جدوى منها. فما سيحدث يقينًا سيحدث؛ ولا شيء يملك له منعًا. لقد حاولتْ، ذات مرة، حماية شخص فما كان إلا أن أودتْ به إلى السجن. مرة أخرى الليلة فكرت، كما فكرت مرارًا قبل ذلك، في أنه ربما كان من الأفضل لو فعلت ما كانت قد قررته في قلبها منذ البداية – وهو أن تتنازل عن ابنها لغرباء، ربما كانوا سيحبونه أكثر مما فعل جبريل. صدقته عندما قال لها إن الرب أرسله لها كعلامة. كما قال لها إنه سيحبها ويعتني بها حتى الموت، وإنه سيحب ابنها من الزنا كأنه من لحمه ودمه. لم يحافظ إلا على نص وعده: كان يطعمه ويكسوه ويعلمه

الكتاب المقدس – ولكن روح الوعد لم تتحقق. أحبها واعتنى بها – إن كان قد فعل – فقط لأنها أم ابنه، روي. كل هذا تنبأت به طوال السنوات الأليمة. من المؤكد أنه لم يعرف أنها كانت تعرف، وتساءلت إن كان هو نفسه يعرف.

كانت قد قابلته عن طريق فلورنس. فقد تقابلت هي وفلورنس في العمل في منتصف الصيف بعد انتحار ريتشارد بعام. كان چون يبلغ من العمر حينئذ ما يربو على الستة أشهر.

كانت وحيدة جدًا ذلك الصيف، ومهزومة. تسكن وحدها مع چون في غرفة مفروشة أكثر كآبة من الغرفة التي كانت لها في شقة مدام ويليامز. كانت قد غادرت شقة مدام ويليامز، بالطبع، بعد موت ريتشارد مباشرة، بحجة أنها وجدت وظيفة توفر لها السكن في الريف. ذلك الصيف كانت إليزابيث شديدة الامتنان للامبالاة مدام ويليامز؛ إذ بدا أن المرأة لم تبصر أن إليزابيث صارت عجوزًا بين عشية وضحاها وكادت تجن من الخوف والحزن. كتبت لخالتها رسالة شديدة الإيجاز والجفاف والبرود، فلم ترغب في أن تثير أية مخاوف قد تكون نائمة في صدرها، أخبرتها فيها نفس ما قالته لمدام ويليامز، ورجتها ألا تقلق، لأنها في يد الرب. وكانت يقينًا في حفظ الرب؛ فالمرارة التي لم يكن بالإمكان أن تنزلها بها إلا يد الرب، لم تنقذها منها إلا يد الرب ذاتها.

كانت فلورنس وإليزابيث تشتغلان كعاملتي نظافة بإحدى البنايات الإدارية الضخمة المبنية بالأحجار في شارع وول ستريت. تصلان في المساء وتقضيان الليل تذرعان القاعات الخالية والمكاتب الصامتة بالممسحات والدلاء والمكانس. كان عملاً فظيعًا، كرهته إليزابيث؛ ولكنها قبلته بترحاب لأنه بالليل، فكان يتيح لها أن تعتني بجون بنفسها طوال النهار، دون أن تضطر لدفع مزيد من المال لتودعه إحدى دور الحضانة. بالطبع كان يساورها القلق عليه طوال الليل، ولكنه على الأقل يكون نائمًا. كان كل ما ترجوه في صلاتها ألا يحترق المنزل، أو يسقط من فراشه، أو يتمكن، على نحو خفي، من إشعال موقد الغاز، كما طلبت من جارتها، التي كانت سكيرة تعسة، أن تعتني به. كانت إليزابيث لا ترى من الناس سوى هذه المرأة، التي اعتادت أن تقضي معها ساعة أو بعض ساعة في وقت العصر، فضلاً عن صاحبة المنزل. كفت عن رؤية أصدقاء ريتشارد لأنها لم ترغب، لسبب ما، أن يعرفوا بأمر ابن ريتشارد؛ كما أنه سرعان ما اتضح لكلا الطرفين في لحظة وفاة ريتشارد أنه لا يجمعهما سوي القليل. ولم تسعَ هي للتعرف على أناس جدد؛ بل كانت تتهرب منهم. فلم تكن تحتمل، بعد تغير أحوالها وسقوطها، أن تقع تحت أنظار الآخرين. فإليزابيث التي كانتها دُفنتْ بعيدًا – مع أبيها

المفقود الصامت، ومع خالتها، في قبر ريتشارد – وإليزابيث التي صارت إليها لم تتعرف عليها، بل لم ترغب في معرفتها.

ذات ليلة، بعد انتهاء العمل، دعتها فلورنس لاحتساء فنجان من القهوة معًا في المقهى الليلي القريب. كانت إليزابيث قد دُعيت من قبل بالطبع من قبل آخرين – الحارس الليلي على سبيل المثال – ولكنها كانت دائمًا ترفض. كانت تتعلل بطفلها الرضيع، الذي يجب عليها أن تسرع للمنزل لترضعه. كانت تتظاهر في تلك الأيام بأنها أرملة شابة، وتلبس خاتم زواج. بعد فترة قصيرة قلّ عدد من يدعونها للخروج، واكتسبت سمعة بأنها متعجرفة.

لم تكن فلورنس قد تحدثت إليها إلا فيما ندر قبل أن تحرز إليزابيث نفور الآخرين الذي كان رحمة بالنسبة لها؛ كانت فلورنس قد لفتت انتباه إليزابيث، إذ كانت تتحرك في شراسة صامتة وَسمَتْ كبرياءها وكادت تكون مثيرة للضحك. كانت هي الأخرى محط نفور الآخرين، فلم تكن تتواصل مع النساء الأخريات اللاتي كانت تعمل معهن. من ناحية كانت أكبر سنًا بكثير، وبدا أنه ليس لديها ما تضحك عليه أو تتبادل النميمة عنه. تأتي إلى العمل، ثم تنتهي من عملها، وتغادر. لا يستطيع المرء أن يخمن أفكارها وهي تذرع القاعات في تجهم، رأسها معصوب بخرقة، ودلو وممسحة في يديها. ظنت

إليزابيث أنها ولابد كانت شديدة الثراء، ثم فقدت ثروتها؛ فشعرت بنوع من القرابة معها، كما تشعر امرأة ساقطة بأخرى.

فنجان القهوة معًا، عند مطلع الفجر، أصبح بمرور الوقت عادتها. كانا يجلسان معًا في المقهى، الذي يكون دائمًا خاليًا عند وصولهما ويزدحم بعد خمس عشرة دقيقة من مغادرتهما، يتناولان قهوتيهما وكعكتيهما ثم يستقلان قطار الأنفاق إلى شمال المدينة. كانا حديثهما أثناء تناول القهوة، وفي القطار، يدور دومًا حول فلورنس، وكيف يسيء الناس معاملتها، وكيف تشعر بالخواء في حياتها بعد موت زوجها، الذي كان يهيم بها حبًا، كما ذكرت لإليزابيث، ويرضي كل نزواتها، ولكنه كان يميل إلى عدم تحمل المسئولية. لم تقل له مرة واحدة، بل مائة مرة: «فرانك، من الأفضل أن تستخرج تأمينًا على الحياة». ولكنه كان يظن، شأن كل الرجال، أنه سيعيش للأبد. وها هي الآن، تكبر في السن، وتضطر لكسب عيشها بين حثالة السود في هذه المدينة الشريرة. كانت إليزابيث تنصت، وهي مندهشة قليلاً لحاجة هذه المرأة المعتزة بذاتها للاعتراف، في تعاطف شديد رغم ذلك. وكانت تشعر بامتنان كبير لاهتمام فلورنس. فقد كانت فلورنس أكبر منها في السن بكثير وبدت لها شديدة الحنو.

كان عمر فلورنس وحنوها لا شك هما ما دفعا إليزابيث لأن تثق بها دون تفكير. نظرت إلى الماضي، واكتشفت أنه من الصعب أن تصدق أنها كانت بمثل هذا اليأس والعناد الطفولي؛ ومع ذلك، استطاعت بعد تأمل هذا الماضي ثانيةً أن ترى ما كانت تشعر به وقتذاك بشكل غير متماسك: كم كانت بحاجة لكائن إنساني آخر، في مكان ما، ليعرف حقيقتها.

عبرت فلورنس كثيرًا عن رغبتها في أن ترى چون الصغير؛ كانت واثقة، كما قالت، أن طفل إليزابيث لابد أن يكون طفلاً رائعًا. في يوم أحد قرب نهاية ذلك الصيف، ألبسته إليزابيث أفضل ملابسه وأخذته إلى منزل فلورنس. في ذلك اليوم كانت تشعر باكتئاب على نحو غريب ومخيف؛ لم يكن چون في مزاج طيب. ألفت نفسها تحملق فيه بشكل غامض، وكأنها تحاول أن تقرأ مستقبله في وجهه. سوف يكبر يومًا ما، ويتكلم، ويطرح عليها أسئلةً. أي أسئلة سيطرح عليها، أية إجابات ستعطي؟ من المؤكد أنها لن تستطيع أن تكذب عليه إلى الأبد فيما يتعلق بأبيه، لأنه سيكبر ويدرك أن الاسم الذي يحمله ليس اسم أبيه. كان ريتشارد طفلاً بلا أب، تذكرت ذلك بمرارة واستسلام وهي تحمل چون عبر شوارع يوم الأحد الصيفية المزدحمة. عندما يمّل مني بعض الأقارب يرسلونني لغيرهم. أجل، لغيرهم، عبر الفقر والجوع والتشرد والقسوة والخوف والرجفة وحتى الموت. فكرت في الشبان

الذين انتهى بهم المآل إلى السجن. هل مازالوا هناك؟ هل سيصبح چون واحدًا من هؤلاء الشبان يومًا ما؟ هؤلاء الشبان الذين يقفون الآن أمام واجهات الصيدليات وصالات البلياردو، وعند كل زاوية شارع، يصفرون من خلفها، تضج أجسادهم النحيلة، كما يبدو، بالكسل والحقد والإحباط. كيف تأمل، في وحدتها وجوعها، أن تحول بينه وهذا الهلاك الضاري المحدق؟ في تلك اللحظة، وكأنه يؤكد كل خيالاتها القاتمة، بدأ يئن ويعول ويبكي، وهي تصل لسلم قطار الأنفاق.

ظل چون على هذه الحال طوال الطريق حتى شمال المدينة، استحال على إليزابيث أن ترضيه في ذلك اليوم، رغم محاولاتها، كان يتململ وهي تنوء بحمله، ومع الحر، والناس التي كانت تحملق مبتسمة، والخوف الغريب الجاثم عليها، كانت على وشك البكاء عند وصولها باب فلورنس.

في تلك اللحظة، أصبح أكثر الأطفال ابتهاجًا، فشعرت بارتياح مغيظ. كانت فلورنس ترتدي دبوس زينة ثقيلاً، عتيق الطراز من العقيق، وهو ما لفت عين چون ما أن فتحت الباب. راح يحاول الوصول للدبوس، ويناغي فلورنس ويتفل عليها وكأنه كان يعرفها طوال عمره القصير.

قالت فلورنس: «حسنًا! عندما يبلغ من العمر ما يسمح له بمطاردة النساء حقًا سوف تمتلئ يديك، يا بنت». قالت

إليزابيث في تجهم: «هذه هي حقيقة الرب. إنه يشغلني جدًا لدرجة أنني لا أعرف رأسي من قدمي معظم الوقت».

في تلك الأثناء كانت فلورنس تحاول أن تشغل انتباه جون بعيدًا عن الدبوس بتقديم برتقالة له: ولكنه رأى برتقالاً من قبل؛ نظر نحو البرتقالة للحظة واحدة فقط ثم تركها تسقط على الأرض. ثم بدأ مرة أخرى، بطريقته المزعجة المبللة بالرذاذ، في الشجار من أجل الدبوس. قالت إليزابيث، أخيرًا، وقد هدأت قليلاً وهي تشاهده: «إنه يحبك».

قالت فلورنس: «لابد أنك متعبة. ضعيه هناك». ثم سحبت كرسيًا وثيرًا كبيرًا بالقرب من المائدة حتى يتسنى لجون مشاهدتها وهما يأكلان.

قالت فلورنس وهي تضع الطعام على المائدة: «لقد تلقيت رسالة من أخي منذ يومين. لقد توفيت زوجته، كانت روحًا مسكينة مريضة، وهو يفكر في المجيء للشمال».

قالت إليزابيث، في اهتمام سريع به شيء من التكلف: «لم تخبريني من قبل أن لكِ أخًا! وأنه سيأتي إلى هنا؟»

«هكذا يقول. لا أظن أن هناك ما يستبقيه في الجنوب بعد أن ماتت ديبورا». جلست قبالة إليزابيث وقالت وهي مستغرقة في أفكارها: «لم أره منذ عشرين عامًا».

قالت إليزابيث مبتسمة: «إذن سيكون يومًا عظيمًا عندما تلتقيان مرة أخرى».

هزت فلورنس رأسها، وأومأت لإليزابيث أن تبدأ في تناول الطعام. قالت: «لا، لم نكن على وفاق أبدًا، ولا أظن أنه تغير».

قالت إليزابيث: «عشرون عامًا فترة طويلة جدًا، لابد وأنه تغير بعض الشيء».

قالت فلورنس: هذا الرجل يلزمه أن يتغير تغيرًا كبيرًا قبل أن نتوافق». صمتت لبرهة في تجهم وحزن – «بل أشعر بالأسف الشديد لقدومه. لم أكن أتطلع لرؤيته في هذا العالم – أو حتى في العالم الآخر».

شعرت إليزابيث أن هذه ليست الطريقة المناسبة التي يجب أن تتحدث بها أخت عن أخيها، وخاصة لشخص لا يعرفه على الإطلاق، ومن المرجح جدًا أن يقابله في نهاية المطاف. سألت في استسلام:

«ماذا يعمل – أخوكِ؟»

قالت فلورنس: «يعمل واعظًا. ولكنني لم أسمعه أبدًا. عندما كنت في الجنوب لم يكن يفعل شيئًا سوى مطاردة النساء، والنوم في مصارف المياه من شدة السكر».

ضحكت إليزابيث قائلة: «آمل أن يكون قد غير من سلوكه على الأقل».

قالت فلورنس: «باستطاعة البشر أن يغيروا سلوكهم بقدر ما يريدون. ولكني لا أكترث كم من المرات يمكن أن يغيروا سلوكهم، فطبيعة المرء لا تتغير، ولا مفر من أن تفصح عن نفسها».

قالت إليزابيث متفكرة: «أجل، ولكن ألا تعتقدين»، ترددت في طرح السؤال: «أن الرب بإمكانه أن يُغَيِّر من قلب المرء؟»

أجابت فلورنس: «لقد سمعت ذلك كثيرًا، ولكن يجب أن أراه بنفسي. هؤلاء الزنوج الذين يركضون في كل مكان ويحكون كيف غير الرب قلوبهم – لم يحدث لهم شيء. فقلوبهم السوداء القديمة كما هي لم تتغير. أظن أن تلك القلوب هي كل ما أعطاهم الرب – فالرب، يا حبيبتي، لا يقدم حصصًا إضافية، اسأليني أنا».

قالت إليزابيث في تثاقل بعد صمت طويل: «أجل». ثم استدارت لترى چون، الذي كان يخرب بشراسة المفارش ذات الشُرابات التي تزين كرسي فلورنس الوثير. «أظن أن هذه هي الحقيقة. فالمرء لا تتاح له إلا فرصة واحدة. وإذا ضيعها، يظل في مكانه بلا تغيير».

قالت فلورنس: «تبدين في غاية الحزن فجأة. ماذا ألم بك؟»

«لا شيء»، قالت وهي تستدير نحو المائدة. ثم في يأس، وهي تفكر في أنها لا ينبغي أن تقول الكثير: «كنت فقط أفكر في هذا الصبي هنا، ماذا سيحدث له، كيف سأربيه، في هذه المدينة اللعينة بمفردي».

سألتها فلورنس: «ولكنك لا تنوين أن تبقي وحيدة دون زوج بقية حياتك، أليس كذلك؟ فمازلت شابة، بل شابة جميلة. لو كنت مكانك ما تعجلت في البحث عن زوج جديد. أظن أنه لم يولد الزنجي الذي يعرف كيف يعامل المرأة معاملة حسنة. أمامك متسع من الوقت، يا حبيبتي، خذي وقتك».

أجابت إليزابيث في هدوء: «ليس لدي الكثير من الوقت». لم تستطع أن توقف نفسها عن الكلام؛ شيء ما أنذرها أن تلزم الصمت، ورغم ذلك تدافعت الكلمات من فمها: «هل ترين خاتم الزواج هذا؟ لقد اشتريته بنفسي. فهذا الطفل لا أب له».

ها هي قد اعترفت بسرها: والكلمات لا يمكن استعادتها. شعرت، وهي تجلس مرتجفة إلى مائدة فلورنس، بارتياح متألم غير مبالٍ.

راحت فلورنس تحملق فيها في شفقة شديدة تكاد تشبه الغضب. نظرت إلى چون، ثم التفتت إلى إليزابيث.

قالت فلورنس وهي تسترخي في كرسيها، ووجهها مازال يعلوه هذا الغضب المهموم: «أيتها المسكينة. لابد أنك مررت بأوقات عصيبة، أليس كذلك؟»

كانت إليزابيث ترتجف وهي مازالت مدفوعة للكلام: «لقد عشت الخوف».

قالت فلورنس: «نظرتي لا تخيب أبدًا. يبدو أنه لم تولد امرأة لم يحطمها رجل تافه. ويبدو أنه ليس هناك امرأة على وجه الأرض لم يجرها رجل للوحل، ويتركها هناك، أيضًا، ويرحل وراء شؤونه الخاصة».

جلست إليزابيث إلى المائدة، تائهة، ليس لديها المزيد لتقوله.

سألتها فلورنس أخيرًا: «ماذا فعل، فرَّ وتركك؟»

صاحت إليزابيث، بسرعة، وفاضت الدموع في عينيها: «لا، لا، لم يكن من هذا النوع! لقد مات، كما أقول لك – وقع في مشكلة ومات – قبل مولد هذا الصبي بفترة طويلة». طفقت تبكي بنفس الاستسلام الذي كانت تتكلم به. وقفت

فلورنس واقتربت من إليزابيث، محتضنة رأسها على صدرها. قالت إليزابيث: «لم يكن ليتركني أبدًا، ولكنه مات».

راحت تبكي، بعد تماسكها الطويل، وكأنها لن تكف عن البكاء أبدًا.

قالت فلورنس في رقة: «كفى الآن، كفى. سوف تخيفين الصبي الصغير. فهو لا يحب أن يرى أمه تبكي». ثم همست لجون، الذي كف عن محاولاته في التخريب، وراح يحملق الآن في المرآتين: «كل شيء على ما يرام، كل شيء على ما يرام».

اعتدلت إليزابيث في جلستها ومدت يدها لحقيبتها بحثًا عن منديل، وراحت تكفكف دموعها.

قالت فلورنس، وهي تسير نحو النافذة: «أجل، الرجال يموتون، لا بأس. ولكننا نحن النساء من نتشرد، وكما يقول الإنجيل، نتفجع. الرجال يموتون، وينتهي الأمر بالنسبة لهم، ولكننا، نحن النساء، علينا أن نواصل الحياة ونحاول نسيان ما فعلوه بنا. أجل يا إلهي – » صمتت؛ ثم استدارت وعادت إلى إليزابيث وهي تكرر: «أجل، يا إلهي، إنني أعرف».

قالت إليزابيث: «أنا في غاية الأسف لتكديري عشاءك اللطيف على هذا النحو».

قالت فلورنس: «لا أريد أن أسمع كلمة عن أسفك يا بنت، وإلا أوصلتك للباب. ارفعي هذا الصبي واجلسي على الكرسي الوثير واهدئي. سوف أذهب للمطبخ لأعد لنا شيئًا باردًا نشربه. حاولي ألا تقلقي، يا حبيبتي. فالرب لن يدعك تسقطين إلى الحضيض».

بعد ذلك، بحوالي أسبوعين أو ثلاثة، قابلت إليزابيث جبريل في منزل فلورنس في يوم من أيام الأحد.

لم يمهد شيء مما قالته فلورنس عن جبريل لمقابلتها معه. فقد توقعت رجلاً أكبر سنًا من فلورنس، دبّ الصلع، أو الشيب برأسه. ولكنه بدا أصغر كثيرًا من أخته، لم يسقط شيء من أسنانه أو شعره. في يوم الأحد ذاك، بدا لعينها المضطربة وهو يجلس في ردهة فلورنس الصغيرة كصخرة في أرضها المتعبة.

تذكرت أنها بينما كانت تصعد السلم وهي تحمل چون بوزنه الثقيل على ذراعيها، وتدلف من الباب، تناهى إلى سمعها صوت موسيقى، تخافت بشكل ملحوظ عندما أغلقت فلورنس الباب خلفها. سمع چون أيضًا صوت الموسيقى، واستجاب لها بأن أخذ يتلوى، ويحرك يديه في الهواء، محدثًا ضجة، وكأنه يريد أن يغني، كما تصورت. قالت لنفسها في شيء من السرور والجَزَع: «إنه حقًا زنجي». – لأن الصوت

كان ينبعث من جرامافون أحد السكان في طابق سفلي، ويملأ الأثير بنواح موسيقى البلوز الصارخة، ذات الإيقاع البطيء المنتظم.

هبّ جبريل، كما بدا لها، بسرعة وحماس ينمان عما هو أكثر من التأدب. فتساءلت في سريرتها إن كانت فلورنس قد حدثته عنها. وصار جسدها متخشبًا بفعل الغضب العابر الذي انتابها إزاء فلورنس، وشعورها بالكبرياء والخوف. ومع ذلك عندما نظرت في عينيه رأت تواضعًا غريبًا، وحنوًا لم تتوقعه على الإطلاق. شعرت بغضبها يهدأ، وكبريائها الدفاعي يتلاشى، ولكن ظل خوفها قابعًا في مكان ما.

قدمت فلورنس كل واحد منهما لصاحبه، قائلة: «إليزابيث، أقدم إليك أخي الذي أخبرتك كثيرًا عنه. يعمل واعظًا، يا حبيبتي – لذا علينا أن نحترس لما نقوله عندما يكون معنا».

فقال، بابتسامة أقل وخزًا وغموضًا من ملاحظة أخته: «ليس هناك ما يدعو للخوف مني، يا أختي. ما أنا سوى وعاء بسيط ضعيف في يد الرب».

«أرأيتِ!» قالت فلورنس، في تجهم. ثم أخذت چون من بين ذراعي أمه وقالت: «وهذا چوني الصغير، صافح الواعظ، يا چوني».

ولكن چون كان يحملق في الباب الذي غابت الموسيقى خلفه؛ وكانت يداه مازالتا ممدودتين باتجاهه، في إصرار غاضب وواهن في آنٍ. كان ينظر في تساؤل، ولوم إلى أمه، التي راحت تنظر إليه ضاحكة ثم قالت: «چوني يريد أن يستمع لمزيد من هذه الموسيقى. وكأنه بدأ الرقص عليها عندما كنا نصعد السلم».

ضحك جبريل، وقال، وهو يلف حول فلورنس لكي ينظر في وجه چون: «ثمة رجل في الكتاب المقدس، يا ولدي، كان يحب الموسيقى أيضًا. كان يعزف على قيثارته أمام الملك، ثم تأتى له أن يرقص ذات يوم في حضرة الرب. هل تعتقد أنك سوف ترقص في حضرة الرب في يوم من الأيام؟»

نظر چون في وجه الواعظ برزانة طفل، وكأنه يقلب هذا السؤال في ذهنه وسوف يجيب حالما يصل لقرار. ابتسم جبريل له ابتسامة غريبة – رأتها إليزابيث ابتسامة حب على نحو غريب – ثم مسَّد رأسه.

قال جبريل: «إنه ولد رائع، وبعينيه الواسعتين هاتين سوف يرى كل شيء في الكتاب المقدس».

ضحكوا جميعهم. وذهبت فلورنس لتضع چون في الكرسي الوثير الذي كان بمثابة عرش الأحد بالنسبة له. وجدت إليزابيث نفسها تراقب جبريل، غير قادرة أن ترى في

الرجل الذي أمامها شيئًا من الأخ الذي كانت فلورنس تحتقره بشدة.

جلسوا إلى المائدة، ووضعت چون بينها وبين فلورنس في مواجهة جبريل.

قالت إليزابيث في مرح متوتر، وهي تشعر بأنه من الضروري أن تقول شيئًا: «إذن، لقد وصلت إلى هذه المدينة الكبيرة حديثًا؟ لابد وأنها تبدو شديدة الغرابة لك».

كانت عيناه لا تزالان على چون، الذي لم يرفع عينيه عنه. ثم نظر مرة أخرى إلى إليزابيث. شعرت أن الجو بينهما قد صار مشحونًا، ولم تستطع أن تجد اسمًا، أو سببًا، للإثارة الخفية التي بدأت تدب فيها.

أجابها قائلاً: «إنها مدينة كبيرة حقًا، وتبدو لناظري – وكذلك وقعها في أذني – وكأن الشيطان يعمل بها كل يوم».

كان كلامه ينطوي على إشارة إلى الموسيقى، التي لم تتوقف، ولكن سرعان ما شعرت إليزابيث أن الكلام يشملها أيضًا؛ هذا، فضلاً عن شيء آخر في عيني جبريل، جعلها تخفض نظرها بسرعة إلى صحن طعامها.

انبرت فلورنس قائلة: «إنه لا يعمل هنا بجدٍ أكبر مما يعمل به في موطننا بالجنوب. هؤلاء الزنوج في الجنوب»،

كانت توجه كلامها لإليزابيث، «يظنون أن نيويورك ما هي إلا يوم أحد طويل ينقضي في السكر. إنهم لا يعرفون. حبذا لو أن أحدًا يعرِّفهم أن باستطاعتهم أن يحصلوا حيث يعيشون على خمرٍ أفضل مما قد يجدونه هنا – بل وأرخص أيضًا».

قال جبريل بابتسامة: «آمل ألا تكوني قد أدمنتِ تعاطي الخمر، يا أختاه».

ردت عليه على الفور قائلة: «لم أكن أنا أبدًا من أدمن هذه العادة».

واصل كلامه في عناد، وهو مازال يبتسم وينظر لإليزابيث: «لا أعرف، ولكن علمي أن الناس يأتون أفعالاً في الشمال لا يجرؤون على فعلها في موطننا بالجنوب».

قالت فلورنس: «لكلٍ وساخته. فالناس تمارس وساخاتها أينما كانوا. ويأتون أفعالاً في الجنوب لا يريدون أن يعرف أحد شيئًا عنها».

قالت إليزابيث، وهي تبتسم في حياء: «كما كانت خالتي تقول، على الناس ألا يفعلوا في الظلام ما يخشون من رؤيته في النور».

قالت ذلك على سبيل النكتة؛ ولكن لم تكد الكلمات تخرج من فمها حتى تمنت لو تستطع استرجاعها. رنت الكلمات في أذنيها كأنها اعتراف.

علق بعد برهة قصيرة: «تلك هي حقيقة الرب، أو تؤمنين حقًا بذلك؟»

أرغمت نفسها على أن تتطلع إليه، وشعرت في تلك اللحظة بحدة انتباه فلورنس المسلط عليها، وكأنها على وشك أن تطلق تحذيرًا. أدركت أن شيئًا ما في صوت جبريل هو ما جعل فلورنس تتنبه وتتوفز بهذا الشكل الحاد. ولكنها لم تنزل عينيها عن جبريل. أجابته: «أجل. وهذه هي الطريقة التي أود أن أعيش بها».

قال لها: «لذلك سيباركك الرب، ويفتح نوافذ الجنة لك – لكِ ولهذا الصبي. سوف يغدق عليك من بركاته حتى تحاري أين تضعينها. ولتتذكري كلماتي».

قالت فلورنس في لطف: «أجل، لتتذكري كلماته».

ولكن لم ينظر كلاهما إليها. جالت تلك الآية بخاطر إليزابيث، بل بالأحرى استحوذت على عقلها: كل الأشياء تَعمَلُ معًا للخير للذينَ يُحِبونَ الله. حاولت أن تمحو تلك العبارة الخارقة، وما تولد عنها من شعور. أشعرتها العبارة بالأمل، لأول مرة منذ موت ريتشارد؛ أشعرها صوته بأنها لم تُنبَذ كليةً، وأن الله قد يرفعها مرة أخرى إلى الشرف؛ أدركت من عينيه أنها قد تصبح امرأة مرة أخرى – بشرف هذه المرة.

آنذاك، ابتسم لها من مسافة بدت بعيدة وملبدة بالغيوم، فبادلته الابتسام.

في تلك اللحظة، تعثر الجرامافون البعيد، فجأة، على نغمة بوق (ترومبيت) طاحنة، نائحة، ساخرة؛ فضخم هذا الصراخ القبيح الأعمى حجم اللحظة واحتشدت به الغرفة. ألقت إليزابيث نظرة على چون. وخبطتْ يد من مكان ما ذراع الجرامافون فدفعت الإبرة الفضية في طريقها عبر الثنايا السوداء المدومة، كأنها شيء يتأرجح، بلا مرساة، في لُجة البحر.

قالت إليزابيث: «لقد راح چون في النوم».

شعرت، هي التي هبطت بكل هذا الفرح والألم، أنها بدأت تصعد مرة أخرى – بدأت ترتقي، مع طفلها، ذلك الجبل الشاهق.

شعرت بجلبة عظيمة في الهواء من حولها – استثارة عارمة، صامتة، في انتظار الرب. وبدا الهواء وكأنه يهتز لقدوم عاصفة. وكأن نورًا يغمر المكان، من فوقهم وحولهم، ويوشك أن ينجلي عن رؤيا. في البكاء العظيم، والغناء العظيم من حولها، في الريح التي هبت لتملأ الكنيسة، لم تسمع صوت زوجها جبريل؛ وفكرت في چون وهو يجلس الآن، صامتًا ناعسًا، بعيدًا في آخر الكنيسة – ينظر وفي عينيه تلك الدهشة

وذاك الرعب. لم ترفع رأسها. ودت لو لبثت قليلاً في الصلاة، فربما حدثها الرب.

أمام ذات المذبح خرت راكعة، منذ سنوات كثيرة، طلبًا للمغفرة. عندما حل الخريف، وصار الهواء جافًا قارصًا، والريح عاتية، كانت قد دأبت على الخروج مع جبريل؛ وهو ما لم ترضَ فلورنس عنه، وعبرت عن استيائها منه مرات كثيرة. ولكنها لم تفصح أبدًا بالمزيد، وكان السبب، كما تراءى لإليزابيث، أنه ليس لديها ما يعيب بشأنه لكي تقصه - كل ما في الأمر إنها لا تحب أخاها. ولكن حتى لو تأتى لفلورنس أن تجد اللغة المناسبة التي توصل بها نبوءاتها، ما كانت إليزابيث لتأبه لها لأن جبريل كان قد صار سندها. كان يعتني بها وبابنها وكأنهما صارا مهمته في الحياة؛ كان طيبًا للغاية مع چون، يلاعبه ويشتري له أشياءً، وكأنه ابنه. عرفت إليزابيث أن زوجته ماتت دون أن تنجب، وأنه كان يرغب دوما أن يكون له ولد - ولا يزال يصلي، كما أخبرها، عسى الرب يباركه بابن. كان يدور بذهنها أحيانًا، وهي ترقد في فراشها وحيدة، متفكرة في حنانه الغامر، أن چون قد يكون ذاك الابن، وأنه سوف يكبر ذات يوم لكي يسعدهما ويباركهما كليهما. حينئذ راحت تفكر كيف ستحتضن الإيمان الذي هجرته مرة أخرى، وتمشي في النور الذي فرت بعيدًا عنه هي وريتشارد. في بعض الأحيان، وهي تفكر في جبريل، كانت تتذكر ريتشارد - صوته، أنفاسه، ذراعيه - في ألم فظيع؛ وتشعر بنفسها آنذاك

وهي تجفل من لمسة جبريل المتوقعة. ولكنها لم تواجه هذا الإجفال. كانت تقول لنفسها إنه من الحماقة والخطيئة أن تنظر خلفها عندما يكون الأمان أمامها، كملاذ نحت في سند الجبل.

سألها جبريل ذات ليلة: «أختاه، ألا تفكرين بأن تعطي قلبك للرب؟»

كانا يسيران في الشوارع المعتمة في طريقهما إلى الكنيسة. وكان قد سألها هذا السؤال من قبل، ولكن ليس بمثل هذه النبرة؛ ولم تشعر من قبل بهذه الحاجة الملحة لأن تجيبه.

قالت: «بلى، أفكر».

قال، وهو يبتسم لها: «إذا دعوت الرب، فسوف يرفعك، ويمنحك أمنية قلبك. وأنا على ذلك شهيد، ادع الرب، واخدمي الرب، وسوف يستجيب. فالرب لا يخلف الوعد أبدًا».

كان ذراعها في ذراعه، وشعرت به يرتجف بعواطفه.

قالت، بصوت خفيض مرتعش: «حتى مجيئك، لم أكن أذهب إلى الكنيسة مطلقًا، أيها المبجل. كان الأمر يبدو وكأنني لا أستطيع أن أرى طريقي - كُنت مجللة بالعار....والخطيئة».

خرجت الكلمات الأخيرة من فمها بالكاد، وفاضت الدموع في عينيها وهي تتكلم. أخبرته أن چون ابن سِفاح؛

وحاولت أن تحكي له طرْفًا من عذاباتها أيضًا. في تلك الأيام بدا أنه يتفهم، ولم يصدر عليها أحكامًا. متى اعتراه هذا التغير الكبير؟ أم إنه لم يتغير، بل تفتحت عيناها من جراء الألم الذي سببه لها.

قال: «لا عليك، لقد أتيت، وكانت يد الرب هي التي أرسلتني. لقد جمعنا معًا كعلامة من علاماته. فلتركعي وسوف ترين أن هذا هو الحق - اركعي واطلبي منه أن يتحدث إليك الليلة».

تفكرت، أجل، علامة، علامة على رحمته، علامة على غفرانه.

عندما وصلا إلى أبواب الكنيسة توقف، ونظر إليها ووعدها وعدًا.

قال: «أخت إليزابيث، عندما تركعين الليلة، أريد منك أن تسألي الرب أن يتكلم إلى قلبك، ويعلمك كيف تجيبين على ما سوف أطرحه عليكِ».

كانت تقف على درج السلم تحته بقليل، وإحدى قدميها مرفوعة على البسطة الحجرية التي تؤدي إلى مدخل الكنيسة، فتطلعت إلى وجهه. وفيما هي تحدق في وجهه، الذي كان يتوهج - في الضوء الأصفر الخافت المعلق فوقهما - كأنه وجه رجل صارع الملائكة والشياطين ونظر في وجه الرب، خطر لها فجأة، على نحو غريب، أنها صارت امرأة.

قال: «أخت إليزابيث، لقد تحدث الرب إلى قلبي، وأعتقد أنها إرادته أن نصير أنت وأنا زوجين».

صمت جبريل؛ ولم تقل هي شيئًا. كانت عيناه تجوسان جسدها.

قال بصوت خفيض، محاولاً الابتسام: «إني أكبرك سنًا بكثير. ولكن هذا لا يعني كثيرًا. فمازلت رجلاً قويًا. لقد قطعت طريقًا طويلاً، يا أخت إليزابيث، وربما أستطيع أن أحفظك من ارتكاب... بعض أخطائي، تبارك الرب... وربما أستطيع أن أساعدك على ألا تزل قدمك...مرة أخرى...يا فتاة...ما بقينا في هذا العالم».

لبثت تنتظر.

قال: «وسوف أحبك وأشرفك... حتى اليوم الذي يدعوني الرب فيه إليه».

فاض الدمع بطيئًا في عينيها؛ من الفرحة، بما انتهت إليه؛ ومن الألم، للطريق الذي قطعته إلى هنا.

وأردف أخيرًا: «وسوف أحب ابنك، صبيك الصغير، كأنه ابني تمامًا. فلن يقلق بشأن أي شيء؛ ولن يتعرض لبرد أو لجوع ما دمت حيًا ولدي يدان أعمل بهما. أقسم على ذلك أمام الرب، لأنه منحني شيئًا ظننت أنني فقدته».

أجل، تفكرت، علامة – علامة أن الرب قادر على الخلاص. لحظتذاك تحركت ووقفت بجانبه على درجة السلم القصيرة أمام الأبواب.

سألها: «أخت إليزابيث، هل ستصلين؟» – سوف تحمل معها إلى القبر ذكرى رقته وتواضعه في تلك اللحظة.

أجابته: «نعم، لقد كنت أصلي. وسوف أصلي».

دخلا معًا هذه الكنيسة، هذه الأبواب ذاتها؛ وعندما دعا الراعي المصلين للمذبح، نهضت، بينما كانت تسمعهم يمجدون الرب، وسارت عبر ممشى الكنيسة الطويل؛ عبر الممشى، نحو المذبح، أمام الصليب المذهب؛ نحو هذه الدموع، إلى هذه المعركة – هل ستنتهي المعركة يومًا ما؟ عندما نهضت، وسارا معًا مرة أخرى عبر الشوارع، ناداها بابنة الرب، ورفيقة خادم الرب. قبّلها على جبهتها، ودموعه تنسكب، وقال إن الرب جمعهما معًا ليكونا خلاصًا لبعضهما. بكت، في غمرة فرحتها أن يد الرب قد غيرت حياتها، ورفعتها ووضعتها على الصخرة الحصينة، وحدها.

تذكرت ذاك اليوم البعيد عندما جاء چون إلى العالم – تلك اللحظة، التي كانت بدء حياتها وموتها. لقد هبطت في ذلك اليوم، وحدها، وثقل لا يحتمل في بطنها، وسرٌ في أحشائها، هبطت إلى الظلمة، تبكي وتنتحب وتلعن الرب.

كم طال نزيفها، وعرقها وبكاؤها، لا لغة على الأرض تصف ذلك – كم طال زحفها عبر الظلمة، هذا ما لن تعرفه أبدًا، أبدًا. هناك، كانت بدايتها، حيث كانت تكافح عبر الظلمة؛ نحو هذه اللحظة التي تحقق فيها سلامها مع الرب، عندما تسمعه يتحدث لها، ويمسح عن عينيها كل الدموع؛ تمامًا كما سمعت چون يصرخ، في تلك الظلمة الأخرى، بعد أن مضى أبدٌ.

كانت تسمعه الآن يصرخ، في هذا الصمت المباغت: ليست صرخة الطفل الوليد، أمام نور الأرض المعتاد؛ بل صرخة الصبي اليافع، صرخة وحشية، أمام النور الذي يتنزل من السماء. فتحت عينيها واعتدلت واقفة؛ كان كل القديسين يحيطون بها؛ وقف جبريل محملقًا، متخشبًا كأنه عمود من أعمدة المعبد. على بيدر الدِراس، في وسط بكاء القديسين وغنائهم، كان چون يرقد مبهورًا تحت قدرة الرب.

الجزء الثالث

بَيْدَرُ الدِراس

فَقُلْتُ وَيْلٌ لِي إِنِّي هَلَكْتُ؛
لِأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ،
وَأَنَا سَاكِنٌ بَيْنَ شَعْبٍ نَجِسِ الشَّفَتَيْنِ؛
لِأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ رَأَتَا الْمَلِكَ رَبَّ الْجُنُودِ

ثم رَبَطتُ حِذائي،

وانطلَقْتُ.

عرف چون، دون أن يدري كيف حدث ذلك، أنه يرقد على أرضية الكنيسة، في الفسحة المتربة أمام المحراب، تلك الفسحة التي قام هو وإليشا بتنظيفها. عرف أن من فوقه يسطع المصباح الأصفر الذي أضاءه هو بنفسه. كان الغبار الرهيب المؤلم يملأ فتحتي أنفه، وكانت أقدام القديسين ترج الأرض من تحته مثيرة سحبًا صغيرة من الغبار الذي غشي فمه. سمع صرخاتهم، بعيدة جدًا، وعالية جدًا من فوقه – لم يكن بوسعه مطلقًا أن يعلو إلى هذا الارتفاع، فقد كان كصخرة، أو كجثمان رجل ميت، أو كطائر يحتضر بعد أن سقط من ارتفاع شاهق؛ كشيء ليس لديه أية قدرة ذاتية على الحركة.

دب شيء في جسد چون، ذلك الجسد الذي صار منفصلاً عنه. كان قد تم اجتياحه، ومحوه، واستلابه. أصابت تلك القوة چون، في رأسه أو في قلبه؛ وفي لحظة، غمرته كليةً بألم لم يكن ليتخيله في حياته أبدًا، ولم يكن يقينًا ليستطيع احتماله، بل حتى الآن لم يستطع أن يصدق كيف كشف ذلك الألم عما بداخله؛ كيف فلقه كما تفلق الفأس الخشب من المنتصف، وكما يتصدع الصخر؛ مزقه ذلك الألم ونهش كيانه في طرفة عين حتى أن چون لم يشعر بالجرح نفسه، وإنما بالألم فقط؛ لم يشعر بالسقوط، وإنما بالخوف فقط؛ وها هو ذا راقد، بلا حول ولا قوة، يصرخ في هوة الظلمة.

أراد أن ينهض – فقد اعتراه صوتٌ ساخرٌ خبيثٌ يحرضه على النهوض – وأن يترك ذلك المعبد في التوِّ واللحظة ويخرج إلى العالم.

أراد أن يطيع الصوت، الصوت الوحيد الذي كان يكلمه، حاول أن يؤكد للصوت أنه سيفعل ما بوسعه لكي ينهض؛ وأنه سوف يستلقى هناك للحظة واحدة فقط، بعد سقوطه المروع، ليلتقط أنفاسه. أدرك في تلك اللحظة تحديدًا أنه لن يتمكن من النهوض، ثمة شيء ما قد حدث لذراعيه وساقيه وقدميه – آه، خطبٌ ما أَلمّ بچون! بدأ يصرخ ثانية في سورة هلعه الملتاع، وشعر بنفسه يتحرك بالفعل – ليس لأعلى

باتجاه النور، وإنما لأسفل مرة أخرى. كان يشعر بغثيان في أحشائه وضيق في لباسه التحتي؛ شعر بنفسه يدور مرة تلو الأخرى عبر الأرض المتربة، كما لو كان أصبع قدم الرب قد لمسه لمسة خفيفة. جعله الغبار يسعل ويتقيأ، وفي دورانه تحول مركز الأرض أجمعها وصار الفضاء خواءً مطلقًا، وهُزءًا بالنظام وبالتوازن وبالزمن. لم يبقَ شيء: ابتلعت الفوضى كل شيء. أهذا كل شيء؟ – تساءلت روح چون الهلعة – ما هذا؟ – بلا مغزى، وبلا إجابة. وحده الصوت الساخر كان يلح عليه مرة أخرى أن ينهض من تلك الأرض القذرة إذا كان لا يرغب في أن يصبح كباقي الزنوج.

خفَّ الألمُ قليلاً، كما تنسحب المياه برهة لتعود وترتطم ثانية بالصخور: عرف أنه سيتوارى فقط ليعود. وأخذ يسعل وينشج في الفضاء المترب وهو راقد على وجهه أمام المحراب. كان لا يزال يهبط لأسفل، أبعد وأبعد عن الفرح والغناء والنور من فوقه.

في يأس شديد حاول أن يسترجع اللحظة التي سبقت سقوطه وتحوله، أن يقتنصها ويطبق عليها في راحة يده. فالظلمة الشديدة لا نقطة انطلاق لها، ولا بدء، أو منتهى. تلك اللحظة كانت أيضًا سجينة الظلمة، كانت خرساء بلا كلمات، وما كانت لتخرج. لم يتذكر سوى الصليب. فقد دار ثانية

ليركع أمام المحراب ليصبح في مواجهة الصليب المذهب. كان الروح القدس يتكلم، وبدا كما لو كان يردد، مع چون، الشعار الذي يزين الصليب، وقد تبدى فجأة في صورة عملاقة: يسوع هو المخلص. راح يحدق في الشعار، مرارة فظيعة تملأ قلبه، ورغبة في أن ينطلق مجدفًا - وكان الروح يتكلم، ويتكلم بداخله. أجل؛ كان إليشا هناك يتكلم من فوق أرض الكنيسة، وكان أبوه خلفه، صامتًا. شعر چون في قلبه بحنوٍ مفاجئ به شوق لإليشا؛ شعر برغبة، مرهفة قاطعة كنصلٍ ملتمع، في أن يسلب إليشا جسده، ويرقد حيث رقد إليشا؛ أن يتكلم بألسنة، كما تكلم إليشا، وبنفس السطوة، لكي يخزي أباه. ولكن هذه لم تكن اللحظة؛ كانت بعيدة كل البعد بقدر ما يتذكر، ولكن السر، الدوران، السقوط المروع، كل ذلك كان أكثر بُعدًا، في الظلمة. حتى في ذلك الوقت، وهو يلعن أباه، وهو يحب إليشا، كان يبكي؛ كان قد عبر لحظته الخاصة، كان قد خرّ تحت سطوة القوة صَعِقًا، وكان يسقط.

آه! يسقط - لماذا، إلى أين؟ إلى قاع البحر، إلى أحشاء الأرض، إلى قلب الأتون المتقد؟ إلى قبوٍ أعمق من الجحيم، إلى جنونٍ أعلى صوتًا من القبر؟ أي بُوقٍ سوف يوقظه، أي يدٍ سوف ترفعه. لأنه عرف، عندما صُعِق مرة أخرى، وصرخ مرة أخرى، أن جسده كان يتدلى منه كثقلٍ لا نفع منه، رِمّة ثقيلة متعفنة، وأنه إذا لم يُرفَع فلن ينهض أبدًا.

كانوا كلهم فوق رأسه، أبوه وأمه وعمته وإليشا، ينتظرون، ويشاهدون عذابه في الهاوية. كانوا معلقين على الحاجز المذهب، يتغنون من ورائه، النور حول رؤوسهم، يبكون، ربما من أجل چون، الذي صُعِق أرضًا قبل الأوان. لا، لا يملكون له عونًا بعد الآن – لا شيء يمكن أن يعينه بعد ذلك. راح يكافح ويكافح من أجل أن ينهض، ويقابلهم – كان يريد جناحين لكي يطير لأعلى ويلتقي بهم هذا الصباح، هذا الصباح حيث كانوا. ولكن لم تؤدِ جهوده إلا إلى دفعه إلى أسفل، لم تتصعد صرخاته إلى أعلى، ولكن راحت تدوي في جمجمته.

ومع أنه لم يكن يرى وجوههم إلا بالكاد، كان يعرف أنهم هناك. كان يشعر بهم يتحركون، كل حركة منهم تُحدث هزةً، ودهشةً، وهلعًا في قلب الظلمة حيث يرقد. لم يكن باستطاعته أن يعرف إن كانوا يتمنون من أعماق قلوبهم أن يصعد إليهم، كما كان هو يتمنى. ربما لم يساعدوه لأنهم لا يكترثون – لأنهم لا يحبونه.

حينئذ عاد أبوه إليه، إلى چون الذي تبدلت حاله وانتهى إلى الحضيض؛ وخُيل لچون، للحظة واحدة فقط، أن أباه جاء ليساعده. حينها، في الصمت الذي ران على الخواء، نظر چون إلى أبيه. كان وجه أبيه أسود – كليلٍ حزين، أبدّي؛ ومع ذلك

كانت تشتعل في وجه أبيه نارٌ – نارٌ أبدّية في ليل أبدّي. كان چون يرتعش في مرقده، لا يشعر بأي دفء ينبعث من هذه النار، يرتعش، ولا يستطيع أن يشيح بعينيه بعيدًا. هبت ريح عليه، قائلة: «كُلُّ مَنْ يُحِبُّ ويَصْنَعُ كَذِبًا». وعرف أنه طُرِد من الجماعة المقدسة، المبتهجة، المغسولة بالدم، وأن أباه قد طرده. كانت إرادة أبيه أقوى من إرادته. كانت قوته أعظم لأنه ينتمي للرب. لحظتها، لم يشعر چون بأية كراهية، لم يشعر بأي شيء سوى يأس مرير مكذب: صدقت كل النبوءات، انتهى الخلاص، واللعنة حقيقية!

ومن ثم فالموت حقيقي، قالت روح چون، وسوف يكون للموت لحظته.

قال أبوه: «أَوَصِ بَيتِكَ لأَنَّكَ تموتُ وَلا تَعِيشُ».

حينئذ تكلم الصوت الساخر مرة أخرى، فقال: «انهض يا چون. انهض، أيها الفتى. لا تدعه يبقيك هنا. فلديك كل ما لدى أبيك».

حاول چون أن يضحك – وظن أنه يضحك – ولكنه وجد فمه مليئًا بالملح، وأذنيه مفعمتين بماء حارق. ما كان يحدث في جسده البعيد الآن، لم يكن يملك أن يغيره أو يمنعه؛ جاش صدره، وارتفع ضحكه وأزبد على فمه، كالدم.

سلط أبوه ناظريه عليه، فشرع چون في الـصراخ. جردتـه عينا أبيه عاريًا، وكرهتا ما رأتا. وفيما هو يتلوى، ويـصرخ، في الغبار مرة أخرى، محاولاً أن يفر من عيني أبيه، هاتين العينين، وذاك الوجه، وكل وجوههم، والضوء الأصـفر البعيـد، كـان كل شيء يتلاشى أمام بصره وكأنه أصيب بالعمى. كان يهـبط مرة أخرى. صرخت روحه مرة أخرى، لا قاع للظلمة!

لم يكن يدري مكانه. الـصمت يـرين في كـل مكـان – لا شيء سوى رجفة مستمرة، بعيدة، خافتة – يتناهى صوتها إليه من بعيد تحته. ربما كان صوت هدير نيران الجحيم، التـي كـان معلقًا فوقها، أو صدى أقدام القديسين مازال مستمرًا لا يُقهر. تفكر في قمة الجبل، حيث يتـوق أن يكـون، حيـث سـتغمره الشمس كغلالة ذهبية، وتغطي رأسه كتاج من نار، ويحمـل في يده قضيبًا حيًا. ولكن لا جبل هنا، حيث يرقد چون، لا رداء، ولا تاج. والقضيب الحي مرفوع في يد الآخرين.

«سوف أوسعه ضربًا حتى يخلص مـن الخطيئـة، سـوف أخلصه منها ضربًا».

أجل، لقد ارتكب الخطيئة، وأبوه يبحث عنه. حينذاك، لم يُصدر چون أي صوت، ولم يتحرك على الإطلاق، على أمل ألا يجده أبوه.

«فلتدعه. دعه وشأنه. دعه يُصلي للرب».

«أجل، يا أماه، سوف أحاول أن أحب الرب».

«لقد فرّ في مكان ما. ولسوف أجده. وأضربه حتى تخرج الخطيئة منه».

أجل، لقد ارتكب الخطيئة: ذات صباح، وحده، في الحمّام القذر، في حجرة الخزين المربعة، التي حال لونها من القذارة وامتلأت بنتن أبيه. أحيانًا، وهو يتكئ على حوض الاستحمام الأشهب اللون، كان يدعك ظهر أبيه؛ وينظر، كما نظر ابن نوح الملعون، على عورة أبيه الكريهة. كانت عورته سرية، كالخطيئة، لزجة، كالحية، ثقيلة، كالقضيب. حينئذ كره أباه، واشتهى القوة التي تمكنه من أن يقطعه إربًا.

ألهذا السبب كان يرقد هنا الليلة، منبوذًا من كل عون إنساني أو سماوي؟ أتلك هي خطيئته المهلكة، أم خطيئته أنه نظر إلى عورة أبيه وهزئ به ولعنه في قلبه؟ آه، لقد حلت اللعنة بابن نوح هذا، واستمرت حتى الجيل الحالي الرازح تحت الأنين: عَبْدُ العَبِيدِ يكونُ لإخوَتِه.

حينئذ، انبعث الصوت الساخر، لا تروعه هاوية، ولا ظلمة، فيما يبدو، وسأل چون، مستهزئًا، إن كان يصدق أنه ملعون. لقد حلت اللعنة بكل الزنوج، ذكّره الصوت الساخر، كل الزنوج ينحدرون من صلب أكثر أبناء نوح عقوقًا. كيف

يمكن أن تحل اللعنة بجون لأنه رأى في حوض استحمام ما رآه رجل آخر – هذا إن كان هذا الرجل الآخر قد عاش أصلاً – منذ عشرة آلاف سنة، وهو يرقد في خيمة مفتوحة؟ هل تستمر اللعنة كل هذه العصور؟ هل تعيش في الزمن، أم في اللحظة؟ لم يحر چون جوابًا تجاه الصوت، لأنه كان في اللحظة، وخارج الزمن.

واقترب أبوه. «سوف أوسعه ضربًا حتى يخلص من الخطيئة . سوف أخلصه منها ضربًا». اهتزت الظلمة كلها وراحت تعول عندما اقتربت قدما أبيه؛ كان دويُّ خطوهما كصوت خطوات الرب في جنات عدن، وهو يبحث عن آدم وحواء تحت الغطاء. حينئذ وقف أبوه من فوقه، ينظر إليه. أدرك چون أن اللعنة تتجدد من لحظة للحظة، ومن أب لابن. الزمان لا يأبه، كما الثلج والصقيع؛ ولكن القلب، شريدًا ملتاثًا في البرية المهلكة، يحمل اللعنة إلى الأبد.

سمع أبوه يناديه: «چون، فلتأتِ معي».

حينذاك، رأى أنهما يسيران في شارع مستقيم، جادته ضيقة، شديدة الضيق. ظلا يسيران أيامًا عديدة. كان الشارع يمتد أمامهما، طويلاً، ساكنًا، منحدرًا، وأكثر بياضًا من الثلج. لم يكن ثمة أحد في الشارع، واستبد الخوف بجون. كانت المباني في هذا الشارع متقاربة للغاية حتى أن چون كان بإمكانه

أن يلمسها على الجانبين، وكانت ضيقة أيضًا، ترتفع كأنها رِماحٌ في السماء، مبنية من سبائك الذهب والفضة. أدرك جون أن تلك المباني ليست له - ليس اليوم - لا، ولا غدًا أيضًا! وبينما يصعدان هذا الشارع المستقيم الساكن، رأى امرأة، سوداء طاعنة في السن، تتجه صوبهما، تترنح على الأحجار المعوجة. كانت سكرانة، وقذرة، وطاعنة في السن، فمها أكبر من فم أمه، أو فمه؛ كان فمها مفتوحًا ومبللاً، لم ير امرأة في شدة سوادها من قبل. دهش أبوه لمرآها، واستشاط غضبًا؛ ولكن جون شعر بسعادة. صفق بيديه وصاح:

«انظر! إنها أقبح من أمي! إنها أقبح مني!»

قال أبوه: «إنك أكثر غرورًا من ابن الشيطان، أليس كذلك؟

لكن جون لم يصغ لأبيه. بل استدار ليرى المرأة وهي تعبر. جذبه أبوه من ذراعه.

«هل ترى ذلك؟ تلك هي الخطيئة. هذا ما يسعى ابن الشيطان وراءه».

سأله جون: «ابن من أنت؟»

صفعه أبوه. فضحك جون، وابتعد قليلاً عنه.

«لقد رأيت كل شيء. لقد رأيت كل شيء. لست ابن الشيطان من فراغ».

حاول أبوه أن يمسك به، ولكن چون كان أسرع. هبط الشارع المشرق، وهو ينظر إلى أبيه - الذي كان يتوجه نحوه، وإحدى يديه ممدودة في غضب.

«لقد كنت أسمعك - طوال الليل. أعرف ما تفعله في الظلام، أيها الأسود، عندما تظن أن ابن الشيطان نائم. كنت أسمعك وأنت تزبد وتخور وتتحشرج - ورأيتك، وأنت تصعد وتهبط، وتدخل وتخرج. لست ابن الشيطان من فراغ».

مالت المباني المنصتة، التي كانت لا تزال ترتفع، وتحجب السماء. وبدأت قدما چون تتعثران؛ وتمتلئ عيناه بالدموع والعرق؛ نظر حوله وهو يتراجع أمام أبيه بحثًا عن الخلاص؛ ولكن لم يكن ثمة خلاص له في هذا الشارع.

«أنا أكرهك. أكرهك. ولا آبه لتاجك الذهبي. ولا لردائك الطويل الأبيض. لقد رأيت ما تحت الرداء، لقد رأيتك!»

عندها كان أبوه قد لحق به؛ وما أن لمسه حتى كان غناءٌ ونارٌ. رقد چون على ظهره في الشارع الضيق، يتطلع إلى أبيه، إلى ذلك الوجه المشتعل تحت الأبراج المشتعلة.

«سوف أوسعه ضربًا حتى يخلص من الخطيئة. سوف أخلصه منها ضربًا».

رفع أبوه يده. وهوت السكين. تدحرج چون بعيدًا، هابطًا الشارع الأبيض المنحدر، وهو يصرخ:

«أبتاه! أبتاه!»

كانت تلك هي أولى الكلمات التي نطق بها. ران الصمت في لحظة، واختفى أبوه. مرة أخرى، شعر بالقديسين من فوقه – وبالغبار في فمه. كان ثمة غناء في مكان ما؛ بعيدًا، فوقه؛ وكان الغناء بطيئًا شجيًا. رقد چون صامتًا، معذبًا عذابًا يفوق الاحتمال، الملح يجف على وجهه، ولا أمل. كان يعرف أن العذاب سيعاوده مرة أخرى – فالظلمة ملأى بالشياطين التي تقبع متأهبة لكي تنهشه بأنيابها مرة أخرى.

عندئذ نظرت في القبر وتساءلت.

آه، فليسقط! – ما الذي كان يبحث عنه، وحيدًا تمامًا في الظلمة؟ ولكنه أدرك الآن، لأن السخرية كانت قد تركته، أنه يبحث عن شيء ما، مخفي في الظلمة، لا بد أن يجده. وسوف يموت ما لم يجده؛ أو لعله ميت أصلاً، ولن يلحق بالأحياء مرة أخرى، ما لم يجده.

وبدا القبر حزينًا موحشًا.

في القبر حيث كان يهيم على وجهه – كان يدرك أنه القبر، بارد وصامت، وراح يجوس في ضباب صقيعي – وجد أمه

وأباه، أمه مسربلة في القرمزي، وأبوه مسربل في الأبيض. لم يرياه: كانا ينظران خلفهما، فوق كتفيهما، على غيمة من شهود. كانت عمته فلورنس هناك، يتلألأ الذهب والفضة على أصابعها، ويتدلى من أذنيها قرطان نحاسيان؛ وكان ثمة امرأة أخرى، أدرك أنها زوجة أبيه المدعوة ديبورا – والتي كان لديها الكثير لتحكيه له، كما اعتقد ذات مرة. ولكنها، وحدها، من كل هذه الرفقة، نظرت إليه وأشارت أنه لا أحاديث في القبر. كان غريبًا هناك – لم يروه يعبر، لم يعرفوا عما كان يبحث، ولم يكن باستطاعتهم مساعدته في البحث. كان يريد أن يعثر على إليشا، الذي ربما يعرف من قد يساعده – ولكن إليشا لم يكن هناك. كان روي هناك: ربما كان بإمكان روي أن يساعده، ولكنه طُعن بمطواة، ويرقد الآن، بلونه الأسمر صامتًا، عند قدمي أبيه.

ثم بدأت مياه اليأس تغمر روح جون. المحبة قوية كالموت، عميقة كالقبر. ولكن المحبة، ربما كملك كريم، يكثر عدد سكان المملكة المجاورة له، مملكة الموت، ولكنه لم يهبط بنفسه: لذا فهم لا يدينون له بالولاء هنا. هنا لا كلام ولا لغة، ولا محبة؛ لا أحد ليقول: أنت جميل يا جون؛ لا أحد ليغفر له، أيًا كانت خطيئته؛ لا أحد ليشفيه، ويرفعه. لا أحد: الأب والأم ينظران للوراء، وروي ينزف، وإليشا ليس هنا.

ثم طفقت الظلمة تدمدم بصوت مخيف، وارتعشت أذنا جون. ميز جون في تلك الدمدمة، التي كانت كمثل ألف جناح يضرب الهواء، صوتًا كان يسمعه دائمًا. فبدأ يبكي ويئن، من شدة الخوف – ثم اختفى الصوت، ولكن الأصداء التي ملأت الظلمة ضخمت منه.

لاح لجون الآن أن هذا الصوت كان يملأ حياته، منذ اللحظة التي تنفس فيها لأول مرة. كان يسمعه في كل مكان، في الصلاة، وفي الأحاديث اليومية؛ وأينما تجمع القديسون، وفي الشوارع غير المؤمنة. كان يسمعه في غضب أبيه، وفي إصرار أمه الهادئ، وفي سخرية عمته اللاذعة؛ لقد دوى، على نحو شديد الغرابة، في صوت روي عصر هذا اليوم، وعندما عزف إليشا على البيانو، كان هناك أيضًا؛ في دقات ورنات دف الأخت ماكاندلس، وفي إيقاع شهادتها ذاتها، ومنح تلك الشهادة ثقة فريدة لا يرقى إليها الشك. أجل، كان يسمعه طوال حياته، ولكن الآن فقط تفتحت أذناه لهذا الصوت المنبعث من الظلمة، هذا الصوت الذي لا يمكن أن ينبعث إلا من الظلمة، ويحمل شهادة لا ريب فيها على مجد النور. الآن، وهو يئن، بمنأى عن كل عون، كان يسمعه في داخله – انبعث من نزفه، وقلبه المصدوع. كان صوت الغضب والبكاء الذي ملأ القبر، غضب وبكاء أزلي، ولكنه صار الآن رهين الأبدية؛ غضب لا لغة له، بكاء لا صوت له – لكنه كان يتحدث الآن،

إلى روح جون المشدوهة، عن حزن لا حدود له، عن صبر مرير، وليل طويل؛ عن مياه عميقة، وأغلال قوية، وسوط قاسٍ؛ و هوانٍ تعس، وسجن عتي، عن فراش الحب المدنس، وميلاد مشين، وموت دامٍ، زؤام. أجل، همهمت الظلمة بالقتل: الجسد في الماء، الجسد في النار، الجسد في المشنقة. نظر جون إلى آخر الطابور الذي يضم جيوش الظلام، جيش فوق جيش، وهمست روحه: من هؤلاء؟ من هم؟ وتساءل: أين أذهب؟

لم يكن ثمة إجابة. لا عون أو شفاء في القبر، لا إجابة في الظلمة، لا كلام من كل هذه الصحبة. نظروا خلفهم. ونظر جون خلفه، ولم ير خلاصًا.

أنا جون رأيتُ الزمن الآتي، بعيدًا في وسط الفضاء.

هل كان السوط، والسجن، والليل له؟ والبحر له؟ والقبر له؟

أنا جون رأيت حشدًا، بعيدًا في وسط الفضاء.

جاهد كي يفر – من تلك الظلمة، ومن تلك الصحبة – إلى أرض الأحياء، عاليًا، بعيدًا. كان الخوف يعتريه، خوف أشد فتكًا مما عرفه طوال عمره، وهو يتلوى ويتلوى في الظلمة، وهو يئن، ويتعثر، ويزحف عبر الظلمة، لا يجد يدًا، ولا صوتًا، لا يجد بابًا. مَن هؤلاء؟ مَن هم؟ هم المذلون

المهـانون، المعـذبون المبـصوق علـيهم، حُثالـة الأرض؛ كـان برفقتهم، وسوف يلتهمون روحـه. الـسياط التـي احتملوهـا سوف تترك ندوبها على ظهره، سيكون عقابهم عقابه، قـدرهم قدره، هوانهم هوانه، عذابهم عذابه، أغلالهم أغلاله، وسجنهم سجنه، وموتهم موتـه. ثـلاثَ مَـرّاتٍ ضُربـتُ بِالعِـصِيِّ، مَـرَّةً رُجِمْتُ، ثلاثَ مَرّاتٍ انكسَرَتْ بيَ السَّفينةُ، لَيْلاً ونَهَارًا قَـضَيتُ في العُمْقِ.

وشهادتهم الرهيبة ستكون شهادته!

«بِأَسفَارٍ مِرَارًا كَثيرَةً، بِأَخطَارِ سُيُولٍ، بِأَخطَارِ لُـصُوصٍ، بِأَخطَارٍ مِنْ جِنسِي، بِأَخطَـارٍ مِـنَ الأُمَـمِ، بِأَخطَـارٍ في المَدينَـةِ، بِأَخطَارٍ في البَرِّيَةِ، بِأَخطَارٍ في البحر، بِأَخطَارٍ مِنْ إِخوَةٍ كَذَبَةٍ».

ووحشتهم وحشته:

في تَعَبٍ وَكَدٍ، في أَسهَارٍ مِرَاراً كَثيرَةً، في جُـوعٍ وعَطَـشٍ، في أَصوَامٍ مِرَارًا كَثيرَةً، في بَردٍ وعُريٍ.

وبدأ يصرخ طلبًا للعون، وهو يرى أمامه السوط، والنار، والماء الذي لا قرار له، وهو يرى رأسه محنيًا للأبد، هو، چون، الأدنى بين هؤلاء الأدنياء. وبحث عن أمه، ولكن عينيها كانتا مسلطتين على جيش الظلام – الـذي اجتاحهـا. لم يكـن أبـوه ليعينه، فلم يكن يراه، وروي يرقد ميتًا.

ثم همس، وهو لا يعي أنه يهمس: «آه، يا إلهي، فلترحمني. فلترحمني».

وللمرة الأولى في رحلته الرهيبة، تكلم صوت إلى چون، خلال الغضب والبكاء، والنار، والظلمة، والطوفان:

قال الصوت: «نعم، فلتعبر. فلتعبر».

همس چون: «ارفعني، ارفعني. لا أستطيع أن أعبر».

قال الصوت: «فلتعبر. فلتعبر».

ثم ران الصمت. وتوقفت الهمهمة. كان هنالك هذه الرجفة من تحته فقط. وعرف أن ثمة نورًا في مكان ما.

«فلتعبر».

«اسأله أن يعبر بك».

ولكنه لم يستطع أن يعبر هذه الظلمة، وهذه النار، وهذا الغضب. لم يستطع أبدًا. خارت قواه، ولم يحرك ساكنًا. كان ينتمي للظلمة – تلك الظلمة التي فكر في الفرار منها اجتاحته. وأنّ مرة أخرى، وهو يبكي، ورفع يديه عاليًا.

«ادعوه. ادعوه».

«اسأله أن يعبر بك».

صعد الغبار مرة أخرى إلى أنفه، حادًا كـدخان الجحـيم. وتلوى مرة أخرى في الظلمة، محاولاً أن يتـذكر شـيئًا سـمعه، شيئًا قرأه.

يسوع هو المخّلص

ورأى النار من أمامه، حمـراء ذهبيـة، تنتظـره – صـفراء، حمراء، ذهبية، تشتعل في ليل أبدي، وتنتظره. يجب أن يعبر هذه النار، إلى هذا الليل.

يسوع هو المخّلص

ادعوه

اسأله أن يعبر بك

لم يستطع أن يدعو، لأن لسانه كان معقودًا، وقلبه صامتًا، مفعمًا بالخوف. كيـف يمكـن التحـرك في الظلمـة؟ – وأفـواه الموت العشرة آلاف فاغرة، تنتظر في الظلمة. عند أي التفاتة قد ينقض الوحش – أن تتحرك في الظلمة يعني أن تسعى إلى فـم الموت المفغور. ورغم ذلك، عنّ له أنـه لابـد أن يتحـرك؛ لأن ثمة نورًا في مكان ما، وحياة، ومسرة، وغنـاء – في مكـان مـا، مكان ما فوقه.

وأنّ مرة أخرى: «آه، يا إلهي، رحمتك. رحمتك يا إلهي».

تذكر مرة أخرى قداس المناولة الذي ركع فيه إليشا على قدمي أبيه. صار هذا القداس الآن في غرفة فخيمة عالية، جعلها نور الشمس ذهبية؛ وكانت الغرفة تعج بحشد من الناس، كلهم في أردية سابغة بيضاء، والنساء مغطاة رؤوسهن. كانوا يجلسون إلى مائدة خشبية طويلة جرداء. يكسرون عليها خبزًا مسطحًا غير مملح، هو جسد الرب، ويشربون من كأس فضية ثقيلة نبيذًا قرمزيًا هو دمه. آنذاك أدرك أنهم حفاة، وأن أقدامهم ملطخة بنفس الدم. وامتلأت الغرفة بصوت البكاء وهم يكسرون الخبز ويشربون النبيذ.

ثم قاموا، وتجمعوا حول طست عظيم مليء بالماء. وانقسموا إلى أربع مجموعات، اثنتين من النساء، واثنتين من الرجال؛ وراحوا – كل امرأة قبالة امرأة، وكل رجل قبالة رجل – يغسلون أقدام بعضهم بعضا. ولكن الدم لم يتلاشَ؛ لم يفعل الغسل سوى أن أحال الماء الصافي إلى اللون الأحمر؛ وصاح أحدهم: «هل ذهبتَ إلى النهر؟»

حينها رأي جون النهر، وكانت الجموع هناك. الآن تغيرت حالهم؛ صارت أرديتهم ممزقة، متسخة من وعثاء الطريق الذي سافروا عليها، وملطخة بدم دنس؛ كانت أردية بعضهم تغطي عريهم بالكاد؛ وكان بعضهم في الحقيقة عاريًا. تعثر نفرٌ منهم في الأحجار الناعمة عند حافة النهر، لأنهم

كانوا عميانًا؛ وكان نفرٌ منهم يزحف في عويل فظيع، لأنهم كانوا عرجانًا؛ وبعضهم لم يكف عن سلخ جلودهم، لأنها كانت متعفنة من القروح المتقيحة. كانوا كلهم يجاهدون للوصول للنهر، بقلوب واجفة شديدة التوجع: الأقوياء يطيحون بالضعفاء، وذوو الأسهال يبصقون على العراة، والعراة يسبون العميان، والعميان يزحفون على العرجان. وصاح أحدهم: «أيها الخاطئ، هل تحب الرب؟»

حينها رأي چون الرب – للحظة لا أكثر؛ وامتلأت الظلمة، للحظة لا أكثر، بنور لم يحتمله. وفي لحظة، أطلق سراحه؛ سالت دموعه كأنها انبجست من نافورة؛ وفاض قلبه، كنبع ماء. ثم صرخ: «تبارك يسوع!تبارك يسوع! فلتعبر بي!»

أجل، فاضت الدموع نبعًا – انبجست من أعماق سحيقة، من أعماق لم يعلم چون من قبل بوجودها بداخله. أراد أن ينهض، وأن يغني، يغني في هذا الصباح العظيم، صباح حياته الجديدة. آه، كم فاضت دموعه، فباركت روحه! – عندما شعر بنفسه، خارج الظلمة، والنار، والرعب من الموت، ينهض ليلتقي بالقديسين.

«أجل! ليتبارك ربنا للأبد!» صاح صوت إليشا.

وامتلأت نفس چون بعذوبة لسماعه هذا الصوت، وصدح الغناء: كان الغناء له. لأن روحه الهائمة قد رست أخيرًا في محبة الرب؛ على الصخرة التي تدوم للأبد. تبادل النور والظلمة القبلات، وتزاوجا الآن، للأبد، في حياة ورؤيا روح چون.

أنا، چون، رأيت مدينة، بعيدًا في وسط الفضاء،

تنتظر، تنتظر، تنتظر، عاليًا هناك.

فتح عينيه على الصباح، ووجد القديسين، في نور الصباح، مبتهجين له. كانت الرجفة التي عرفها في الظلمة هي صدى أقدامهم الفرحة – تلك الأقدام، الملطخة بالدم للأبد، المغسولة في أنهار كثيرة – كانت تسير على الطريق الدامي للأبد، لا تبتغي مدينة تدوم في الزمن، ولكنها تروم مدينة ما هو آتٍ، تروم مدينة خارج الزمن لم تبنها يدٌ، وإنما مدينة أبدية في السموات. لا قوة تملك صدًا لجموع هذا الجيش، لا ماء يشتتهم، لا نار تلتهمهم. يومًا ما سوف يرغمون الأرض أن تنشق، وتسلمهم الموتى المنتظرين. كانوا يغنون، حيث تكاثفت الظلمة، حيث يربض الأسد، حيث تزأر النار، وحيث يراق الدم:

يا روحي، لا تجزعي!

كانوا يهيمون في الوادي للأبد؛ ويضربون الصخرة، للأبد؛ وتفيض المياه للأبد، في الصحراء الأبدية. كانوا يصرخون للرب للأبد، ويرفعون أعينهم عاليًا للأبد، ويُطرَدون للأبد، وكان الرب يرفعهم للأبد. لا، لا يمكن للنار أن تؤذيهم، أجل، أُغلِق فم الأسد الفاغر؛ لم تعد الحية تتسيدهم، لم يعد القبر مرقدهم، ولا الأرض موطنهم. قدم لهم أيوب شهادة، وأعطاهم إبراهيم أبوته، واختار موسى أن يتعذب معهم على أن يتمتع بالمجد في الخطيئة فصلاً. وسار شَدْرَخُ ومِيشَخُ وعَبْدَنَغُو إلى النار قبلهم، وتغنى داوود بحزنهم، وبكى إرميا من أجلهم. وتنبأ حزقيال لهم، لتلك العظام المبعثرة، لهؤلاء المذبوحين، وفي الوقت المناسب، خرج النبي، يوحنا، من البرية، يصيح بأن الوعد لهم. كانوا محاطين بغيمة من الشهود: يهوذا الذي خان الرب؛ توما، الذي لم يؤمن به؛ بطرس، الذي ارتجف لصياح الديك؛ استفانوس، الذي رُجِم؛ بولس، الذي أُلقي في السجن؛ والأعمى يصرخ على الطريق المترب، والميت يقوم من القبر. ونظروا إلى يسوع، مبتدأ إيمانهم ومنتهاه، يسعى، في صبرٍ، السعيّ الذي أوصاهم به؛ وتحملوا الصليب، وازدروا العار، وانتظروا لكي ينضموا إليه، ذات يوم، في المجد، على يمين الأب.

يا روحي! لا تجزعي!

يسوع سوف يعد فراش موتي!

«انهض، انهض، يا أخ چون، وحدثنا عن خلاص الرب».

كان إليشا هو من تكلم؛ وقف فوق رأس چون مباشرة، مبتسمًا؛ ومن خلفه وقف القديسون – الأم المصلية واشنطن، والأخت ماكاندلس، وعمته؛ في تلك اللحظة، كان أبوه مختفيًا عن ناظريه.

صاحت الأخت ماكاندلس: «آمين! انهض، ومجد الرب!»

حاول أن يتكلم، ولكنه لم يستطع، من الفرحة التي دوت بداخله هذا الصباح. ابتسم لإليشا، وفاضت دموعه؛ وبدأت الأخت ماكندلِس في الغناء:

«إلهي،

لم أعد غريبًا الآن!»

قال إليشا مرة أخرى: انهض، يا چوني. هل نلت الخلاص، يا فتى؟»

أجابه چون: «أجل، آه، أجل!» وصعدت الكلمات، كما بدا، من تلقاء نفسها، بالصوت الجديد الذي منحه الرب إياه.

مد إليشا يده، فأخذها چون، ووقف مرة أخرى على قدميه – بصورة مفاجئة وغريبة للغاية، وعلى محياه تلك الدهشة!

«إلهي،

لم أعد غريبًا الآن!»

أجل، لقد مر الليل، وانهزمت قوى الظلام. مشى بين القديسين، هو، چون، الذي عاد إلى البيت، وأصبح واحدًا من صحبتهم الآن؛ كان يبكي، ولكنه لم يجد الكلمات التي يعبر بها عن فرحه العظيم؛ كان يكاد لا يعرف كيف يمشي، لأن يديه كانتا جديدتين، وقدماه جديدتان، وكان يسير في هواء جديد له بريق سماوي. أخذته الأم المصلية واشتطن بين ذراعيها، وقبلته، وامتزجت دموعها، دموعه ودموع المرأة السوداء العجوز.

«إلهي، لقد تعرفت

إلى الأب والابن،

ولم أعد غريبًا الآن!»

أجل، بينما كان يمشي بينهم، وأياديهم تتلامس، والدموع تتساقط، والموسيقى تتصاعد – وكأنه يمشي عبر قاعة عظيمة، ملأى برفقة من العظماء – بدأ شيء يدق في قلبه المنصت، المندهش، المولود حديثًا، قلبه الهش؛ شيء يسترجع مخاوف

الليل المرعبة، التي لم تنتهِ، كأن قلبه يتوجسها ويحدثه بها؛ والتي لا يمكن أن تبدأ الآن وسط هذه الصحبة. وبينما كان قلبه يتكلم، وجد نفسه أمام أمه. كان وجهها مغمورًا بالدمع، نظرا إلى بعضهما لفترة طويلة، دون أن يقولا شيئًا. ومرة أخرى حاول أن يقرأ سر هذا الوجه – الذي لم يبدُ أبدًا من قبل بعيدًا عنه، ومتوحدًا تمامًا مع حياة أخرى وراء حياته، لأنه لم يكن من قبل بمثل هذا الإشراق والألم بفعل الحب. كان يود أن يهدئ خاطرها، ولكن الليل لم يمنحه لغة، أو بصيرة أخرى، ولا القدرة على أن يرى ما في قلوب الآخرين. عرف الآن فقط – الآن، وهو ينظر إلى أمه، أنه لن يسبر سر هذا الوجه أبدًا – عرف أن القلب مكان مخيف. قبّلته أمه، وقالت: «إني حقًا فخورة بك، يا چوني. استمسك بإيمانك. وسوف أصلي من أجلك حتى يضعني الرب في قبري».

ثم وقف أمام أبيه. وفي اللحظة التي أرغم نفسه فيها على أن يرفع عينيه وينظر في وجه أبيه، شعر في دخيلته بجمود، وهلع، وتمرد أعمى، وأمل في السلام. كانت الدموع لا تزال على وجهه، وكان لا يزال مبتسمًا، قال: «ليتمجد الرب».

«ليتمجد الرب»، قال أبوه دون أن يتحرك لكي يلمسه، أو يقبّله، ولم يبتسم. وقفا قبالة بعضهما في صمت، بينما كان القديسون يهللون؛ حاول چون أن ينطق بالكلمة الحية ذات

السطوة التي ستهزم الفجوة العظيمة بينه وبين أبيه. ولكن الكلمة الحية لم تخرج من فمه ؛ في الصمت مات شيء في چون، وبعث شيء للحياة. خطر له أنه لا بد وأن يشهد: فلسانه لا يملك إلا أن يدلي بشهادته على ما رآه من عجائب. وتذكر فجأة نص موعظة سمع أباه يلقيها ذات مرة. وفتح فاه، شاعرًا، وهو ينظر إلى أبيه، أن الظلمة تهدر من خلفه، وأن الأرض من تحته تميد؛ ومع ذلك قدم لأبيه شهادتهم المعتادة. «لقد نلت الخلاص، وأعرف أنني نلت خلاصي». وعندما لم يتكلم أبوه، ردد نص أبيه: «الآنَ هُوَ ذَا فِي السَّمَاوَاتِ شَهِيدِي وشَاهِدِي فِي الأَعَالِي».

عندئذ قال أبوه: «إنها تخرج من فمك، أريد أن أراك تعيشها. إنها أكثر من مجرد فكرة».

قال چون – وارتعش صوته، دون أن يدري إن كان فَرِحًا أم حزنًا: «سوف أدعو الرب أن يحفظني ويقويني... على الوقوف... الوقوف ضد العدو... وضد كل شيء وكل شخص... يريد أن يهلك روحي».

وسالت دموعه مرة أخرى، كجدار بينه وبين أبيه. جاءت عمته فلورنس وأخذته بين ذراعيها. كانت عيناها جافتين، وكان وجهها عجوزًا في نور الصباح الوحشي. ولكن صوتها، عندما تحدثت، كان أكثر عذوبة من أي وقت سمعه فيه فيما مضى.

قالت: «فلتصمد في قتالك، سامع؟ لا تكل، ولا تخف. لأنني أعرف أن الرب وضع يديه عليك».

قال، باكيًا: «أجل، أجل. سوف أخدم الرب».

هتف إليشا: «آمين! فليتبارك الرب!»

كانت الشوارع القذرة تتوهج بنور الصباح الباكر وهم يخرجون من الكنيسة.

كانوا كلهم هناك، ما عدا إلاماي، التي غادرت بينما كان چون في غشيته على الأرض - كانت تعاني من نوبة برد سيئة، وتحتاج للراحة، كما قالت الأم واشنطن المصلية. الآن، كانوا يقطعون الشارع الطويل، الرمادي، الصامت في ثلاث مجموعات: الأم المصلية واشنطن وإليزابيث والأخت ماكاندلس والأخت برايس، ومن أمامهم جبريل وفلورنس، وفي المقدمة إليشا وچون.

قالت الأم المصلية: «أتدرون، الرب أعجوبة. هل تعلمون، طوال هذا الأسبوع كان الرب يثقل روحي، فجعلني أصلي وأبكي أمامه؟ لم أستطع أن أستريح بأي شكل - وأعرف أنه دفعني للصلاة من أجل روح هذا الصبي».

قالت الأخت برايس: «حسنًا، آمين، يبدو أن الرب أراد أن تهتز هذه الكنيسة. هل تذكرون كيف تكلم من خلال

الأخت ماكندلس ليلة الجمعة، وأخبرنا أن نصلي، وأنه سوف يعمل أعجوبة عظيمة بيننا؟ وها هو قد حرك عقل الجميع - هللوليا - وهزهم».

قالت الأخت ماكاندلس: «كما قلت لكم، كل ما عليكم فعله هو أن تنصتوا للرب؛ وسوف يقودكم للصواب كل مرة؛ سوف يتحرك كل مرة. هل يجرؤ أحدكم أن يقول لي أن ربي ليس حقيقيًا».

قالت الأم المصلية واشنطن، بابتسامة عذبة هادئة: «وأنتم ترون ما عمله الرب مع إليشا الصغير هناك؟ لقد ساق ذلك الفتى ليتنبأ بألسنة، آمين، في نفس اللحظة التي سبقت سقوط جون صارخًا، وباكيًا أمام الرب. يبدو أن الرب كان يستخدم إليشا ليقول: 'حان وقتك، يا فتى، فلترجع إلى البيت'».

قالت الأخت برايس: «حسنًا، إن الرب أعجوبة. لقد أصبح لجون أخوان الآن».

لم تقل إليزابيث شيئًا. سارت ورأسها منحنٍ، ويداها متشابكتان أمامها. استدارت الأخت برايس لتنظر إليها، وابتسمت.

قالت: «أعرف أنك امرأة في غاية السعادة هذا الصباح».

ابتسمت إليزابيث ورفعت رأسها، ولكنها لم تنظر مباشرة إلى الأخت برايس. نظرت أمامها، إلى نهاية الشارع، حيث كان جبريل يسير مع فلورنس، وچون يتحادث مع إليشا.

قالت أخيرًا: «أجل، لقد كنت أصلي. ولن أكف عن الصلاة».

قالت الأخت برايس: «أجل، يا إلهي، لا يستطيع أحد منا أن يكف عن الصلاة حتى نرى وجهه المبارك».

قالت الأخت ماكندلس وهي تضحك: «ولكنني أراهن أنك لم تتوقعي أبدًا أن يهب چون الصغير مبكرًا هكذا لاحتضان الدين. تبارك ربنا».

قالت الأم المصلية: «إن الرب سيبارك هذا الفتى، ولتتذكري كلامي».

«صافح الواعظ، يا چوني».

«ثمة رجل في الكتاب المقدس، يا ولدي، كان يحب الموسيقى أيضًا. كان يعزف على قيثارته أمام الملك، ثم تأتى له أن يرقص ذات يوم في حضرة الرب. هل تعتقد أنك سوف ترقص في حضرة الرب في يوم من الأيام؟»

قالت الأخت برايس: «أجل، يا إلهي، جعل لكِ الرب ابنًا مقدسًا. وسوف يواسيك عندما يصير شعرك أشيب».

أَلْفَت إليزابيث دموعها تنساب بطيئة، مريرة في نور الصباح. قالت: «أدعو الرب أن يحميه من كل سوء».

قالت الأخت ماكاندلس في رصانة: «أجل، الخلاص أكثر من مجرد فكرة. فالشيطان يطلع في كل مكان».

وصلوا في صمت، إلى التقاطع العريض حيث يمر خط الترام. كانت قطة تقطع الميزاب وفرت عند اقترابهم؛ ثم استدارت لتنظر إليهم، بعينين صفراوين حاقدتين، من مكمنها في صفيحة قمامة. حلق طائر رمادي من فوقهم، أعلى من أسلاك الكهرباء الخاصة بالترام، وحط على الإفريز المعدني لأحد الأسطح. آنذاك، سمعوا صوت صفارة إنذار، ورنين جرس، وتطلعوا إلى عربة الإسعاف التي كانت تسرع بجانبهم في طريقها إلى المستشفى القريبة من الكنيسة.

همهمت الأخت ماكاندلس: «روح أخرى سقطت. رحمتك يا إلهي».

قالت الأخت برايس: «يقول الرب إنه في آخر الزمان يكثر الشر».

قالت الأم واشنطن المصلية: «حقًا، لقد قال ذلك، وأنا سعيدة لأنه أخبرنا أيضًا أنه لن يتركنا بلا عزاء».

قالت الأخت ماكاندلس: «عندما ترين كل هذه الأحداث، تدركين أن خلاصك قريب، يَسْقُطُ عَنْ جَانِبِكَ أَلْفٌ ورِبْوَاتٌ عَنْ يَمِينِكَ. إِلَيْكَ لاَ يَقْرُبُ. آمين، هذا الصباح سعيد، تبارك مخلصي».

«هل تذكرين ذلك اليوم، عندما جئت إلى المتجر؟»

«لم أكن أظن أنك نظرت إليّ من قبل قط».

«حسنًا، لقد كنت في غاية الجمال».

«ألم يقل چوني الصغير أي شيء يلفت ذهنك إلى أن الرب يعمل في قلبه؟» سألت الأم المصلية واشنطن إليزابيث.

ردت إليزابيث: «إنه دائمًا هادئ. لا يتكلم كثيرًا».

قالت الأخت ماكاندلس: «إنه ليس مثل هؤلاء الأولاد المشاغبين في هذه الأيام – فهو يكن بعض الاحترام لمن هم أكبر منه. لقد أحسنتِ تربيته، يا أخت جرايمز».

قالت إليزابيث: «لقد كان عيد ميلاده بالأمس».

«لا!» هتفت الأخت برايس. «كم أصبح عمره أمس؟»

قالت: «لقد أصبح أربعة عشر».

قالت الأخت برايس في تعجب: «هل تسمعين ذلك؟ لقد خلص الرب روح ذاك الصبي في يوم عيد ميلاده!»

ابتسمت الأخت ماكاندلس: «حسنًا، إن لـه يـومي عيـد ميلاد الآن، كما أصبح له أخوان – واحد في الجسد، وواحد في الروح القدس».

«آمين، تبارك الرب!» هتفت الأم المصلية واشنطن.

«أي كتاب كان يا ريتشارد؟»

«أوه، لا أتذكر. مجرد كتاب».

«لقد ابتسمت يومها».

«لقد كنت في غاية الجمال».

تناولت منديلها المخضل بالدموع، فجففت عينيهـا؛ ثـم جففت عينيها مرة أخرى، وهي تنظر إلى نهاية الشارع.

قالت الأخت بـرايس: «أجـل، اشـكري الـرب. ودعـي دموعك تسقط. أعرف أن قلبك مفعم هذا الصباح».

قالت الأم المصلية واشنطن: «لقـد منحـك الـرب بركـة عظيمة – وما أعطاه الرب لا يأخذه بشر».

قالت الأخت برايس: «آمين. آمين».

قالت فلورنس: «حسنًا، أظن أن روحك تمجد الرب هذا الصباح».

لم يرد جبريل عليها، سدد نظره أمامه في خط مستقيم، وهو يشد جسده في صرامة كأنه ساهِمٌ.

قالت فلورنس: «لقد كنت تقول دائمًا إن الرب يجيب دعوة الداعي». ونظرت إليه شزرًا، بابتسامة صغيرة.

أخيرًا قال: «سوف يتعلم أن الأمر لا يكمن في الغناء والتهليل – فطريق القداسة طريق شاق. عليه أن يتسلق جانب الجبل الشاهق».

قالت: «ولكنك هناك بجانبه، أليس كذلك، لتساعده إذا تعثر، ولتكون له قدوة؟»

قال: «سوف أحرص على أن يسير مستقيمًا أمام الرب. لقد وضع الرب روحه تحت رعايتي – ولن أتخلى عن مسئوليتي حتى لا يكون دم هذا الفتى على يدي».

قالت له بلطف: «أجل، لا أظن أنك تريد ذلك».

حينئذ سمعا صفارة الإنذار، وجرس التنبيه المندفع. كانت ترقب وجهه وهو ينظر تجاه الشارع الساكن وسيارة الإسعاف التي مرقت بجانبهما تحمل شخصًا ما إلى شفائه، أو موته.

قالت: «أجل، ستأتي هذه السيارة يوما مّا لكل إنسان، أليس كذلك؟»

قال: «أرجو أن تجدكِ متأهبة عندما تأتي».

سألته: «وهل ستجدك أنتَ متأهبًا؟»

أجاب: «أعرف أن اسمي مدون بكتاب الحياة، وأني سأرى وجه مخلصي في مجد».

قالت في تؤدة: «أجل، سوف نكون معًا جميعًا هناك. أمي وأنت وأنا وديبورا – وما اسم تلك الفتاة الصغيرة التي ماتت بعد فترة غير طويلة من رحيلي عن المنزل؟»

سألها: «أي فتاة ماتت؟ فكثير من الناس ماتوا بعد أن رحلتِ عن المنزل – وتركتِ أمك على فراش الموت».

قالت: «كانت هذه الفتاة حُبلى أيضًا. يبدو أنها رحلت للشمال وحدها، وولدت طفلها، وماتت – ولم يكن هناك من يساعدها. لقد كتبت لي ديبورا عن هذا. من المؤكد أنك لم تنس اسم هذه الفتاة، يا جبريل!»

تعثرت خطواته في التو – وبدا لبرهة وكأنه يجرجر قدميه. ونظر إليها. ابتسمت، ولمست ذراعه لمسة خفيفة.

قالت: «لم تنس اسمها، لا تقل لي إنك نسيت اسمها. هل ستنظر في وجهها أيضًا؟ هل اسمها مدون في كتاب الحياة؟»

ساروا معًا في صمت مطبق، وذراعها مازالت تحت ذراعه المرتعش.

تابعت كلامها أخيرًا: «لم تكتب لي ديبورا مطلقًا عما حدث للطفل. هل رأيته؟ هل ستقابله في الجنة أيضًا؟»

قال: «يقول لنا الكتاب المقدس دَع الموتى يدفنون الموتى. لماذا تنقبين فيما مضى، وتستعيدين ما طواه النسيان؟ إن الرب يعرف حياتي – وقد غفر لي منذ زمن طويل؟»

قالت: «يبدو أنك تظن أن الرب بشر مثلك؛ وأنه بمقدرتك أن تخدعه كما تخدع البشر، وتظن أنه ينسى كالبشر. لكن الرب لا ينسى شيئًا، يا جبريل – فإن كان اسمك مدونًا في كتاب الحياة، كما تقول، فسوف يكون كل ما فعلته مدونًا هناك أيضًا معه. وسوف تُسأَل عنه أيضًا».

قال: «لقد أجبت من قبل أمام الرب. ولست مضطرًا لأن أجيب أمامك».

فتحت حقيبة يدها وأخرجت خطابًا.

قالت: «إني أحمل هذا الخطاب منذ أكثر من ثلاثين سنة. وكنت دومًا أتساءل إذا كنت سأحدثك بشأنه في أي وقت».

نظرت إليه، فراح ينظر، على مضض للخطاب الذي كانت تحكم قبضتها عليه. كان الخطاب قديمًا، متسخًا، متربًا، وممزقًا؛ تعرّف على خط يد ديبورا المتردد المهتز، وتراءت له مرة أخرى في كوخهما، وهي منحنية على المائدة،في مشقة تُودِع الورق المرارة التي لم تنطق بها. كانت تلك المرارة، إذن، تعيش

في صمتها طوال تلك السنوات؟ لم يصدق ذلك. فقد كانت تصلي من أجله وهي تموت – وأقسمت أن تلقاه في المجد. ومع ذلك، ها هو خطابها، شاهدها، ينطق، ويكسر صمتها الطويل، بعد أن أضحت بمنأى عنه للأبد.

قالت فلورنس وهي ترقب وجهه: «أجل، لم تمنحها فراشًا من ورود لكي تنام عليه، أليس كذلك؟ – تلك الفتاة المسكينة، البسيطة، السوداء القبيحة. كذلك لم تعامل الأخرى بشكل أفضل. من ذا الذي قابلته، يا جبريل، طوال حياتك المقدسة، ولم تجرعه كأس الألم؟ بل ومازلت تفعل ذلك – وسوف تفعله حتى يضعك الرب في القبر».

قال بصوت خافت ووجهه يلتمع بالعرق: «طريق الرب ليس كطريق البشر. لقد كنت أتصرف بإرادة الرب، ولا يستطيع أن يحكم عليّ سوى الرب. لقد ناداني الرب، واختارني، وظللت أجري معه منذ أن هداني. لا تستطيعين أن تضعي عينيك على كل هذه الحماقة هنا على الأرض، على كل هذه الشرور على الأرض – عليك أن تتطلعي لأعلى للتلال وتفرين من الهلاك الواقع على الأرض، عليك أن تضعي يدك في يد يسوع، وتذهبي حيث يقول اذهبي».

قالت: «ما بالك إذن إن كنت مجرد حجر عثرة هنا على الأرض؟ إن كنت تسببت في تعثر البشر يمينًا ويسارًا

وسقوطهم، وفقدان سعادتهم وأرواحهم؟ ما قولك حينئذ، أيها النبي؟ ماقولك حينئذ، يا مسيح الرب؟ أم تظن أنك لن تُحاسَب؟ ماذا ستقول عندما تأتي عربة الموت؟؟»

رفع رأسه، فرأت دموعه ممتزجة بعرقه. قال: «إن الرب يرى القلب – إنه يرى القلب».

قالت: «أجل، ولكني قرأت الكتاب المقدس أيضًا، وهو يقول إن الشجرة تُعرَف من ثمارها. أي ثمرة رأيتها منك سوى الخطيئة والألم والعار؟»

قال: «انتبهي كيف تكلمين مسيح الرب. لأن حياتي ليست في هذا الخطاب – فأنتِ لا تعرفين حياتي».

سألته بعد برهة يائسة: «أين حياتك يا جبريل؟ أين حياتك؟ ألم تضع سدىً؟ أين فروعك، أين ثمارك؟»

لم يفه بكلمة؛ وأخذت هي تنقر بإبهامها في إصرار على الخطاب. كانا يقتربان من ناصية الشارع حيث كان عليها أن تغادره، وتتجه غربًا لتستقل قطار الأنفاق إلى منزلها. في النور الذي ملأ الشوارع، النور الذي بدأت الشمس تفسده بلهيبها، رأت چون وإليشا أمامها، چون ينصت وهو محني الرأس، وذراع إليشا حول كتفه.

أخيرًا قال: «عندي ابن، وسوف يرفعه الرب. وعدني الرب، وأعرف أن كلمة الرب صادقة».

فضحكت قائلة: «هذا الابن، روي. سوف تبكـي للأبـد قبل أن تراه يصيح أمام المذبح كما كان چوني يصبح الليلة».

ردد مـرة أخـرى: «إن الـرب يـرى القلـب – إنـه يـرى القلب».

صاحت به: «نعم، يجب أن يرى القلب، فهو الذي خلقه ولكن لا أحد غيره يراه، ولا حتى أنـتَ نفـسك! فلـيرَ الـرب القلبَ – فهو يراه جيدًا، ولا يقول شيئًا».

قال: «الرب يتكلم، يتكلم. كل ما عليك هو أن تنصتي».

قالت فلورنس: «كنت أنصت طوال ليالٍ كثيرة، ولكنه لم يكلمني أبدًا».

قـال جبريـل: «لم يكلمـك مطلقًـا، لأنـك لم ترغبـي في الاستماع قط. كل ما كنت ترغبين فيـه أن يخـبرك أن طريقتـك صحيحة. وليست هذه هي الطريقة التي يُعامل بها الرب».

قالت فلورنس: «قل لي إذن، ما الذي قاله لك – ولا تـود أن تسمعه؟»

ساد الصمت مرة أخرى. وراحا ينظران كلاهما إلى چون وإليشا.

قالت: «سأقول لكَ شيئًا يا جبريل. أعرف أنك في قـرارة قلبك تظن أنك إذا أرغمتها، هي وابنها من السفاح، على دفـع

ثمن خطيئتها، فلن يدفع ابنـك ثمـن خطيئتـك. ولكنـي لـن أسمح لـك بفعـل هـذا. لقـد ألزمـت الكثـيرين بـدفع ثمـن خطاياهم، لقد حان الوقت لكي تدفع ثمن خطاياك».

سألها: «ماذا تظنين نفسك قادرة على فعله – ضدي؟»

قالت: «ربما لن أعيش طويلاً في الدنيا، ولكن معـي هـذا الخطاب، ولسوف أعطيه لإليزابيث قبل أن أموت، وإن كانت لا تريده، سوف أجد طريقـة مـا – لا أعـرف مـا هـي بعـد – لأعلن ما فيه، وأخبر الجميع، عن الدم الذي يلطخ يدي مسيح الرب».

قال: «لقد قلت لكِ، لقد انتهى كل شيء؛ وأعطاني الرب علامة ليعرفني إنه غفر لي. ما الذي سـتجنينه مـن إثـارة هـذا الموضوع مرة أخرى الآن؟»

قالت: «سوف يتيح ذلك لإليزابيث أن تعرف أنها ليست الخاطئة الوحيدة...في بيتـك المقـدس. وسـوف يعلـم چـوني الصغير، هذا – أنه ليس ابن الزنا الوحيد».

استدار مرة أخرى، ونظر إليها والكراهية تملأ عينيه.

قال: «لم تتغيري أبدًا. مازلت تنتظرين رؤيتي وأنا أسقط. مازلتِ شريرة تمامًا كما كنتِ في شبابك».

دسّت الخطاب في حقيبتها مرة أخرى.

قالت: «لا، لم أتغير. وأنت كذلك لم تتغير. مازلت تَعِد الرب أنك ستحسن من أفعالك – وتظن أنّ كل ما فعلته من قبل، وما تفعله حتى هذه اللحظة، لا يهم. من بين كل البشر الذين عرفتهم، أنت الشخص الوحيد الذي ينبغي أن يأمل أن يكون الكتاب المقدس محض كذبة – لأنه لو قدر ونُفِخ في الصور، فسوف تقضي الأبدية كلها في الكلام كعهدك».

كانا قد وصلا إلى ناصية شارعها. فوقفت، ووقف معها، وراحت تحملق في وجهه المنهك المحتقن.

قالت: «يجب أن أستقل قطاري. هل تريد أن تقول لي أي شيء؟»

قال: «لقد عشت طويلاً ورأيت أن الشر لا ينزل إلا بأعداء الرب. تظنين أنك سوف تستخدمين هذا الخطاب لتؤذيني – ولكن الرب لن يدع ذلك يحدث. وسوف يُمِيتكِ».

اقتربت النساء المصليات، وإليزابيث في وسطهم.

قالت فلورنس: «لقد ماتت ديبورا – ولكنها تركت كلمة. لم تكن عدوًا لأحد – ولم تلقَ سوى الشر. عندما أموت، يا أخي، من الأفضل لك أن ترتجف، لأنني لن أرحل في صمت».

وفيما هما يحدقان في أحدهما الآخر، دون أن يتفوها بأي شيء، لحقت بهما النساء المصليات.

الآن كان الشارع الطويل الصامت يمتد أمامهم كئيبًا كمدينة للموتى. لم يكن يصدق أنه عبر هذا الشارع منذ ساعات قليلة (بحساب البشر للزمن)؛ أو أنه عرفه منذ أن تفتحت عيناه على العالم المليء بالمخاطر؛ وأنه لعب هنا، وبكى هنا، ووقع هنا، وجُرح هنا – في ذلك الزمان البعيد الذي خلفه وراءه، زمان براءته وغضبه.

أجل، في مساء اليوم السابع، عندما خرج في سورة غضبه من بيت أبيه، كان هذا الشارع يمتلئ بصياح البشر. كان ضوء النهار قد بدأ يتلاشى – وكانت الريح عاصفة، وأعمدة النور العالية، واحدًا تلو الآخر، ثم معًا، ترفع رؤوسها في وجه الظلام – وهو يهرع إلى الكنيسة. هل سخر منه أحد، هل تكلم أحد، أو ضحك، أو ناداه؟ لا يذكر. كان يسير في عاصفة.

الآن هدأت العاصفة. تغيرت صورة الشارع تحت السماء، شأن أي بقعة من الأرض نجت من عاصفة، بدا منهكًا ونظيفًا وجديدًا. تغير الشارع للأبد ولن يعود إلى ما كان عليه. لقد دمرته النيران، أو البروق، أو الأمطار التي هطلت مؤخرًا، من هذه السماوات التي تتحرك في سرية شاحبة من فوقه، غيرته في لحظة، في طرفة عين، كما سيتغير كل شي يوم الدينونة، عندما تنشق السماوات مرة أخرى لتجمع القديسين.

ومع ذلك كانت البيوت قائمة، كما كانت؛ النوافذ، كآلاف العيون العمياء، تحدق في الصباح بالخارج - ذاك الصباح الذي كان مثل كل الصباحات في زمن براءة جون، وكل الصباحات التي سبقت مولده. كانت المياه تجري في المزاريب بصوت خفيض مضطرب؛ وعلى الماء تطفو قطع من الورق، وأعواد ثقاب محروقة، وأعقاب سجائر مشربة بالماء؛ كتل من البصاق، خضراء صفراء، وبنية وبيضاء؛ ومخلفات كلب، وقيء سكير، وحيوانات منوية ميتة، حبيسة عازل طبي، استخدمه رجل أسلم نفسه للشهوات. جميعها تتهادى نحو الحاجز المشبك الأسود حيث تسقط مندفعة في النهر، الذي يقذفها في البحر.

حيث كانت البيوت تقبع، وحيث كانت النوافذ تحدق، وحيث كانت الميازيب تجري، كان الناس هناك - ينامون الآن، لا يراهم أحد، في حياتهم الخاصة، في العتمة الثقيلة التي تلف هذه البيوت، بينما كان نهار الرب يشرق في الخارج. عندما يذرع جون هذه الشوارع مرة أخرى، سيجدهم يتصايحون هنا مرة أخرى؛ سيقتحمه من الخلف هدير الزلاجات ذات العجل التي يلعب بها الأطفال؛ ستقيم البنات الصغيرات ذوات الضفائر، وهن يثبن الحبل، حاجزًا على الرصيف يتحتم عليه أن يعبره ويتعثر بقدر ما يستطيع. سيتقاذف الصبيان الكرة في هذه الشوارع مرة أخرى - وسوف ينظرون إليه ويصيحون:

«يا عينا الضفدع!»

سيقف الرجال على نواصي الشوارع مرة أخرى، ينظرون إليه وهو يمر، وسوف تسخر البنات من مشيته وهن يجلسن في مداخل البيوت. وسوف تحدق الجدات من النوافذ، وتقلن:

«لا شك أن هذا الصبي تعيس».

سوف يبكي مرة أخرى، سيدفعه قلبه، فها هو يبدأ في البكاء؛ سوف يستبد به الغضب مرة أخرى، هذا ما قاله الهواء الذي غير اتجاهه، لأن أُسُود الغضب أُطلقَت من محابسها؛ سوف يحل بالظلمة مرة أخرى، وبالنار مرة أخرى، بعد أن رأى النار والظلمة. لقد صار حرًا - فإن حَرَّركم الابنُ، فبِالحقيقَةِ تَكُونُونَ أحرارًا - وكل ما عليه أن يصمد في حريته. لقد فرغ من القتال، وخاض نهار الرب المنبلج هذا، ومعه هذا الشارع، وتلك البيوت، وهؤلاء البشر النائمين، المحدقين، المتصايحين - المعركة ضد ملاك يعقوب، ورَئِيس سُلْطانِ الهَوَاءِ. وامتلأ جون بفرح، فرح لا وصف له، تغتذي جذوره على نبع من يأس لم يكتشفه بعد، رغم أنه لا يعتزم أن يتتبع هذه الجذور في هذا اليوم الجديد من حياته. فَرَحُ الرَّبِ هُوَ قُوَّةُ شَعْبِهِ. حيث يكون الفرح، تتبعه القوة؛ حيث تكون القوة، يأتي الحزن - للأبد؟ للأبد وللأبد، أجاب ذراع إليشا، وهو يثقل كتفه. حاول جون أن يرى عبر جدار الصباح، أن ينفذ عبر البيوت المرورة، أن يمزق الحجب الألف الرمادية التي تحوط

السماء، وينظر إلى القلب - هذا القلب الوحشي الذي ينبض للأبد، ويحرك الكون المشدوه، آمرًا النجوم أن تفر بعيدًا أمام نعل الشمس الأحمر، والقمر أن يصير بدرًا وهلالاً، ثم ينخسف، ليطلع ثانيةً؛ ويصد البحرَ بشبكة فضية، ومن الهاوية الخفية يعيد خلق الأرض، كل يوم. هذا القلب، هذا النَفَسُ، من دونه لا يكون أي شيء كان. فاضت الدموع في عينيه، فصار الشارع يرتعش، والبيوت تتراقص - جاش قلبه، وارتفع، وتلعثم، ثم خرس. من الفرح تأتي القوة، القوة التي جبلت لتحمل الحزن: الحزن جلب الفرح. للأبد؟ هذا هو دولاب حزقيال، في وسط الهواء المتوهج بالنار للأبد - الدولاب الصغير يدور بالإيمان، والدولاب الكبير يدور بنعمة الرب.

قال: «إليشا؟»

بادره إليشا، وكأنه يقرأ أفكاره: «لو دعوت الرب ليرفعك عاليًا، فلن يدعك تسقط».

قال جون: «إنه أنت من ساعدني بالصلاة على العبور، أليس كذلك؟»

قال إليشا مبتسمًا: «لقد كنا جميعًا نصلي، يا أخي الصغير، ولكن نعم، كنت فوق رأسك مباشرة طوال الوقت. بدا الأمر وكأن الرب وضعك حِملاً على روحي».

«وهل كنت أنا أصلي طول الوقت؟» سأل جون.

ضحك إليشا: «حسنًا، لقد بدأت تصلي في الليل ولم تتوقف عن الصلاة حتى الصباح. ذلك هو الوقت المناسب حقًا، كما يبدو لي».

ابتسم جون بدوره متعجبًا لملاحظته أن قديس الرب يمكن أن يضحك.

سأله: «هل كنت سعيدًا لرؤيتي عند المذبح؟»

ثم تعجب لماذا سأله هذا السؤال، وتمنى ألا يظنه إليشا أحمق.

قال إليشا في رزانة: «لقد كنت سعيدًا للغاية أن أرى جوني الصغير يضع خطاياه على المذبح، ويضع حياته على المذبح ويقوم ممجدًا الرب».

شيء ما ارتعش بداخله لسماعه كلمة خطيئة تلفظ، ففاضت الدموع بعينيه مرة أخرى. وقال: «أصلي للرب... أصلي للرب... أن يقويني... وأن يطهرني تمامًا... وأن يخلصني دائمًا!»

قال إليشا: «أجل، فلتحافظ على هذه الروح، فأنا أعرف أن الرب سوف يعتني بك حتى تصل البيت سالمًا».

قال چون في تمهل: «إنه طريق طويل، أليس كذلك؟ طريق شاق. عسير المرتقى».

قال إليشا: «تذكر يسوع. فكر في يسوع دائمًا. لقد صعد هذا الطريق – مرتقيًا جانب الجبل الشاهق – وهو يحمل صليبه، دون أن يساعده أحد. لقد صعد هذا الطريق لأجلنا. وحمل الصليب لأجلنا».

قال چون: «لكنه كان ابن الله، وكان يعرف ذلك».

قال إليشا: «كان يعرف لأنه كان مستعدًا لدفع الثمن. ألا تعرف ذلك، يا چوني؟ ألا ترغب في دفع الثمن؟»

قال چون أخيرًا: «تلك الأغنية التي يغنونها، لو كلفني حياتي – أهذا هو الثمن؟»

أجابه إليشا: «أجل، هذا هو الثمن».

صمت چون، كان يريد أن يُصيغ سؤاله على نحو آخر. ولكن الصمت انشرخ فجأة على صوت صفارة عربة الإسعاف وجرس صارخ. وتطلع كلاهما إلى عربة الإسعاف وهي تنطلق بجوارهما على الشارع المقفر، إلا من قديسي الرب الذين كانوا خلفهما.

قال إليشا بعد أن ساد الصمت مرة أخرى: «ولكن هذا أيضا هو ثمن الشيطان. فالشيطان لا يطلب أقل من حياتك. ويأخذها أيضًا وتضيع للأبد. للأبد يا چوني. فتكون في الظلمة

وأنت حي وتكون في الظلمة وأنت ميت. لا شيء سوى محبة الرب تجعل الظلمة نورًا».

قال چون: «أجل، إني أتذكر. إني أتذكر».

قال إليشا: «ولكن عليك أن تتذكر عندما يأتي اليوم الشرير، عندما يطمو الطوفان، يا ولد، وترى كأن روحك تغرق. عليك أن تتذكر عندما يبذل الشيطان ما في وسعه لينسيك».

قال مقطبًا ومحدقًا: «الشيطان، كم وجه للشيطان؟»

قال إليشا: «له وجوه كثيرة، كما سترى من الآن وحتى يحين الوقت الذي تنزل أحمالك. بل إن له وجوهًا أكثر من ذلك، ولكن المرء لا يراها كلها».

قال چون عندئذ: «فيما عدا يسوع. يسوع فقط».

قال إليشا بابتسامة جادة عذبة: «أجل، هذا هو الإنسان الذي يجب أن تعتمد عليه. هذا هو الإنسان الذي يعرف».

كانا يقتربان من منزله – منزل أبيه. في خلال لحظة يجب أن يترك إليشا، ويخطو من تحت ذراعه الحانية، ويسير وحده إلى البيت – وحده مع أمه وأبيه. كان خائفًا. ودّ أن يتوقف ويلتفت لإليشا ويخبره شيئًا... لم يجد الكلمات التي يعبر بها عنه.

«إليشا –» استهل كلامه وهو ينظر في وجه إليشا. ثم قال: «أتصلي من أجلي؟ من فضلك صَلّ من أجلي».

قال إليشا: «لقد كنت أصلي، يا أخي الصغير. ومن المؤكد أني لن أكف عن الصلاة الآن».

ألح جون ودموعه تتساقط: «لأجلي، لأجلي».

قال إليشا وهو ينظر إليه: «أنت تعلم جيدًا أنني لن أكف عن الصلاة للأخ الذي منحنى الرب إياه».

حينئذ بلغا البيت، ووقفا لبرهة ينتظران وينظران لأحدهما الآخر. رأى جون الشمس توشك أن تشرق، في مكان ما في السماء؛ سوف يفسح سكون الفجر مكانه لأبواق الصباح. سحب إليشا ذراعه من على كتف جون ووقف بجانبه، يتطلع إلى الخلف. نظر جون بدوره إلى الخلف ورأى القديسين يقتربون.

«سوف يتأخر القداس كثيرًا هذا الصباح»، قال إليشا، ثم ابتسم فجأة وراح يتثاءب.

ضحك جون وسأله: «ولكن ستكون هناك، أليس كذلك؟ هذا الصباح؟»

ضحك إليشا: «أجل، أخي الصغير. سأحضر. يبدو أن على أن أركض قليلاً لكي ألحق بك».

وراحا يرقبان القديسين. الآن كانوا كلهم يقفون على ناصية الشارع، حيث توقفت عمته فلورنس لتودعهم. كانت النساء تتحدثن معًا، بينما وقف أبوه على مبعدة منهن. تبادلت

عمته وأمه القبلات، كما رآهما يفعلان ذلك مئات المرات من قبل، ثم استدارت عمته نحوهم مُلوحّة.

لوَّحوا لها، وراحت تعبر الشارع على مهلٍ، فكر في اندهاش أنها تسير كامرأة عجوز.

قال إليشا وهو يتثاءب ثانية: «حسنًا، لن تحضر القداس هذا الصباح، أؤكد لك ذلك».

قال چون: «ويبدو أنك ستكون نصف نائم».

قال إليشا: «الآن لا تعبث معي هذا الصباح، فلا تظن لأنك أصبحت مقدسًا أنني لن أستطيع أن أثنيك على ركبتي. أنا أخوك الكبير في الرب – تذكر هذا».

كان أبوه وأمه الآن عند ناصية الشارع القريبة يودعان الأم المصلية واشنطن، والأخت ماكاندلس، والأخت برايس. لوَّحت النساء المصليات لهما، وردا عليهن. حينئذ كانت أمه وأبوه وحدهما يقتربان منهما.

قال چون: «إليشا، إليشا».

قال إليشا: «نعم، ماذا تريد الآن؟»

جاهد چون، وهو يحملق في إليشا، أن يقول له المزيد – جاهد أن يقول – كل ما لا يمكن أن يقال أبدًا. ومع ذلك قال: «لقد نزلت إلى الوادي. وكنت وحدي تحت هناك. لن أنسى ذلك. فلينسني الرب إن نسيت».

عندئذ وصلت أمه وأبوه أمامها. ابتسمت أمه وهي تتناول يد إليشا الممدودة.

قال إليشا: «ليتمجد الرب هذا الصباح. لقد أعطانا شيئًا نمجده عليه».

قالت إليزابيث: «آمين، المجد للرب!»

صعد جون الدرج الحجري القصير، وعلى وجهه ابتسامة خافتة، وأخذ ينظر عليهم. عبرت أمه بجانبه، ودخلت البيت».

قالت ومازالت البسمة على وجهها: «من الأفضل أن تصعد وتخلع ملابسك المبتلة. لا أريدك أن تصاب بالبرد».

ظلت ابتسامتها ملغزة؛ لم يستطع أن يحدد ما تخفيه. ولكي يهرب من عينيها، قبّلها قائلاً: «نعم، يا أمي. أنا قادم».

وقفت خلفه تنتظر في المدخل.

قال إليشا: «المجد للرب، أيها الشماس. أراك في قداس الصباح. إن شاء الرب».

رد جبريل: «آمين، المجد للرب». ثم أخذ يصعد درجات السلم الحجري، وهو يحدق في جون، الذي كان يسد الطريق. فقال له: «اصعد يا ولد، كما قالت لك أمك».

نظر جون إلى أبيه وتنحى عن طريقه، هابطًا الدرج إلى الشارع مرة أخرى. وضع يده على ذراع إليشا، وهو يشعر برجفة، ومن خلفه أبوه.

قال: «إليشا، مهما حدث لي، وأينما ذهبت، ومهما قال الناس عني، مهما كان ما يقولونه، تَذكَّر – من فضلك تَذكَّر – أنني نلت الخلاص. لقد كنت هناك».

ابتسم إليشا، وتطلع إلى جبريل، ثم صاح:

«لقد نال الخلاص، أليس كذلك، شماس جرايمز؟ لقد طرحه الرب أرضًا، وغيره ودَوَّن اسمه الجديد في المجد. تبارك ربنا!»

قَبَّل إليشا جون على جبهته، قبلة مقدسة ثم قال: «أسرع، يا أخي الصغير. ولا تقلق. فلن ينساك الرب. لا تنسَ ذلك».

استدار إليشا وانطلق في الشارع الطويل متجهًا إلى بيته. ووقف جون ساكنًا يراقبه وهو يبتعد. بزغت الشمس في كامل يقظتها. كانت توقظ الشوارع، والبيوت، وتصيح بالنوافذ. نزلت على إليشا كرداء ذهبي، وضربت جبهة جون، في المكان الذي قَبَّله فيه إليشا، كأنها خاتم لا يُمحى للأبد.

شعر بوجود أبيه من خلفه. وبريح مارس تعصف بملابسه المبللة، على جسده المالح. استدار ليواجه أباه – ووجد نفسه يبتسم، ولكن أباه لم يبادله الابتسام.

تبادلا النظر للحظة. وكانت أمه تقف في المدخل، في ظلال الردهة الطويلة.

قال جون: «أنا مستعد. أنا قادم. أنا في طريقي».

تمت

■ قائمة بالإصدارات ■

١	المهمشون في التاريخ الإسلامي	د/ محمود إسماعيل
٢	نحو تحديث دراسة التاريخ الإسلامي	د/ محمد تضغوت
٣	في نقد المثقف والسلطة	أ/ أيمن عبد الرسول
٤	إشكالية المنهج في دراسة التراث	د/ محمود إسماعيل
٥	حوار المشرق والمغرب	د/ حسن حنفي - د. عابد الجابري
٦	في نقد حوار المشرق والمغرب	د/ محمود إسماعيل
٧	بين أخلاقيات العرب وذهنيات الغرب	د/ إبراهيم القادري بوتشيش
٨	فرق الشيعة بين الدين والسياسة	د/ محمود إسماعيل
٩	التراث وقضايا العصر	د/ محمود إسماعيل

١٠	جون قرنق رؤيته للسودان الجديد وإعادة بناء الدولة السودانية	د/ الواثق كمير
١١	ختان الذكور بين الدين والطب والثقافة والتاريخ	د/ سهام عبد السلام
١٢	الرحلة في الأدب العربي	د/ شعيب حليفي
١٣	الحب عند ابن حزم الأندلسى وأبى داود الأصفهاني	د/ محمود إسماعيل
١٤	من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام	د/ بندلي جوزي
١٥	الحركات السرية في الإسلام	د/ محمود إسماعيل
١٦	مقدمة في فقه اللغة العربية	د/ لويس عوض

١٧	الفكر الإسلامي الحديث بين السلفيين والمجددين	د/ محمود إسماعيل
١٨	الرسالة المصرية «صحف إدريس المصري»	المستشار / محمد سعيد العشماوى
١٩	صراع الأمم	المستشار / محمد سعيد العشماوى
٢٠	صدام ما بعد الحداثة إدوارد سعيد وتدوين التاريخ (شيلى واليا)	ترجمة د/ عفاف عبد المعطي
٢١	لعبة الحداثة بين الجنرال والباشا	د/ علي مبروك
٢٢	في نقد الإسلام الوضعي	أ/ أيمن عبد الرسول
٢٣	المثقف والسلطة (إدوارد سعيد)	ترجمة د/ محمد عناني
٢٤	السرد العربي مفاهيم وتجليات	د/ سعيد يقطين
٢٥	تغطية الإسلام (إدوارد سعيد)	ترجمة د/ محمد عناني
٢٦	الاستشراق (إدوارد سعيد)	ترجمة د/ محمد عناني
٢٧	الصورة السردية فى الرواية والقصة والسينما	د/ شرف الدين ماجدولين
٢٨	السرد بين الرواية المصرية والأمريكية	د/ عفاف عبد المعطى
٢٩	الرواية والتراث السردي	د/ سعيد يقطين
٣٠	مناهج البحث	د/ عبد الإله بن مليح - محمد استينو
٣١	الشعر الجاهلى	د/ طه حسين

٣٢	ذكريات وراء القضبان	الفريد فرج
٣٣	فى تأويل التاريخ والتراث	د/ محمود إسماعيل
٣٤	الخطاب السياسى الأشعرى	د/ على مبروك
٣٥	ابعاد الصورة - (سوزان سونتاج)	ت. د/ عفاف عبد المعطى
٣٦	جدل الأنا والأخر (سيرة ذاتية	د/ محمود إسماعيل
٣٧	عز الدين بن شداد مؤخرا	د/ سند أحمد سند
٣٨	ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى	عبد الباقى السيد
٣٩	الرق فى المغرب منذ بداية الفتح الإسلامى	د/ خالد حسين
٤٠	ما وراء تأسيس الأصول	د/ على مبروك
٤١	آورا (كارلوس فوينتس «رواية»)	ترجمة / صالح علمانى
٤٢	باولاً (إيزابيل الليندى «رواية»)	ترجمة / صالح علمانى
٤٣	مصرع أحلام مريم الوديعة «رواية»	واسيينى الأعرج
٤٤	ذاكرة الماء «رواية»	واسيينى الأعرج
٤٥	نوار اللوز «رواية»	واسيينى الأعرج
٤٦	المفكرون العرب والصهيونية وفلسطين	حلمى النمنم
٤٧	فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطبقا	د/ عادل مصطفى
٤٨	التفكير فى العلمانية	د/ كمال عبد اللطيف
٤٩	ثقافة المقاومة	د/ فايز رسيد
٥٠	الحداثة ونقد الأدلوجة الأصولية	مصطفى خلال

٥١	الخريطة المعرفية للمجتمع العالمى	السيد يسين
٥٢	نقد الفقهاء لعلم الكلام	د/ أحمد سالم
٥٣	الليبرالية إشكالية مفهوم	د/ ياسر قنصوة
٥٤	تجـــديد الفكر الدينى عند أمين الخولى (عقلانية أم علمانية)	د/ أحمد سالم
٥٥	ادلجة الإسلام بين أهله وخصومه	د/ سعيد بن سعيد العلى
٥٦	الفكر الفلسفى فى المغرب العربى	د/ كمال عبد اللطيف
٥٧	سوسيولوجيا الأدب	يوسف الأنطاكى
٥٨	شعرية السيرة الذهنية	د/ محمد الداهى
٥٩	ذكريات صاحب الخبز الحافى	محمد العشاب
٦٠	التأملات - ماركوس أوريليوس	ت. عادل مصطفى
٦١	الرمـز والوعي الجـمـعي دراسـات في سوسيولوجيا الأديان	أشرف منصور
٦٢	إشكالية التراث في الفكر العربي	أحمد سالم
٦٣	لحظات تفكير في قضايا عالم مضطرب	إبراهيم القادري
٦٤	الإسلاميون التقدميون	صلاح الجورشي
٦٥	المسلمون والحداثة الأوروبية	خالد زيادة
٦٦	نحو ثورة في الفكر الديني	محمد النويهي
٦٧	دولة الخلافة	سعيد بنسعيد العلوي
٦٨	الطبيعيات في علم الكلام	يمنى الخولي
٦٩	المنهجية الأصولية والمنطق اليوناني	حمو النقاري

٧٠	سيد قطب الخطاب والأيديولوجيا	محمد حافظ دياب
٧١	الخوارج في بلاد المغرب العربي	محمود إسماعيل
٧٢	المعرفة والسلطة في التجربة الإسلامية	عبد المجيد الصغير
٧٣	الصراع الإثني في المغرب الأقصى	سلمى محمود إسماعيل
٧٤	مشكلة عورة المراة وملبسها	مصطفى معوض
٧٥	الوعي المحلق إدوارد سعيد وحال العرب	يحيى بن الوليد
٧٦	الخلدونية والتلقي	محمد حافظ دياب
٧٧	قضايا الرواية العربية الجديدة	سعيد يقطين
٧٨	سيمياء التأويل	رشيد الإدريسي
٧٩	مسك الليل «رواية»	سعيد بنسعيد
٨٠	شقة جامعة الدول «رواية»	محمد عبد الغفار
٨١	العنكبوت «رواية»	منصور مهنى
٨٢	جنازة «رواية»	سمير عامودي
٨٣	المسلسون «رواية»	أسامة الفروي
٨٤	المشغوف «رواية»	أسامة الفروي
٨٥	الوبر والمدرة «رواية»	محمود إسماعيل
٨٦	صراخ في البرية «شعر»	محمود إسماعيل
٨٧	المدخل إلى الفلسفة	وليم جيمس ايرل ت. عادل مصطفى
٨٨	أسباب الإنقلاب العثماني	محمد روحي الخالد/خالد زيادة
٨٩	الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده	سليمان البستاني/خالد زيادة
٩٠	مشكلة العلوم الإنسانية	يمنى الخولى

"كان جسده ، وهو يفكر في هذا ،
يتجمد في عرقه البارد ، ومع ذلك
تعتريه سورة من عنف ذكرى
الشهوة ، وإذا به يصل إلى شجرة
على تلة منخفضة ، يقع المنزل
وراءها ، بعيداً عن الأبصار ، حيث
ترقد أمه . وعلى حين غرة قفزت
إلى مخيلته - كالمياه التي تجتاح
السدود في عنف وتفيض على
الضفاف ، في اندفاعها الطليق نحو
البيوت الساكنة المحتومة المصير
والتي ما زالت الشمس ترتعش
شاحبة على أسطحها ونوافذها -
ذكرى كل الصباحات التي ارتقى
فيها إلى هنا ومر بتلك الشجرة ،
التي كان يلمحها في لحظة بين
الخطايا التي ارتكبها والخطايا
التي سوف يرتكبها."

أعلنوه فوق الجبل

جيمس بولدوين



رواية

الغلاف حسين جميل